

جامعة عين شمس

كلية التربية

قسم التاريخ

مذكرات في تاريخ الحرب والإسلام

دكتور

محمد عبد الحميد عيسى

أستاذ التاريخ الإسلامى بتربية عين شمس

١٩٩٩

جامعة عين شمس

كلية التربية

قسم التاريخ

مذكرات فى تاريخ العرب والإسلام

دكتور

محمد عبد الحميد عيسى

أستاذ التاريخ الإسلامى بتربية عين شمس

١٩٩٩

الإهداء

إلى روح والدي رحمهم الله

سائلًا المولى سبحانه وتعالى

لهمنا ولنا ولأهلنا جميعًا

المغفرة و حسن الجزاء

مقدمة الكتاب

تاريخ العرب والإسلام مصطلح جديد يتضمن مفهوما واسعا جدا من الصعب عرضه في كتاب واحد مهما بلغت ضخامته لأن تاريخ العرب قد يعنى كل تاريخ هذه الأمة المحددة الصفات والسمات والمعروفة لدى المؤرخين بالأمة العربية ، والقاطنة كل أرض العرب في القارتين الآسيوية والأفريقية كما يعنى تاريخ كل العرب مسلمهم ومسيحهم ويهوديهم ، ويعنى أيضا تاريخ هذه الأمة قديما وحديثا دون تحديد لفترة زمنية معينة .

أما باقي المصطلح ، تاريخ الإسلام فهو فضفاض إلى درجة كبيرة على ما هو الحال في نصف المصطلح الأول " العرب " وقد يعنى تاريخ الأمة الإسلامية بكاملها في المشرق والمغرب ، ومنذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا ، لأن الإسلام لا يزال حيا نابضا يحرك مئات الملايين المؤمنين به في كافة أطراف المعمورة .

هذه هي خطورة وضع مسميات أو مصطلحات عامة ، فضفاضة غير محددة . وربما نلتبس العذر لمن وضع تلك المسميات بأنه أراد تقديم ثقافة موجزة إلى طلاب غير متخصصين في التاريخ ، وأنه رأى الخير في أن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، ولا ريب في فائدة ما يقدم إلى الطلاب ولو كان مختصرا وموجزا .

ومن هنا أثرت كتابة هذه الصفحات لكي يسترشد بها طلابي في دراستهم الجامعية ، وكل أملى منها أن أثير في نفوسهم شوق التعرف على تاريخ الأمة العربية ، وعلى تاريخ ظهور الإسلام وانتشاره لعل بعضهم يرجع إلى ما أشير من مصادر ومراجع لإرواء ظمأ ، أو إشباع رغبة .

ولا يخفى على كل لبيب أن مثل هذه الكتابات العامة تخلو في كثير من جوانبها مما يجب أن تتمتع به المؤلفات الجامعية والتي يجب أن تتميز بالتحليل والشرح والتعمق في النقاط ، وإبراز الآراء المتعارضة والمتوافقة والرجوع إلى المصادر والمراجع وذلك كله يتعارض مع ما يجب أن يكتب تحت ذلك المصطلح الواسع والفضفاض .

وسأحاول جهدي أن أشق طريقا وسطا بين هذين المحظورين سائلا المولى سبحانه وتعالى التوفيق ، فإن أصبت فمن توفيق الله وإن أخطأت فإن حسبي أنني اجتهدت . وعلى الله قصد السبيل .

د . / محمد عبد الحميد عيسى

رئيس قسم التاريخ بكلية التربية - جامعة عين شمس

الألف مسكن : إبريل ١٩٩٩ م

الباب الأول

مصادر كتابة تاريخ العرب والإسلام
جغرافية بلاد العرب
السكان في بلاد العرب
حضارة جنوب الجزيرة العربية
حضارة شمال الجزيرة العربية
حضارة وسط شبه الجزيرة العربية
أحوال العرب قبيل الإسلام

مصادر كتابة تاريخ العرب والإسلام

تعتمد الكتابة التاريخية على مجموعة متنوعة من المصادر تتوافر أحيانا في مجالاتها السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والفكرية وغيرها ، وتشح في أحيان أخرى مما يجعل من الصعب على الباحثين رسم تلك الصورة التي يجب تصميمها وإيضاحها للأجيال الحاضرة لكي يتفهموا ويحيطوا علما بما كانت عليه الأمم السابقة .

وبما أنه لا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه باعتباره كائنا اجتماعيا ، وبما أنه من الضروري بالنسبة له أن يعرف تاريخ تطوره ، وتاريخ أعماله وآثاره ، فيدرس العوامل التي أدت إلى قيام المجتمعات ، ونشأة الدول ، والعوامل التي أدت إلى أن تقع بينها الحروب والغزوات ، وأن تحاول أمة إبادة أمة أو القضاء عليها أو إضعافها ، وما خلفه ذلك الصراع الطويل من آثار إيجابية أو سلبية .

وبما أنه لا غنى أيضا عن تتبع حركة الحياة الاجتماعية ، وانتقال الإنسان من عصور البداوة إلى قفزات التطور العلمي الذي أصبح يقاس بالدقائق والساعات .

وحيث أنه من الضروري أن يتعرف الإنسان على نشأة كل الأشياء المرتبطة بحياته وتطورها منذ فجر المعرفة الإنسانية وحتى يومنا هذا مثلا بدأ من الاعتماد على ما خلقه لنا ذلك الماضي من مصادر .

وتاريخ العرب والإسلام من الموضوعات الأساسية التي نسعى لتعريف طلابنا به أيا كانت مشاربهم الثقافية أو تخصصاتهم العلمية ، لأن ذلك التاريخ هو الذاكرة التي تساعد أبنائنا على الحفاظ على كينونتهم ، وعلى توازنهم ، ولأن ذلك التاريخ يساعدهم على تفسير كثير من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك من ظواهر الحياة المعاصرة التي يتعرضون لها .

ويمكن تقسيم مصادر تاريخ العرب والإسلام على النحو التالي :

أولا :- المصادر غير المكتوبة ، وهى كل ما وصل إلينا من مخلفات الشعوب العربية سواء كانت مصنوعة من الحجر أو المعدن ، وما حفره فى الصخر أو إقامة من منازل أو معابد الأسواق أو سنود أو مقابر وكل ما يرتبط بحياته من أدوات مختلفة الاستعمال وغير ذلك من الشواهد التى يمكن أن تساعدنا على التعرف على نمط الحياة وشكلها .

ويهتم علماء الآثار بهذا النوع من المصادر ، وهى شاغلهم الأول ونطلق عليها فى استعمالنا العادي كلمة " الآثار " .

والآثار هى التاريخ الحى لأهلها ، وهى الشاهد الصادق من حضارة أصحابها ، وتكشف عن المستوى الحقيقى من ناحية البداءة والتقدم ، الفقر والغنى ، الجهل أو العلم ، الأصالة أو التقليد ، التأثير والتأثر ، وتعطينا صورة أقرب ما تكون عن واقعهم الاجتماعى والاقتصادى والعلمى والدينى وحياتهم السياسية ، وأزياءهم وأدواقهم ولغتهم وغير ذلك .

ثانيا :- المصادر المكتوبة وأقصد بها كل ما جاءنا مكتوب مهما كان شكل الكتابة ، أى ما سجله الإنسان عن نفسه منذ عرف الخط والكتابة وهذه المصادر من الأهمية بمكان مهما اختلف شكلها أو اللغة سجلت بها والمصادر التاريخية المكتبة كثيرة ومتنوعة فمثلا :

أ- المصادر الدينية كالتوراة بما تتضمنه من أسفار وقصص ليست كلها منزلة من السماء ، وليست كلها من رسالات الأنبياء ، وإذا كان بعضه له قداسته ، فإن بعضها الآخر تضمن أخبارا أضافها الأحبار والرواة ، وصورت هذه المصادر فى عبارات مقتضبة من سفر التكوين ، وسفر حزقيال ، وسفر المزايد ، وسفر عاموس ، وسفر دانيال .

ومن التلمود علاقات العبرانيين ببعض قبائل ودويلات عرب شبه الجزيرة ومعلوماتهم عنهم وعن مناطقهم تصويرا بعضه مقبول وأغلبه مفتعل ، وحاولت أن ترتب أنساب القبائل التى عرفها العبرانيون ترتيبا قليلة مقبول وكثيره مفتعل ومن ثم علينا الحرص الشديد فيما جاءتنا به الكتابات اليهودية القديمة .

ومن المصادر الدينية الهامة ، القرآن الكريم ، والذي هو أساس التشريع الإسلامي والمصدر الأول لتاريخ العرب فى عصر الجاهلية ، وأصدق المصادر المدونة على الإطلاق لأنه تنزيل من الله سبحانه وتعالى ، ولا شك فى صحة نصه ففيه ذكر لكثير من مظاهر حياة العرب السياسية والاقتصادية وعاداتهم الاجتماعية وثقافتهم الدينية ، والكثير من أخبار قبائلهم وشعوبهم والمصير التى آلت إليه بعض جماعتهم وما تعرض له أصحاب الأخدود أو ما جرى بين الفرس والروم .

وعلى الرغم من هذا فإن عددا من المستشرقين لا يعتبرون الكتب المقدسة من المصادر التاريخية التى يعول عليها باعتبارها كتب عبيرة أخلاقية ، كما أنها ليست كتب تاريخ على وجه الدقة والتحديد ، وإن كان هذا لا يقدح فى صحة ما جاء فى القرآن الكريم وأن ما جاء فى هذا النص لا يرقى إليه الشك للتأكيد على وقوع بعض الأحداث فى الجاهلية مثل حادثة أصحاب الأخدود ، وحادثة سيل العرم ، وقصة أصحاب الفيل ، ثم أنه مرآة صادقة للحياة فى الجاهلية ، يصور الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية أيضا أصدق تصوير .

والحديث النبوي الشريف مصدر أساسي لتاريخ العرب والإسلام بسبب دقة النقل والتشدد الكبير فى روايته والتى استخدمت الرواية والإسناد حتى نصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو السلف الأول من الصحابة وهو وإن كان مصدرا فقهيا فى المقام الأول إلا أنه يعد مصدرا تاريخيا أساسيا لما يحويه من إشارات ، ولما فيه من أخبار وخاصة من عصر ما قبل الإسلام وعصر النبي صلى الله عليه وسلم ، بل وأكثر من ذلك وهو مصدر مهم عن القرن الأول الهجري .

ب- المصادر غير الدينية ويمكن تقسيمها إلى نوعين أيضا ، كتابات غير العرب والكتابات العربية.

(١) الكتابات التاريخية اليونانية واللاتينية والسوريانية وهى على ما فيها من أخطاء تاريخية فإنها تتضمن معلومات يمكن الاستفادة منها عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، كما ان بها بعض المعلومات عن جغرافية هذه البلاد وتأتي معظم معلومات هذه المصادر من الرحالة والتجار و المحاربين اليونان والرومان ، وخاصة من شاركوا في حملة أليوس جايوس الرومانية على بلاد اليمن . يضاف الى ذلك أن كتابات الجغرافيين اليونان و الرومان تضمنت الكثير من المعلومات التي تفيد في هذا المجال .

(٢) المصادر الدينية المسيحية وتشتمل على الكثير من أخبار البلاد العربية وعلاقتها باليونان والفرس ، وهى بحكم حداثتها النسبية فإن معلوماتها أكثر دقة وأقرب إلى الصحة ، كما أنها كانت على صلة وثيقة بالأحداث التي تعرض لها النصارى في بلاد العرب وخاصة في اليمن .

(٣) المؤلفات العربية ، وخاصة فى مجال سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أهتم المسلمون بكتابة كل ما تعلق بالرسول عليه السلام سواء ما كان مرتبطا بنسبه ونسب آباءه وأجداده حتى أصوله الأولى وأشهر المؤلفات فى هذا المجال الكتاب الذي كتبه أبو عبد الله محمد بن اسحق المتوفى ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ووصلنا عن طريق الاختصار الذي قام به أبو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م والذي أصبح يعرف فى المصادر الإسلامية منسوبا إلى هذا الرجل فأطلق عليه السيرة النبوية لأبن هشام .

جانب آخر من حياة المسلمين لقى اهتماما فى الرصد والتسجيل والكتابة والتأليف ألا وهو مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفتوحات الإسلامية التى وقعت على عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية .

ولعل أقدم المؤلفات فى هذا المجال هو كتاب الواقدي المعروف بالتاريخ والمغازي والميعث ، وللرجل مؤلفات كثيرة حتى قيل أن ما خلفه من كتب يملأ ستمائة قمطر كبير .

ومن أهم المؤلفات الإسلامية الكثيرة فى هذا المجال فتوح مصر لأبن عبد الحكيم و فتوح البلدان للبلاذرى .

وهناك جانب آخر أبدع المؤرخون المسلمون الكتابة فيه ، ألا وهو الخاص بالأنساب وطبقات العرب لتلك الناحية من أهمية دينية وتاريخية ، حضرت مؤلفات كثيرة فى هذا المجال منها " الطبقات الكبرى " لأبن سعد و " أنساب الأشراف " للبلاذرى ، ونسب قریش وغير ذلك من المؤلفات .

ومن الطبيعى أننا لا نعدم مؤلفين مؤرخين مسلمين منذ العصور الباكرة للإسلام منهم إيان بن عثمان بن عفان رضى الله عنهما المتوفى ١٠٥ هـ ، وعروة بن الزبير بن العوام رضى الله عنهما المتوفى ٩٢ هـ ، وشر جيل بن سعد الأنصارى المتوفى ١٢٣ هـ . وتلت هؤلاء وغيرهم طبقة أخرى أكثر اتساعاً منهم عبد الله بن محمد بن حزم الأنصارى المتوفى ١٣٥ هـ ، وعاصم بن عمر بن قتادة الظفرى المتوفى ١٢٠ هـ وأبن شهاب الزهرى تلميذ عروة بن الزبير المتوفى ١٢٤ هـ .

وجاءت طبقة ثالثة أثرت الكتابات التاريخية ومنها موسى بن عقبة ١٤١ هـ ومحمد بن اسحق صاحب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومحمد بن عمر الواقدى الذى يعتبره أ . د . السيد عبد العزيز سالم الثانى بعد أبن إسحاق فى اتساع علمه بالمغازي والسيرة والتاريخ ، بل فاق أبن إسحاق فى دقة المادة والأسلوب مع زيادة الاهتمام بتحقيق تواريخ الأحداث ، وتوضيح الإطار الجغرافى المتصل بالمواقع ، وأنه كان أعلم الناس بأهل الإسلام .

ومن أشهر المؤلفات الإسلامية التى قدمت التى قدمت لنا مادة علمية رائعة مؤلفات أبى مخنف المتوفى ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م وينقل عن معظم مؤرخي الإسلام القدامى ، وأن عابه تحمسه الكبير للشيعه مما يلقى ظللاً على رواياته . ومنهم المنذر بن هشام الكلبي الإخبارى المتوفى ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، ويعد كتابه عن " الأصنام " أهم مصدر تاريخى عن الحياة الدينية للعرب قبل الإسلام . ومنهم كتاب " الأخبار الطوال " لأبى حنيفة الديتورى المتوفى ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ثم التاريخ الكبير لليعقوبى الإخبارى المتوفى ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م وبه نبذ مهمة جدا عن تاريخ الجاهلية وأبرز شعرائها وأهم أسواقها ، وكذلك ملخصات لتاريخ الأمم السابقة على الإسلام .

ونصل إلى الكتاب المعروف " تاريخ الأمم والملوك " للعالم الجليل محمد بن جرير الطبري المتوفى ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م ، والذي تضمن أخبار تتصل بتاريخ البشر منذ بداية الخلق حتى تاريخ وفاته ، وأعتمد فيه ترتيب السنين منها للكتابة .

ومن المؤلفات الأندلسية الهامة كتاب " العقد الفريد " لأبن عبد ربه المتوفى ٣٢٧ هـ / ٩٣١ ، والمقتبس لأبن حيان ، ومؤلفات المراكشيين وأبن الخطيب إلى أن نصل إلى تاريخ بن خلدون المعروف " بالعبر وديوان المبتدأ والخبر " وفيه أخبار العرب والشعوب الأخرى ، وبخاصة سكان شمال أفريقيا .

جانب آخر أبدع فيه الكتاب المسلمون ويعتبر مصدرا أساسيا للكتابات التاريخية ألا وهو مجال الجغرافية حيث احتوت هذه المؤلفات مع كثير من المعلومات التاريخية الخاصة بالفتوحات ، ومصادر الدخل ، والجزية ، والخراج وغير ذلك مما يساعد على التعرف على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للعالم الإسلامي .

وتتوقف عند المصادر الأدبية وهي عند العرب من الكثرة بحيث لا تحصى ، ولقد قيل قديما " الشعر ديوان العرب " ومن هنا كان الشعر وخاصة في العصر الجاهلي مصدرا أساسيا وهاما لإعطائنا صورة عن ذلك العصر فهو يصور أحوال العرب البيئية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ويبين لنا طباعهم وأخلاقهم ، وعاداتهم ودياناتهم ، وأيامهم ، وهو بصورة مجملّة القاموس الذي يرجع إليه للتعرف على كثير مما يرتبط بتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده .

بلاد العرب

الموقع - الأقسام - المناخ - السكان

يقصد التعبير الجغرافي "بلاد العرب" المنطقة التي سكنها ذلك الجنس البشري المنحدر من أصل سامي والذي عرف عبر التاريخ باسم "العرب" ويطلق عليها المؤرخون والجغرافيون اسم "جزيرة العرب" ولا يعني ذلك عدم معرفتهم معني المصطلح الجغرافي "الجزيرة" ، إنما جاء ذلك أما تجاوزا باعتبار شبه الجزيرة جزيرة أو لأنهم استطاعوا أن يربطوا بين مياه الخليج العربي والمحيط الهندي ، والبحر الأحمر ومياه النيل ودجلة والفرات حتى أطاحوا أرض العرب بالماء من جميع الجهات .

تقع بلاد العرب في الجنوب الغربي لقارة آسيا وتكتنفها الحدود الطبيعية من جميع الجهات ، فالشرق يحده الخليج العربي ، والغرب البحر الأحمر والجنوب المحيط الهندي وبحر العرب أما الشمال فإنه يحدد ببادية الشام وتشتمل هذه المنطقة حاليا على عدد من الوحدات السياسية أكبرها وأهمها المملكة العربية السعودية، ثم اليمن والكويت ودولة الإمارات المتحدة، وقطر والبحرين وسلطنة عمان.

- تنقسم المنطقة من الناحية التضاريسية إلى أقسام رئيسية اختلف الجغرافيون في تحديدها بالضبط، فهناك من جعلها ثلاثة أجزاء هي :
- ١- بلاد العرب الصخرية، وتشتمل على المثلث الواقع بين خليجي البحر الأحمر والمنطقة التي تليه إلى الشمال والشمال الشرقي.
 - ٢- بلاد العرب الصحراوية وتضم المنطقة التي تقع فيها بادية الشام وما يمتد جنوبها من داخل شبه الجزيرة العربية.
 - ٣- بلاد العرب السعيدة وتضم باقي أجزاء شبه الجزيرة العربية.

وهناك من الجغرافيين المحدثين من يميل إلى تقسيمها بحسب قربها أو بعدها من البحر، وعلي هذا الاعتبار قسموها إلى قسمين كبيرين هما :

- ١- بلاد العرب المتصلة بالبحر وتشمل الحجاز وعسيرا واليمن وحضرموت وعمان والاحساء .
- ٢- بلاد العرب الداخلية وهذه تشمل نجدا والصحاري الداخلية.

ويذهب أغلب الجغرافيين العرب إلى تقسيمها إلى خمسة أقسام رئيسية:

تهامة - نجد - الحجاز - اليمن - العروض

تهامة :

هي الإقليم الساحلي الممتد بحذاء البحر الأحمر انطلاقا من اليمن في الجنوب إلى أقصى الشمال ومن جبال السراة شرقا إلى البحر الأحمر غربا ونظرا لطول الإقليم فانه يحمل عدة أسماء مثل "تهامة الحجاز" في الحجاز و "تهامة عسير" في العسير ، أما العرض فيختلف باختلاف موقع الجبال من البحر حيث يضيق حين تقترب من البحر والعكس بالعكس، ونظرا لانخفاض أرض تهامة فإنها تسمى أحيانا بالغور، أما التسمية "تهامة" فترجع إلى شدة

حرها وركود هوائها وتقع هذه الأراضي حاليا في دولتي اليمن والمملكة العربية السعودية .

الحجاز:

يحتل إقليم الحجاز مكانة تاريخية ودينية ثابتة في قلوب المسلمين باعتباره موطن الدين الإسلامي ،ومهد النبوة وسمي حجازا لحجزه ما بين اليمامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد فصارت نجد ما بين الحجاز إلى الشام .ويقال سمي حجازا لأنه احتجز بالجبـال،ويقال أنه سمي حجازا لأنه حجز بين تهامة ونجد.وقال الخليل سمي حجازا لأنه فصل بين الغور وبين الشام وبين تهامة ونجد ويضم إقليم الحجاز عدة مدن أهمها مدينة رسول الله صلي الله عليه وسلم وبها مقبرة ومدافن كبار الصحابة ومكة وبها البيت الحرام ، والطائف وخيبر وفدك وتيماء وتبوك ووادي القرى. وفي هذا الإقليم قامت دولة الإسلام أول عهد رسول الله. وجرت به أحداث كبرى أبان عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية وكان وما زال من أقاليم المملكة العربية السعودية ذات الأهمية.

نجد :

هضبة مرتفعة تحتل وسط شبه الجزيرة العربية وتقع بين بادية السماوة في الشمال والذهناء في الجنوب ومن أطراف العراق شرقا إلى الحجاز غربا ويعتبره الجغرافيون أوسع أقاليم شبه الجزيرة العرب،وأحسنها هواء وأصحها أجواء ومهد عدد من الشعراء القدامى الذين خلدوها في شعرهم وترنموا بها في أناشيدهم،وسميت بذلك الاسم لارتفاع الإقليم والذي يصل إلى نحو ألف ومائتي متر عن مستوي سطح الأرض ،وفي نجد كثير من الجبال والأودية والصحاري التي تتميز بأنها ليست قاحلة تماما ، وإنما

تتخللها المراعي الجيدة التي تربي عليها الجياد العربية وكذلك بعض العيون غزيرة الماء.

اليمن :

عرفت عند المؤرخين باليمن السعيد أو اليمن الخضراء، وذلك لما حباها الله من وفرة في الماء وفي الزرع وكثرة الرزق والخيرات، وهي الأرض التي أشار إليها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حين قال: (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خبط وأثل وشئ من سدر قليل) (سورة سبأ). وتطل اليمن على البحر الأحمر من الغرب وبحر العرب من الجنوب وبالعروض شرقاً ، وتنقسم بحسب طبيعتها إلى قسمين رئيسيين وان كانا غير متساويين من ناحية المساحة، وهما: تهامة اليمن، ويقصد بذلك الساحل المطل على البحر الأحمر ، وتعتبر امتداد لتهامة العسير، أما القسم الثاني فيعرف بنجد اليمن ويتضمن أربع هضاب هي :

هضبة نجران في الشمال - هضبة مأرب في الشرق - هضبة صنعاء في الوسط - هضبة تعس في الجنوب وتبلغ: المساحة التقريبية لليمن ٧٢٧١٥ ميل مربع .

ونتيجة لموقع اليمن الجغرافي وتمتعها بمناخ منفرد عن باقي أجزاء شبه الجزيرة فإنها أصبحت ومنذ فترة موعلة في التاريخ أسبق مناطق شبه الجزيرة في الترقى على طريق التطور وبناء الحضارة وقيام الدولة مما سنشير إليه فيما بعد.

ولهذه الأسباب أيضا فإنها تحكمت في الطرق التجارية القديمة وخاصة طرق تجارة منتجات جنوب آسيا، وانتقال هذه المنتجات إلى الأمم القاطنة على ضفاف البحر المتوسط، وجعل ذلك من بلاد اليمن هدفا للغزو الأجنبي ومطمعا لليونان والرومان والأحباش والفرس، وسنتناول ذلك عند حديثنا إن شاء الله عن تاريخ المنطقة.

وتشتمل بلاد اليمن على عدة بلاد هامة منها نجران في الشمال وكانت مركزا من مراكز المسيحية الهامة قبل الإسلام. وفي الوسط مدينة صنعاء عاصمة جمهورية اليمن وعدن المرفأ الرئيسي لليمن وهي محط تجارة الهند والحجاز والحبشة ومفتاح الحركة التجارية في البحر الأحمر ونقطة الصلة بين الشرق والغرب. وتشكل بلاد اليمن موقعا استراتيجيا هاما على مدخل باب المندب وإطلالها على البحر الأحمر والبحر العربي.

العروض :

هي تلك المنطقة الواسعة التي تضم بلاد اليمامة والبحرين والمطلية على ساحل الخليج العربي وهناك إجماع على تسميتها بذلك الاسم لأنها تعترض بين اليمن ونجد العراق وعرفت قديما باسم جوا، وكانت موطننا للقبائل العربية البائدة طسم وجديس، واختلف في تسميتها باليمامة فهناك من أرجع ذلك إلى اليمامة بنت سهم بنت طسم وقيل أن التسمية ترجع إلى أشهر بلد فيها وهي اليمامة وتقع في الجنوب الغربي من الاحساء.

وكانت بلاد اليمامة قديما من البقاع الخصبة في الجزيرة العربية والي الشرق منها تقع البحرين وتطل على الخليج العربي وعاصمة هذه البلاد تسمى هجر، واستمرت كذلك حتى القرن الرابع الهجري حين ظهر القرامطة

وأنشأوا مدينة لهم أسموها الاحساء ،ومن الناحية السياسية فإن قسما كبيرا منها يشكل جزء من المملكة العربية السعودية أما البحرين فتعتبر دولة مستقلة. كما أنها تضم الآن بعض الدول العربية وهي الكويت - البحرين - قطر الإمارات العربية المتحدة - سلطنة عمان.

مناخ الجزيرة العربية :

يتسم مناخ شبه الجزيرة العربية بصفة عامة بالجفاف وقلة الأمطار ولا ينطبق هذا الكلام على جميع أجزاء شبه الجزيرة لأن جبال اليمن وعملان تتلقى في فصل الصيف كمية كبيرة من الأمطار كانت سببا في استقرار الناس في هذه المناطق واشتغالهم بالزراعة، أما باقي شبه الجزيرة العربية فإنه يتلقى كمية خفيفة من الأمطار في فصلي الخريف والشتاء وترتفع درجات الحرارة بشدة في فصل الصيف بينما يكون الجو معتدلا جافا في باقي الفصول. ومع أن هذه هي السمة الغالبة إلا أن شبه جزيرة العرب قد تتعرض لنوبات مطر قوية جدا وخاصة على المناطق الجبلية ،وساعد ذلك على قيام زراعات ثابتة في مناطق مثل نجد وإقليم الاحساء وحائل والمدينة وغيرها .

سكان شبه الجزيرة العربية

أوردت قواميس اللغة كلمة "عرب" على أنها لفظ يطلق على أجيال من الناس ،سامية الأصل ،منشؤها شبه جزيرة العرب دون تحديد لتاريخ ظهور هذه الكلمة أو لمعناها على وجه الدقة.

وأقدم الإشارات التي وردت عن العرب جاءت في السجلات الآشورية التي ترجع إلى عهد شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م)، كما أن هناك إشارات في السجلات البابلية من عهد (نابونيد ٥٥٥-٥٣٩ ق.م)، ثم ظهرت هذه الإشارات في الكتابات الإغريقية القديمة على عصر هوميروس ثم بعد ذلك ضمن السجلات التي تتناول الصراع اليوناني-الفارسي .

أما في المصادر الأثرية العربية فقد تأخر ظهور هذا اللفظ إلى حوالي القرن الأول قبل الميلاد ،حين ظهر في بعض النقوش الأثرية السبئية وقد وردت هذه الإشارة بمعنى الإعراب، أي سكان البوادي ، أما أهل المدن فقد كانوا يعرفون بمدنهم أو قبائلهم، كما أن اللفظ قد ورد أيضا في نقش يعرف تاريخيا باسم "نقش شاهد التجارة" وهو نقش كتب باللغة الأرامية النبطية، ويرجع تاريخه إلى عام ٣٣٠ ق . م وجاء أيضا بمعنى الأعراب سكان البادية.

والقرآن الكريم هو أول مصدر عربي يستخدم لفظ "عرب" للدلالة على الجنس العربي ،وللدلالة على قوم يعنيهم القرآن بهذا اللفظ مما يدل على شمول هذه التسمية ووجودها قبل نزول القرآن ،وان كان من الصعب علينا

تحديد التاريخ الذي بدأ فيه استخدام هذه الكلمة للدلالة على "الجنس العربي" أو "الشعب العربي".

أصل العرب :

يختلف المؤرخون في تحديد أصل الشعب العربي ،وبالتالي طبقات هذا الشعب ، والآراء الأكثر شيوعا في هذا المجال هي:
أولاً: انقسام العرب إلى قسمين : العرب البائدة والعرب الباقية والعرب البائدة هي الشعوب العربية التي اندثرت من الوجود ولا نجد لها ذكرا إلا في الشعر العربي والقرآن الكريم مثل (طسم-جديس-هود-صالح...الخ). أما العرب الباقية فينقسمون إلى قسمين هما :عرب الجنوب وعرب الشمال.

ثانياً: انقسام العرب إلى ثلاثة أقسام : العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة،وفي نظر هذا الفريق ، أن العرب البائدة هي التي لم يعد لها وجود، وانما يستدل عليها بما جاء في القرآن الكريم وما أثبتته بعض الكشوف الأثرية .

العرب العاربة :

أي العرب الراسخون في العروبة ،وينتسبون إلى قحطان بن عابر والذي ينتهي نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام ،ويري المؤرخون أن هذه العرب العاربة هي أول أجيال العرب الباقية حتى اليوم وأنهم أصل الحضارة العربية وخاصة في جنوب شبه الجزيرة .

العرب المستعربة:

وهم ولد عدنان من نسل إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام ،
وسميت هذه الأجيال بالعرب المستعربة لحدثتها في العربية وتعلمها هذه
اللغة من العرب العاربة . وان وجدت بعض الآراء التي تجعل من كلا
القسمين من العرب من نسل إسماعيل ابن إبراهيم ، وكما هو شائع التعبير
بأن إسماعيل هو جد العرب ، كما أن اسحق هو جد العبرانيين .

ويري الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتابه عن تاريخ العرب
قبل الإسلام أن هذه التقسيمات ، محدثة ، وأن القرآن لم يشر إليها ، كما أنه
لم يظهر لها أية بوادر على عهد النبي عليه الصلاة والسلام ولا عهد خلفائه
الراشدين ، وان هذه التقسيمات - كما يري الأستاذ/جواد علي - أن هذا
التقسيم لم يبرز إلا في العصر الأموي أبان النزاع الحزبي .

ويري ابن كثير في هذا التقسيم رأيا آخر فيقول : قيل أن جميع العرب
ينتسبون إلى إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام ، والصحيح المشهور أن
العرب العاربة قبل إسماعيل وقد قدمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود
وطسم وجديث واميم وجرهم والعمالقة وامم آخرون لا يعلمهم إلا الله كانتوا
قبل الخليل على الإسلام وفي زمانه أيضا .

فأما العرب المستعربة و هم عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل واما
عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان واسمه مهزم ... وقيل أن
قحطان من سلالة إسماعيل .

وكل قسم من هذين القسمين يتفرع إلى عدة بطون وقبائل ونذكر من تقسيمات العرب العاربة، أي عرب الجنوب جرهم ويعرب ، ومن يعرب تشعبت القبائل والبطون أيضا وكان منهم كهلان وحمير ، ومن حمير ظهرت قضاة ، ومن كهلان الأزد وطئ ومزحج وهمدان وكهلة وغيرهم .

أما العرب المستعربة وهم الذين قطنوا أواسط الجزيرة العربية وبلاد الحجاز فقد اختلف الاخباريون في أنسابهم اختلافا ونذكر منهم مصر وربيعة ، وقيس وعيلان وهوازن وسليم وتقيف وقريش .

النشاط السكاني :

اختلف نشاط السكان في شبه الجزيرة العربية باختلاف الموقع والمناخ فهناك مناطق اهتمت بالزراعة و أخرى بالتجارة ومناطق أخرى كلن الرعي وتربية الحيوان هما العامل الأساسي في حياة السكان ، ولا شك أن الموقع الجغرافي قد لعب دورا هاما في هذا النشاط ففي جنوب جزيرة العرب تسقط كميات وافرة من الأمطار ، علاوة على أن طبيعة الأرض بركانية، فاجتمع العاملان . الماء و التربة وهما عاملان مساعدان على الزراعة - وكان سببا في استقرار الإنسان وتجمعه إلى جانب اقارانه فبدأت الحياة الاجتماعية والحضارية ونشأت الدول التي سنتناولها فيما يأتي .

أما وسط شبه الجزيرة وشماها فقد اختلف النشاط السكاني فيه بتغير المناخ والعوامل المناخية، ومن الصعب علينا الآن الإشارة إلى نشاط العرب البائدة على وجه الدقة ، وأشار القرآن الكريم إلى أهل عاد بأنهم قوم جبارين يحبون البناء ويتخذون المصانع فيقول :

" كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون أني لكم رسول أمين فأتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين" (الشعراء). وما يقال عن اليمامة والبحرين موطن قبياتي طسم وجديس من أنهما كانتا "من أخصب بلاد العرب وأعمرها وأكثرها خيرا وعمرانا، وفيها صنوف الشجر والأعشاب وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفة".

أما بالنسبة للعرب المستعربة الباقية وهم شعب عدنان كما تصفهم المصادر التاريخية، فقد تركز نشاطهم على التجارة في الأماكن التي تساعد على ذلك وعلى الرعي في موطن الكأ والعشب .

ولا يمنع ذلك عملية التطور الحضاري في هذه المناطق ، وإن جعلها تأتي متأخرة بعض الشيء بالنسبة للأماكن الزراعية ولذلك شهد شمال شبه الجزيرة العربية قيام بعض الدويلات في العصر الجاهلي ، وسنقسم دراستنا لهذه الحضارات في شبه الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام جغرافية :

١- جنوب الجزيرة العربية

٢- شمال الجزيرة العربية

٣- وسط الجزيرة العربية

حضارات جنوب الجزيرة العربية

يذكر المؤرخون لجنوب الجزيرة العربية ثلاث دول متعاقبة قامت الواحدة منها تلو الأخرى ، وهي معين وسبأ وحمير ، وسنشير باختصار إلى كل منها .

الدولة المعينية :

لا تتوافر لدينا معلومات كافية عن تطور الأمور في بلاد اليمن حتى وصلت إلى قيام الدولة المعينية ويعتقد أنها قامت خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد أي حوالي ١٣٠-٦٣٠ ق.م وظل تاريخ هذه الدولة غامضا إلى أن تمكن العالم الفرنسي جوزيف هالي في من الكشف عن آثار عاصمة هذه الدولة ، ونشر ذلك في الجريدة الآسيوية عام ١٨٧٤ ، ومن بعد هالي في جاءت جهود العلماء جلازر وجوش ومولر التي أوضحت لنا صورة هذه الدولة، وأظهرت لنا عددا من أسماء ملوكها كما أنها أطلعتنا على بعض الألقاب الملكية عند المعينين ، ومن ثم كان نظام الحكم نظاما ملكيا ، لأن اللقب الملكي كان جائزا أن يحمله اثنان من أبناء الملك أو اخوته في وقت السلم والحرب ، وأن الضرائب كانت مقسمة إلى ثلاثة أنواع : فهناك الضرائب التي تذهب إلى الخزانة الملكية وأخرى تذهب إلى المعابد والأخيرة إلى المشايخ والحكام.

ويشير المؤرخون إلى اشتغال المعينين بالزراعة والتجارة وسيطرتهم على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب ومن ثم امتداد نفوذهم السياسي شمالا حتى يقال بأنه وصل إلى بلاد الحجاز . وقد استلزم اشتغال المعينين بالتجارة معرفتهم بتدوين الحسابات والكتابة ، فاقتبسوا الأبجدية الآرامية

لسهولة استعمالها ، ودونوا بها لغتهم ، وقد وجدت هذه الكتابات في أقاليم بعيدة مثل مصر وبعض جزر اليابان مما يشير إلى الصلات التي ربطت الدولة المعينية بهذه الأقاليم . ويرى الدكتور حسن إبراهيم حسن أن نفوذهم امتد بفضل نشاطهم التجاري إلى الخليج الفارسي وإلى أعالي بلاد الحجاز مما يلي سواحل البحر الأحمر وأنهم كانوا يحملون أنواع البخور من جنوبي الجزيرة العربية إلى الشمال مارين بأواسط الجزيرة العربية .

الدولة السبائية :

لاسم سبأ شهرة تاريخية أكبر بكثير مما حازته الدولة المعينية السابقة لها ومن الدولة الحميرية اللاحقة بعدها ، ويرجع ذلك إلى الإشارات الواردة عنها في التوراة والقرآن وما يروي ملكة سبأ بالملك سليمان بن داود وقد اختلف المؤرخون حول تحديد أصل القبائل السبائية ، والأرجح أنهم أتوا من الشمال واستقروا إلى جوار المعينين في بلاد اليمن ، واشتغلوا بالزراعة ، وحين تدهورت أمور المعينين استفاد السبائيون من ذلك وبدعوا في التقدم والتطور إلى أن تمكنوا أن يستأثروا بالنفوذ والسلطان بدلا من المعينين .

وهكذا قامت الدولة السبائية في بلاد اليمن لتلعب نفس الدور الذي كانت تمارسه الدولة المعينية من قبل . وإذا كانت الدولة المعينية قد اعتمدت في نشاطها على التجارة في المقام الأول فإن السبائيين إلى جانب ذلك قد اهتموا بالزراعة واستغلال أرض اليمن الخصبة ووفرة مياهها ومن هنا استطاعت الدولة أن تنمو وتزدهر وأصبح لها نفوذ واسع يمتد من اليمن جنوبا إلى نجد والحجاز الشمالية شمالا ، وسيطرت أيضا على ممرات التجارة العالمية التي تربط جنوب شبه الجزيرة العربية ببلاد الشام ومصر .

ويري المؤرخون أن دولة سبأ مرت بحقتين أساسيتين من التاريخ، الفترة الأولى وتسمى حقبة " المكارب " وهذه الحقبة تنتهي تاريخيا في حدود ٦٥٠ ق.م وكان الملوك خلالها يتسمون بلقب "مكرب سبأ" ويذكرون حوالي سبعة عشر ملكا تلقبوا بهذا الاسم وكان محفد صرواح من أقدم مبانيهم وحاضرتهم الأولى ويرجع الدكتور السيد عبد العزيز سالم بناء سد مأرب إلى هذه الحقبة وهو الذي حول هذه البلدة إلى جنتين عن يمين وشمال. وأول مكارب سبأ هو سمح على (٨٠٠-٧٨٠ ق.م) والذي لا يعرف عنه إلا أنه قدم هدية من البخور إلى الاله الذي أرشد القبيلة بعد تجوالها إلى أرض فيها اللبن والعسل، وقد أعقبه ابنه يدع أيل الذي بني معبدا لنفس الاله في صرواح عاصمة مأرب في ذلك العصر.

أما الفترة الثانية فإنها تبدأ حين قام آخر المكارب "كرب ايل وتر" بنبذ هذا اللقب واتخذ لقب "ملك سبأ" وأصبح بذلك أول حكام سبأ في اتخاذ هذه التسمية.

وخلال هذه الحقبة بلغت سبأ شأوها وازداد نفوذها وثراؤها وكان أسطولها يحمل المتاجر إلى الشمال وكان ذلك سببا في اصطدامهم بالبطالسة الذين كانوا يرغبون أيضا في السيطرة على الممرات التجارية. وفي هذه الفترة شيد السبأيون سد مأرب الذي يعتبر أكبر سد شيد في شبه الجزيرة ومن أعاجيب العالم القديم وورد ذكره في القرآن الكريم .

وإذا كانت صرواح هي عاصمة السبأيين خلال الطور الأول فإن مأرب قد غدت العاصمة خلال الطور الثاني، وزاد من شهرتها بناء سدها المعروف في التاريخ باسم سد مأرب .

ثم أخذ مركز ملوك سبأ في الضعف وذلك اعتباراً من القرن الرابع قبل الميلاد وذلك بسبب المشاكل الداخلية التي تعرضت لها الدولة، والمنافسة الخارجية التي حرمتها احتكار التجارة بين الجنوب والشمال، وشهدت هذه الفترة تقدم الحميريين وازدياد نفوذهم حتى تمكنوا من انتزاع السيادة والسلطة من السبائيين في حدود نهاية القرن الثاني قبل الميلاد .

الدولة الحميرية : ١١٥ ق . م - ٥٢٥ م :

سكن الحميريون أولاً في منطقة من الأرض عرفت باسم قُتبَان ويرجعون في الأصل إلى القبائل القحطانية، وكانوا وأقرانهم الكهلانيون يتنازعون الرياسة ويتنافسون على الملك. ويرى الأستاذ جورج زيدان أنهم فرع من السبائيين ويقول بأنهم كانوا يقيمون في ريدان قبل ذلك التاريخ بأجيال وهم إقيال أو إدواء وكبيرهم يسمى "ذوريدان" حتى سنحت لهم فرصة تغلبوا بها على إخوانهم السبائيين أو اتحدوا معهم في أواخر دولتهم فصار لقب كبيرهم "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت" ثم ملكوا غيرها وكلما ملكوا بلداً أضافوا اسمه إلى ألقابهم .

امتد حكم الدولة الحميرية من سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٥٢٥ م أي

حوالي ٦٤٠ سنة، ويقسمها المؤرخون إلى فترتين :

١- دولة حمير الأولى من ١١٥ ق.م - ٣٠٠ م

٢- دولة حمير الثانية من ٣٠٠ م - ٥٢٥ م

ويري المؤرخون في دولة حمير دولة عسكرية على العكس من سابقتها مملكة سبأ، وذلك لقيام الحميريين بشن غارات وغزوات واسعة على الأرض المجاورة لهم ،ليس فقط من شبه الجزيرة وإنما امتد ذلك إلى أراضي فارس والحبشة وبعض أراضي الشام وبالع المؤرخون القدامى في ذلك حتى أوصلوا حملاتهم إلى أرض الهند والصين وفارس وخراسان وبلاد الشام.

وسيطرت الدولة الحميرية على الطريق التجاري، ووافق ذلك أن دولة البطالسة في مصر، والتي تنافس على هذه السيطرة كانت قد بدأت في الانكماش نتيجة ازدياد نفوذ الرومان ومحاولتهم السيطرة على حوض البحر المتوسط كما أن عهد الدولة الحميرية هو الذي شهد الحملة التي أوفدها الرومان لغزو الجزيرة العربية في عام ٢٤ ق.م بقيادة يوليوس جالوس والتي منيت بفشل ذريع .

أصاب الدولة الحميرية بعض الضعف في أواخر طورها الأول لكنها لم تلبث أن استردت قوتها ونفوذها ، واتسع لقب ملكها في حدود سنة ٣٠٠م ليصبح "ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات، وأعرابها في الجبال وفي تهامة".

وعلى عهد الدولة الحميرية وفي طورها الثاني بدأت المسيحية في الانتشار في اليمن وهو نفس الوقت تقريبا الذي بدأت فيه هذه الديانة الانتشار في الحبشة وبنيت الكنائس في "عدن وظفار" كما أنه شهد تسرب الديانة اليهودية وبدأ الصدام بين الديانتين مظهرا للصراع بين اليمن وجيرانها، وكان سببا في جعل بلاد اليمن موطنًا لتنافس الدول الكبرى من الأحباش يؤيدهم

البيزنطيون في مواجهة الفرس الذين تخفوا أحيانا خلف بعض الملوك الحميرين.

ولقد أدى هذا التنافس كما سنبين إلى القضاء على الدولة الحميرية ودخول اليمن ضمن التبعية الفارسية.

الصراع الحبشي الفارسي في اليمن :

تشير كتب التاريخ إلى أن آخر ملوك اليمن الحميريين وهو ذو نواس قد اعتنق اليهودية في الوقت الذي سادت فيه المسيحية في الحبشة وأجزاء واسعة من اليمن مما جعل هذا الملك يخشى على مراده من زيادة النفوذ الحبشي الذي يمكن أن يجد المساعدة عند المسيحيين اليمنيين، ولذلك فقد أصر ذو نواس على تهويد المسيحيين اليمنيين أو التخلص منهم بالقتل والإفناء، وحفر لهم أخدودا قام بإحراقهم فيه مما دفع بالمسيحيين إلى الاستعانة بملك الحبشة لإنقاذهم من جبروت وطغيان ذي نواس الحميري .

استجاب ملك الحبشة لصراخ مسيحيي اليمن ، وساعدة قيصر الروم على ذلك، فأرسل إلى اليمن جيشا بقيادة أرياط تمكن من الانتصار على ذي نواس والسيطرة على اليمن، ثم قام أبرهة الحبشي بالقضاء على أرياط وتولي هو حكم اليمن ،وهو الذي قام بحملته المشهورة لهدم الكعبة والتي أنجاها الله من بين يديه وأرسل عليه طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

وظلت اليمن فترة تخضع للنفوذ الحبشي إلى أن قام أحد أفراد البيت الحميري بالاستغاثة بكسري فارس الذي أمده بجيش كبير تحت قيادة وهرز

سنة ٥٧٥هـ وتمكن هذا القائد الفارسي ومعه سيف بن ذي يزن من الانتصار على الأحباش وطردهم من البلاد.

وحين تم القضاء على الأحباش أمر كسري أن يتوج سيف بن ذي يزن ملكا على اليمن وظل الحكم مشتركا بين الفرس واليمنيين إلى أن استقرد الفرس بذلك لأهميتها التجارية وليمنعوا بيزنطة من الاستيلاء عليها، وقام الفرس بتعيين حاكم فارسي مباشرة ، وكان آخر ولايتهم باذان الذي عاصر النبي صلي الله عليه وسلم ودخل معه بلاد اليمن في الإسلام.

ويري كثير من المؤرخين أن سلطان الفرس ظل منحصرا في عاصمة البلاد صنعاء فقط ، وأن اليمن تفرقت إلى قبائل تتمتع بالنفوذ والسيطرة على أرضها ، وأنها أصبحت كبقية قبائل العرب في صراع فيما بينها ، بحيث أنه أصبح لها أسواقها التي تعمل على أن تأمن فيها على دمائها وأموالها كما في بقية أنحاء بلاد العرب

النزاع على اليمن بين أبرهة و أرياط

ما كان بين أرياط وأبرهة:

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرطبي ، وبعض أهل نجران في أمر الحبشة باليمن بين أبرهة الحبشي وأرياط حين تفرقت عليهما ، فأنحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط . أنك لا تصنع بأن تلقي الحبشة بعضها ببعض ، حتى تفنيها شيئا ، فأبرز إلى و أبرز إليك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرياط : أنصفت فخرج إليه أبرهة ، وكان

رجلا قصيرا لحيدا، وكان ذا دين في النصرانية وخرج إليه أرباط وكان رجلا جميلا عظيما طويلا ، وفي يده حربه له وخلف أبرهة غلام له، يقال له: عتودة، يمنع ظهره ،فرفع أرباط الحربة، فضرب أبرهة يريد يافوخة، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة .فشرمت حاجبه وانفه وعينه وشفته فبذلك سمي : أبرهة الأشرم ،وحمل عتودة على أرباط من خلف أبرهة فقتله،وانصرف جند أرباط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، وودي أبرهة أرباط .

غضب النجاشي على أبرهة :

فلما بلغ ذلك النجاشي غضب غضبا شديدا وقال : عدا على أميري ، فقتله بغير أمري ثم حلف : لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ، ويجز ناصيته . فحلق أبرهة رأسه وملأ جرابا من تراب اليمن، ثم بعث به إلى النجاشي، ثم كتب إليه :

"أيها الملك ، إنما كان أرباط عبدك ، وأنا عبدك .فاختلفنا في أمورك ، وكل طاعته لك، ألا أني كنت اقوى على أمر الحبشة ،وأضبط لها ، وأسسوس منه ، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك ، وبعثت إليه بجراب تراب من أرضي . ليضعه تحت قدميه ، فيبر قسمه في " . فلما انتهى ذلك النجاشي رضي عنه ،وكتب إليه : أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري ، فأقام أبرهة باليمن .

أمر الفيل وقصة النساء

سبب بناء "القليس" أو كنيسة أبرهة :

ثم أن أبرهة بنى القليس بصنعاء ، فبنى كنيسة لم ير مثلاً في زمانها بشئ من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشي : أني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلاً لمالك كان قبلك ، لست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب ، فلما تحدثت للعرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي ، غضب رجل من النساء ، أحد بني فقيم بن عدي بن عامر ابن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن اليأس بن مضر .

النساء :

الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية ، فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ، ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ويؤخرون ذلك الشهر ففيه أنزل الله تبارك وتعالى : "إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله " سورة التوبة الآية ٣٧ .

أول من ابتدع النسئ عند العرب :

قال ابن إسحاق : وكان أول من نسأ الشهور على العرب ، فأحلت منها أحل وحرمت منها ما حرم القلمس ، وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر ابن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد بن حذيفة ، ثم قام بعد عباد ، قلع بن عباد ثم قام بعد قلع : أمية بن قلع ، ثم قام بعد أمية : عوف بن أمية ، ثم قام بعد عوف : أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، وكانت العرب إذا فرغت

من حجها اجتمعت إليه ، فحرم الأشهر الأربعة : رجباً - وذا القعدة ، وذا الحجة والمحرم ، فإذا أراد أن يحل شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ، ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم ، فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال : " اللهم أني قد أحللت لك أحد جذل الطعان ، أحد بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، يفخر بالنساء على العرب .

لقد علمت معد أن قومي	كرام الناس أن لهم كراما
فأي الناس فأتونا بوتر	وأي الناس لم نعلك لجاما
السنا الناسئين على معد	شهور الحل نجعلها حراما؟

أحداث الكناني في القليس وحملة أبرهة على الكعبة :

قال ابن إسحاق : فخرج الكناني حتى أتى القليس فقعدها فيها - قال ابن هشام يعني أحدث فيها - قال ابن إسحاق : ثم خرج فلحق بأرضه ، فأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقليل له : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة لما سمع قولك : " اصرف إليها حج العرب " غضب فجاء فقعدها فيها ، أي أنها ليست لذلك بأهل .

خروج أبرهة لهدم الكعبة:

فغضب عند ذلك أبرهة وحلف : ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك والعرب فأعظموه وفضعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

ذو نفر يدافع عن البيت ويهزمه أبرهة :

فخرج إليه رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له : ذو نفر ، فدعا قومه ، ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، جهادا عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخراجه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه ، وأخذ له ذو نفر ، فأتي به أسيرا ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك ، لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيرا لك من قتلي ، فتركه من القتل ، وحبسه عنده في وثاق ، وكان أبرهة رجلا حليما .

خثعم تجاهد أبرهة بقيادة نفيل الخثعمي :

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلي خثعم : شهرا ناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نفيل أسيرا ، فأتي به فلما هم بقله قال له نفيل أيها الملك ، لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلي خثعم وشهوان وناهس بالسمع والطاعة ، فخلي سبيله .

وخرج به معه يذله ، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك ابن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف .

استسلام ثقيف لأبرهة :

قال ابن إسحاق : فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لكم خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريده - يعنون

اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم .

واللات : بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة .

قال ابن هشام : أنشدني أبو عبيدة النحوي لضرار بن الخطاب الفهري :

وفرت ثقيف إلى لاتها
بمنقلب الجانب الخاسر

وهذا البيت في أبيات له :

أبو رغال ورجم قبره : قال ابن إسحاق فبعثوا معه أبا رغال يدلّه على الطريق إلى مكة فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس ، فلما أنزله به مات أبو رغال هناك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس .

عدوان الأسود بن مقصود على الكعبة :

فلما نزل أبرهة المغمس ، بعث رجلا من الحبشة يقال له : الأسود بن مقصود على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهتت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا ضاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

رسول أبرهة إلى عبد المطلب :

وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة ، وقال له : سل عن سيد أهل البلد وشريفها ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعترضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم ، فإن هو لم يرد حربي فأنتي به ، فلما دخل حناطة مكة ، سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له عبد المطلب ابن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة ،

فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربته ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم - عليه السلام - أو كما قال - فإن يمنع منه ، فهو بيته وحرمة ، وإن يخل بينه وبينه ، فوالله ما عندنا نفع عنه ، فقال له حنطة : فإنطلق معي إليه ، فإنه قد أمرني أن آتيه بك .

الشافعون لعبد المطلب عند أبرهة :

فانطلق معه عبد المطلب ، ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر فسأله عن ذي نفر ، وكان له صديقا ، حتى دخل عليه وهو في محبسه ، فقال له : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوا أو عشيا ؟ ما عندنا غناء في شيء مما نزل بك ، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لي ، وسأرسل إليه فأوصيه بك ، وأعظم على حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك ، فتملكه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . فقال : حسبي فبعث ذو نفر إلى أنيس ، فقال له : إن عبد المطلب سيد قریش . وصاحب عير مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رعوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن عليه ، وانفعه عنده بما استطعت ، فقال : أفعل .

فكلم أنيس أبرهة ، فقال له : أيها الملك : هذا سيد قریش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس في السهل ، والوحوش في رعوس الجبال ، فأذن له عليك فيكلمك في حاجته ، قال : فلأذن له أبرهة .

الإبل لي والبيت له رب يحميه :

قال : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إني جنبه ، ثم قال لترجمانه: قل له : حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان :فقال حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي ، فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه . قل له : قد كنت أعجبتي حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتي ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه . قال له عبد المطلب :إني أنا رب الإبل وأن للبيت ربا سيمنعه، قال :ما كان ليمنع مني ، قال : أنت وذاك .

الوفد المرافق لعبد المطلب :

وكان - فيما يزعم بعض أهل العلم - قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة ، حين بعث إليه حناطة ، يعمر بن نفثة بن عدي بن الدائل بن بكر بن مناة بن كنانة - وهو يومئذ سيد بني بكر وخويلد بن وائلة الهذلي - وهو يومئذ سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم - والله أعلم أكان ذلك أم لا ، فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له .

عبد المطلب ونفر من قريش تستنصر بالله على أبرهة :

فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة ، وألتحز في شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرة الجيش ، ثم قام عبد المطلب ، فأخذ بحافة باب الكعبة

وقام معه نفر من قریش يدعون الله ، ويستتصرونه على أبرهة وجنده ، فقال
عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

اللاهـم أن العبد يمـ	نع رحله فأمنع حلالك
لا يغلبن صليبهـم	ومحالمهم غدوا محالك
ان كنت تاركهم وقبـ	سلتنا فأمر ما بدا لك

قال ابن هشام : هذا ما صح له منا .

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن
معه من قریش إلى شعب الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة
إذا دخلها .

أبرهة يهاجم وما وقع له ونفيله :

فما اصح ابرهة تهيأ لدخول مكة ، وهياً فيله ، وعبئ جيشه - وكان
اسم الفيل محمودا ، وابرهة مجمع لهدم البيت ، ثم الانصراف إلى اليمن ،
فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب النيل ثم اخذ
بأذنه، فقال : ابرك محمود ، أو ارجع راشدا من حيث جئت ، فانك في بلد
الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل ، وخرج نفيل بن حبيب يشدد حتى
اصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا في رأسه بالطبرزين،
ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم في مراقبة فبزعوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه
راجعا إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه
إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك .

فأرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ،
مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في

رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك - وليس كلهم أصابت - وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ، ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نعمته :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهالك كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم تسقط أنامله أنملة أنملة : كلما سقطت أنملة ، أتبعها منه مدة تمت فيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قبله فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث : ان أول مارؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام ، وانه أول ما رؤى بها مرائر الشجر : الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام .

ذكر قصة الفيل من القرآن :

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله تعالى محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان مما يعد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول " . وقال : " لا يلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " أي لئلا يغير شيئا من حالهم التي كانوا عليها لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه .

ممالك شمال شبه الجزيرة

لأنك أن تخوم جزيرة العرب الشمالية وما حباها الله سبحانه من وفرة في الماء وقرب من مصادر الأنهار في بلاد العراق وبلاد الشام جعل منها محطاً لرحال كثير من القبائل العربية التي تعاني نقصاً في الخيرات داخل شبه الجزيرة ، ومن ثم فليس من المستغرب إقامة بعض القبائل العربية في هذه الأماكن .

وجاء حادث انهيار سد مأرب ببلاد اليمن ليحمل عدداً من القبائل الجنوبية إلى الهجرة من مواطنها في اليمن لتبحث لهل عن مقر وموطن في باقي أنحاء أرض الجزيرة العربية ومنها من استقر مع غيره عند تلك المشارف الشمالية للجزيرة العربية لكي يستفيد من مصادر المياه الموجودة في هذه المناطق .

ولقد سبق لنا القول بأن توفر مصادر المياه تعني الاستقرار كما تعني بداية وجود العلاقات بين الناس والتي تتطور حتى تصل إلى إقامة الدولة أو ألد وبله و بالإضافة إلى ذلك كان هناك عوامل أخرى ساهمت في أن يشهد شمال شبه الجزيرة قيام أربع دويلات هي : الأنباط ، تدمر ، الحيرة ، الغساسنة .

دولة الأنباط :

استقر الأنباط جنوبي سوريا وشمال الحجاز ، وتعتبر منطقة وأدي موسى شرقي الأردن بما تميزت به من وفرة المياه وكثرة الآبار ، منطقة

متميزة لرحال القوافل التجارية ، ونجح الأنباط في اقامة دولة صغيرة لكنها قوية تسيطر على طرق القوافل والتجارة المارة بالمنطقة .

اتخذ الأنباط من البتراء عاصمة لهم والتي سرعان ما تحولت لتصبح في القرن الاول قبل الميلاد من اهم مراكز التجارة القادمة من الجزيرة العربية وجنوبها والمتجهة إلى مواني البحر المتوسط مروراً ببلاد الشام .

حاول الأنباط الحفاظ على دولتهم في مواجهة القوى الكبرى المحيطة بهم فعملوا على التودد إلى الاشوريين ، كما انهم تصدوا لحملة الاسكندر الاكبر . وسرعان ما وقعت بلاد الأنباط فريسة للصراع الذي قام بين السلوقيين في الشام والبطالسة في مصر ، فقد حاول سلوقس قطع التجارة عن مصر فعمل على احتلال بلاد الأنباط ، وارسل حملة مكونة من ٤٠٠٠ راجل و ٦٠٠ فارس ، واكنها شنت ولم تحقق نجاحاً فارسل السلوقيون حملة أخرى فتحصن منها الأنباط في الجبال والصحارى وانتهى الأمر باسترضاء السلوقيين على ان يدفع لهم الأنباط نوعاً من الجزية .

وجاء دور البطالسة في مصر وادراكهم لاهمية بلاد الأنباط واثرها على التجارة الخارجية لكنهم في نفس الوقت كانوا يدركون المصاعب التي تمنع الاستيلاء على هذه البلاد وخاصة ان اعينهم كانت على تجربة السلوقيين .

عمد البطالسة إلى حل وسط وهو أن يتركوا لبلاد الأنباط استقلالها في نفس الوقت يضمنون ولاءها وخضوعها غير المباشر فاستولوا على المدن الفينيقية و الفلسطينية التي كانت تنتهي عندها القوافل التجارية ، كما

قاموا بالاستيلاء على شمال الحجاز ، وانشأوا في الاردن عند اطراف بلاد الأنباط عدة مستعمرات يونانية ، وبذلك احاطوا ببلاد الأنباط وهمنوا على منافذ الطرق التجارية ^(١). وإلى جانب هذا شجع البطالسمة تجارة البحر الأحمر ، وانشأوا على سواحله المصرية الموانئ والمحطات والطرق الأمر الذي أدى إلى اضعاف التجارة البرية المارة ببلاد الأنباط مما دفع بهؤلاء إلى اللجوء إلى أعمال قرصنة في البحر الأحمر بفرض عرقلة التجارة فيه لكن ذلك لا يمنع من تسرب الضعف إلى بلاد الأنباط وبدء انهيارها .

دخل الأنباط أخيراً في صراع مع الرومان الذين ظهروا على المسرح السياسي في الشرق مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد وانتهى الأمر بقيام الإمبراطور تراجان الروماني عام ١٠٦ م بإرسال حملة على البتراء أمكنها على الاستيلاء على المدينة والقضاء نهائياً على دولة الأنباط وتحويلها إلى جزء من المقاطعة العربية الخاضعة لروما والتي أنشأها الرومان في الطرف الجنوبي من سوريا لتحميها من هجمات بدو الجزيرة العربية ، واتخذوا من مدينة بصرى بالشام عاصمة لها ، وتحول إليها طريق التجارة ، واختفت البتراء وحضارتها بصورة شبه نهائية .

وأول ملوك الأنباط الذين يمكن أن نطمئن إلى ما جاء عنهم في المصادر التاريخية هو الحارث الأول ١٦٩ - ١٤٩ ق.م. وكان معاصراً لانتيوخس الرابع السلوقي ملك سوريا ، وبطليموس فيلوماتر ملك مصر .

^١ صالح العلي : المصدر السابق ص ٣٩ .

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثاني الذي تولى الحكم فيما بين ١١٠ - ٩٦ ق.م. وفي عهده وصلت بلاده إلى درجة عالية من القوة مكنتها من التدخل في شئون فلسطين والقيام بدور أساسي في حياة المكابيين .

ويأتي الحارث الثالث ٨٧ - ٦٢ ق.م. الذي استطاع أن يكسر اليهود في عدة مواقع ويحاصر القدس ، ثم استجد به أهل دمشق وطلبوا منه أن يتولى أمرهم بدل السلوقي وقد نجح الحارث في فرض سيطرته على هذه البلاد كما نجح في التصدي للقائد الروماني الشهير بومبي .

حضارة الأنباط :

اهتم المؤرخون كثيرا بتحديد ماهية الحضارة النبطية فيناقش الأستاذ جورجى زيدان مسألة عروبته ولغتهم ودينهم ويتلخص من ذلك إلى أنهم عرب جنسا و لغة وذلك :

- أ) لان مؤرخي اليونان اطلقوا عليهم هذه التسمية اينما وجدوهم .
ب) ان لسانهم الذي كانوا يتفاهمون به فانه عربى مثل اسمائهم . (٢)

اما الأستاذ الدكتور سيد عبد العزيز سالم فينقل رأى المؤرخ اللبىانى فيليب حتى بان هذه الحضارة حضارة مركبة ، فهى عربية في لغتها و ارامية في كتابتها وسامية في ديانتها ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية ، ولكنها مع كل ذلك عربية في جوهرها . (٣)

^٢ جورجى زيدان: العرب قبل الاسلام صفحة ٩٢-٩٣

^٣ عبد العزيز سالم: العرب قبل الاسلام ص ١٨٩

وحضارة الأنباط في المقام الاول حضارة تجارية ، لعب موقع البتراء فيها دورا هاما لانها كانت على الطريق التجارى ما بين غزة وبصرى وما بين دمشق والابله ، وتشير الدلائل إلى امتداد النشاط التجارى للأنباط إلى مناطق بعيدة حيث وجدت بعض كتاباتهم في سلوقية و الاسكندرية ورودس وميلتوس وفي الموانى السورية وعند مصب الفرات ، وكانت اهم السلع هى العطور والطيب والمنسوجات الحريرية واللؤلئ والذهب والفضة .

اما الديانة التي مارسها الأنباط فكانت الاصنام و بعض الكواكب مثلهم في ذلك مثل باقى العرب في وسط شبه الجزيرة و شمالها .

وان كان ذلك لا يعنى عدم تاثر الأنباط تأثرا كبيرا بالحضاره الهلننيه والتي شجعها جدا الحارث الثالث الذي سك النقود على الطراز الهيلينى ، واخذ العيار البطليموسى للعمله ، و جاء بمعمارين سوريين شادوا له الكثير من المنشآت .

مملكة تدمر :

مدينة تدمر - في ارض سوريا حاليا - مدينه عربية احتلت مكانا هاما على الطريق التجارى ما بين دمشق و الفرات و أصبحت مركزا هاما للقوافل التجارىه التي كانت تجوب المنطقة ما بين الشام و العراق ، وورد

اسمها في الكتابات اليونانية و نسب بناؤها إلى الملك سليمان .^(٤) أو إلى شخصيه خرافية عربية هي تدمر بنت حسان بن ادينه بن السميدع.^(٥)

نشأت تدمر في بادية الشام حول نبع ماء يقع في منتصف المسافة تقريبا بين الفرات من جهة وبين دمشق وحمص من جهة اخرى ، وهو يبعد حوالي ١٥٠ ميلا عن كل منهما . وقد اصبحت محطة للقوافل المارة بين العراق والشام ولا نعلم على وجه التحديد منشأها ، فاسمها عند اليونان والرومان palmyre وهي كلمه معناها نخيل التمر .

ومن المحتمل ان المدينة نشأت منذ اقدم الازمان من استقرار بعض البدو في الواحة التي تكونت حول نبع الماء ، وصارت محطة للقوافل . وقد ورد ذكرها في نقوش تغلات فلاسي التي دون فيها أخبار حملته ضد العموريين في سنة ١١٥ ق . م . كما ذكر ملالامس أن التدميريين ساعدوا نبوخذ نصر في هجومه على القدس أمدوه بـ ٨٠٠٠ من رماة النبال^(٦).

وظلت المدينة محتفظة بمكانتها الطيبة في عهد السلوقيين الذين حكموا بلاد الشام وشجعوا الطريق التجاري الذي كان يمر بالعراق وتدمر منافسين بذلك حكام مصر الذين بذلوا جهدهم لتمر تجارة الهند بالبحر الأحمر ومن ثم بمصر .

^٤ البكري: معجم ما استعجم ج ١ ص ٣٠٦ .

^٥ د. عبد العزيز سالم: المصدر المشار اليه ص ١٧١-١٧٣ .

^٦ صالح العلي : المصدر السابق ص ٤٦ .

تأرجح تاريخ هذه المملكة بين الاستقلال الذاتي أو الخضوع
للامبراطورية الرومانية ، و تأثر هذا التاريخ أيضا بالصراع الدائر
حينذاك بين الرومان و الفرس .

واشهر شخصيات هذه المدينة هو الملك اذينة من السמידع الذي منحه
الرومان لقب **Dux Oriesit** على الجهود التي بذلها إلى جانب
الرومان حين تغلب عليهم الملك سابور الاول الفارسي .

تمكن اذينة من توسيع سلطة مدينته فاستولى على الرها ونصيبين ،
وحاول الاستيلاء على طيسفون وغيرها حتى يتمكن من تأمين السيطرة على
الطرق التجارية العاملة بين الهند فالعراق ثم البحر المتوسط لكنه قتل في
حمص نتيجة مؤامرة يقال انه اشرف على تدبيرها ابن اخيه ، ولا يستبعد
المؤرخون تورط الرومان في هذه المؤامرة لاحساسهم بخطرهم الاكيد على
ممتلكاتهم في الشام و مصر ، ولقد كان الرجل حاكما قديرا ، احترمته اهل
تدمر لما كان يتمتع به من سمات وصفات الحاكم الكبير .

انتقلت السلطة بعد ذلك إلى ابنه الثاني والذي كان يحمل نفس اسم
والده اذينة، و على عهده وصلت تدمر إلى مكانة عالية جدا ، و اصبحت سيد
الشرق الروماني ، و امتدت سلطته على سوريا و ما يليها و لقب " ملك
الملوك " ^(٧) و اشترك في القتال ضد الفرس ، و انتصر عليهم مما جعل

^٧ المصدر السابق ص ١٠٠

الامبراطورية تكافئه بلقب " امبراطور على جميع بلاد الشرق " كما منحه مجلس الشيوخ الروماني لقب " أغسطس " .^(٨)

و الشخصية الاسطورية التي ارتبط اسمها باسم هذه المدينة هي شخصيه الملكة زنوبيا او الزباء ، والتي كانت زوجة الملك أنيّه ، و اليها ينسب بناء المدينة كما يقول البكري^(٩)

وهي من الشخصيات النسائية البارزة في تاريخ الشرق القديم فهي سورية الاصل تزوجها الملك ^{أزينة} أزينة ، ولما قتل أصبحت الواصية على ابنه وهب اللات ، وامسكت بزمام الحكم في تدمر^{أزينة} ، وكانت تتقن الارامية والاغريقية واللاتينية ، وترعى العلوم والآداب فعاش في بلاطها فلاسفة وعلماء إغريق و فرس ، وحاولت ان تقلد ما في البلاط الساساني من فخفة وعز واناقة وجمال ، كما كانت تحب الصيد وركوب الخيل .

وتتفق الكتب التاريخية على ان الملكة زنوبيا استغلت انشغال الرومان بالمشاكل الداخلية والحروب مع الفرس لتوسع مملكتها فعمدت كما يقال إلى غزو مصر وبسط سيطرتها على بلاد الشام ، والاستيلاء على تجارة البحر المتوسط ثم اعلنت نفسها امبراطورة مستقلة عن الرومان ، لكنها فشلت في غزو مصر فاتجهت إلى اسيا الصغرى مما اضطر الرومان إلى مهادنتها بعض الوقت لكنهم عادوا فجردوا عليها جيوشا جرارة

^٨ عبد العزيز سالم: المصدر السابق ص ١٧٨

^٩ يقول البكري نقلا عن المهداني: كانت الزباء الملكة تصيف بتدمر وتتربع بالنخار . قال: وسميت بتدمر بنت حسان بن أنيّه، وهي بنتها وسمتها باسمها وفيها قبرها ، وانما سكنها سليمان بعدها. انظر معجم ما استعجم ج ١ ص ٣٠٧.

فاضطرت إلى الانسحاب إلى حمص ومنها إلى تدمر حيث وقعت أسيرة في أيدي الرومان ، ونالت نهاية مأساوية حيث حولها الأساطير ، وأصبحت الملكة زونوبيا بطة للقصص العربي ، ولعب الخيال دورا كبيرا في صباغة مأساة نهاية حياتها وهناك أمثال شعبية من أقوالها ومنها " بيدي لا بيد عمرو " وايضا " اه لو يطاع لقصير امر " .

الحضارة التدمرية :

على الرغم من اختلاف المؤرخين في أصل التدمرين إلا أنهم يكدوا أن يجمعوا على نسبتهم إلى العرب ، و أن الحضارة التدمرية حضارة عربية على الرغم من مظاهرها الآرامية. وحيث أن تدمر كانت مركزا تجاريا هاما فإنها قد تأثرت بكثير من مظاهر حضارة الشعوب المجاورة، ويقول عنها الدكتور السيد عبد العزيز سالم : كانت الحضارة التدمرية خليطا من عناصر سورية و يونانية وفارسية على الرغم من أن التدمريين كانوا من قبائل عربية .(١٠)

تشكل المجتمع في تدمر من عناصر كثيرة متنوعة فضمت إلى جانب سكانها العرب أعدادا كبيرة من الفرس والإغريق والعبيد المحررين، كما كان هناك بعض الرومان إلى جانب أعداد من التجار الذين يقيمون في المدينة. وكانت كل من هذه الجاليات تقيم في فنادق خاصة، ولكل فندق رئيس يشرف على شئون هذه الجالية.

^{١٠} عبد العزيز سالم : العرب قبل الإسلام ص ١٨٩ .

ولقد تأثرت أذواقهم وأبستهم وفنونهم بالمؤثرات الخارجية، علاوة على أنهم عبدوا آلهة متعددة كان أعظمها الإله بعل - وبعل سمين أي بعل السماء والإله برحيل إله القمر، ولذلك تمتع رجال الدين بمكانه خاصة في مجتمع التدمريين.

لا تزال آثار بقايا تدمر بين دمشق والفرات، وأبرز هذه الآثار معبد بعل وهو مقام على مرتفع على الأرض أماء قوس هائل وطريق عريض طوله في حوالي ١٢٤٠ ياردة وعلى جوانبه ٣٧٥ عموداً طول كل منها ٥٥ قدماً، ولا يزال قائماً منها ١٥ عموداً منحوتاً معظمها من المرمر الأبيض، وبعضها من الجرانيت السماقي. وكانت هذه مرتبطة ببعضها إلى جانب الطريق الرئيسي والذي تتفرع منه الطرق الجانبية^(١١).

اشتغل التدمريون بالتجارة في المقام الأول لكنهم لم يعدموا نوعاً من الزراعة التي قامت على مياه الآبار، والأمطار والسيول التي استخدمت السدود للاستفادة منها ما أمكن.

ولقد كشفت النقوش عن أنواع من الضرائب والمكوس التي كانت تفرض على البضائع الواردة إلى تدمر والمارة بها، وأهم هذه البضائع هي الأنسجة الصوفية، وصبغ الأرجوان والحريز والزجاج والعطور وزيت الزيتون والفواكه المجففة كالتين والجوز والجبن وغير ذلك، مما يدلنا على اتساع تجارة تدمر لتشمل منتجات دول بعيدة كالصين والهند وبابل والمدن الفينيقية وبلاد العرب الداخلية وغيرها.

^{١١} صالح العلي - المصدر السابق ص ٥٣.

مملكة الحيرة :

تقع الحيرة بالقرب من نهر الفرات من الناحية الغربية وتفصلها ارض العراق عن بادية شمال شبه الجزيرة ، وهى مكان ممتاز ، وصفه البكرى في كتابه " معجم ما استعجم " فقال : " وكان مكان الحيرة من اطيب البلاد وارقه هواء ، واخفه ماء ، واعدله تربه ، واصفاه جوا ، قد تعالى من عمق الارياض واتضع عن حزونه الغائط ، واتصل بالمزارع والجنان والمتاجر العظام ، لانها كانت من ظهر البريه على مرفأ سفن البحر من الصين والهند" (١٢).

اما سبب تسميتها بهذا الاسم فهناك خلاف كبير على ذلك ، ويذكر البكري انه لما سار تبع ابو بكر في غزوته الثانية ، فلما اتى موضع الحيرة خلف هناك مالك بن فهم بن دوس على انقاله .

وتخلف معه من ثقل من اصحابه في نحو اثني عشر الفا وقال تخيروا هذا الموضع بالحيره ، فمالك اول ملوك الحيرة وابوهم وكانوا يملكون ما بين الحيرة و الانبار وهيت ونواحيه (١٣).

وينقسم تاريخ مملكة الحيرة إلى قسمين رئيسيين هما فترة الملوك التتوحيين والثانية فترة الملوك المناذرة .

^{١٢} البكري المصدر السابق : ص ٩ ق ٤ - ص ٤٧٦ .

^{١٣} البكري المصدر المشار إليه : ص ٨٤ ق ٤ - ٤٦ ق ٤ - ص ٤٧٨ - ٤٧٦ .

ويبدأ حكم التتوخيين بتولى مالك بن فهم^(١٤) أمور العرب في هذه المنطقة ، و من أشهر ملوكهم جذيمة الأبرش ، وينسب الاخباريون تلك القصة المشهورة مع الملكة الزباء ملكة تدمر^(١٥).

ولقد لعبت الحيرة دوراً تاريخياً هاماً إلى جانب الفرس الذين جعلوا منها " امانة حاجزة " تحميهم من غارات الأعراب و الرومان كما انها استعملتها في تنفيذ اغراضها من تهديد العرب انصار الرومان والرومان انفسهم^(١٦).

وبعد مقتل جذيمة تولى امر عرب هذه المنطقة عمرو بن عدى واليه ينسب الامراء المناذرة واللميين ، واليه يرجع الفضل في النهوض بالحيرة.

وقد اتبع عمرو بن عدي سياسة جذيمة الأبرش في الانضمام إلى جانب الساسانيين فأصبح أكبر أمير عربي بجانب الفرس، ونسط نفوذه على جميع عرب العراق، واتخذ مقراً له مدينة الحيرة والتي أصبحت مقراً للأمراء المناذرة، وكان لموقع المدينة الهام تأثيره في المجالات العسكرية والاقتصادية لأنها تتحكم في الطريق التجاري بين الصحراء وطيفسون والطريق النهري المار في نهر الفرات.

^{١٤} اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٦٩ .

^{١٥} المصدر السابق : ص ١٦٩ و انظر أيضاً الكامل بن الأثير ج ١ ص ١٩ق - ٢٠١ .

^{١٦} سهام مصطفى : رسالة الاسلام و العالم القديم ص ٢٠٤ .

وقد أعقب عمرو بن عدي ابنه امرؤ القيس ٢٨٨-٣٢٨م الذي استفاد من الصراع الفارسي الروماني واضطراب الأحوال في دولتيهما فعمل على توسيع نفوذه وزيادة سلطاته، فبسط إرادته على القبائل العربية في بادية الشام والجزيرة حتى أصبح ملك العرب كلهم، الذي تقلد التاج، وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذهب إلى اليوم، وقاد الظفر إلى أسوار نجران ومدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم^{١٧}.

وبعد أمرؤ القيس حكم الحيرة عدة ملوك حتى وصل الحكم إلى النعمان الأعور الذي كون جيشاً قوياً نظمه على الأسس العسكرية الساسانية ومال بقله إلى جانب الفرس، وقبل في بلاده بحامية كبيرة منهم مما أعانه على بسط سيادته على القبائل العربية.

وقد اهتم النعمان بالبناء اهتماماً لا مزيد عليه فبنى عدداً من القصور الفخمة، والتي ارتبط بها كثير من الأساطير وغدت اسماً في الأمثال الشعبية ومنها "جزاء سنمار"، ومن أشهر هذه القصور الخورنق الذي لا يرى له مثيلاً، وقد قتل المهندس الذي أشرف على بنائه حتى لا يبني مثيلاً له في مكان آخر فكان أسوأ جزاء حتى غدا مثلاً في التاريخ لناكر الجميل وينسب إلى النعمان أيضاً بناء قصر السرير وهو لا يقل شأنًا عن قصر الخورنق، كما ينسب إلى عهده تسرب الديانة المسيحية إلى إمارة الحيرة، بل يورد

^{١٧} صالح العلي - المصدر السابق ص ٦٧.

المؤرخون قصصاً مختلفة حول اعتناق النعمان نفسه لهذه الديانة وإن شكك الدكتور السيد عبد العزيز سالم في مثل هذه الروايات^(١٨).

وبعد وفاة النعمان تولى الحيرة عدد من الأمراء والملوك كان من أبرزهم المنذر بن ماء السماء ٥١٤ - ٥٣٦ م والذي عاصر قباذ وساعده في حروبه الأولى ضد البيزنطيين ولكن العلاقة ساءت بينهما فترة من الزمن ثم عادت إلى الصفاء وساهم المنذر بن ماء السماء في الحروب التي وقعت بين الساسانيين والبيزنطيين، كما أنه اشتبك مع الحارث بن جبلة أمير الغساسنة في عدة حروب انكسر في أولها ولكنه ثار لنفسه وأعاد الهجوم على الغساسنة فانتصر عليهم وأسر منهم عدداً كبيراً، وقد قتل المنذر في هذا الصراع وتلاه ابنه عمرو بن هند، وكان ملكاً طموحاً قوي الشكيمة، عدواً كبيراً للبيزنطيين، بسط سلطانه على الكثيرين من عرب جزيرة العرب، وقد قصده عدد من الشعراء الجاهليين كطرفة والأعشى ومدحوه بقصائد عدة، لكنه قتل على يد الشاعر عمرو بن كلثوم الذي لم يتحمل - فيما يقال - إهانة عمرو بن هند لأمه وقد قال في ذل الشاعر عمرو بن كلثوم قصيدة خالدة في عزة النفس مطلعها:

بأي مشينة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

حتى يصل إلى قوله:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

^{١٨} عبد العزيز سالم - المرجع السابق ص ٢٣٦.

وكان من أبرز من جاء بعده أخوه النعمان بن المنذر صاحب النابغة
الذبياني وكان ملكه فخماً وبلاطه رائعاً على ما صورته لنا أشعار شعراء
العرب الجاهليين.

امتد سلطان النعمان على كثير من القبائل العربية سواء في البحرين
أو في مناطق حائل وجبال طي.

ساعت العلاقات بين النعمان بن المنذر والملك الساساني كسرى
لأسباب كثيرة يختلف المؤرخون في ذكرها، انتهت بتمكن كسرى من النعمان
وقتلته.

وكان النعمان قبل ذهابه إلى كسرى قد أودع هاني بن مسعود
الشيباني أهله و أمواله وبعد مقتله طالب كسرى هاني بن مسعود بأموال
النعمان فرفض فجرد كسرى حملة لتأديب العرب الذين تكاثفوا لأول مرة
حول قوميتهم وتمكنوا من إيقاع هزيمة قاسية بالفرس في موقعة تاريخية
خالدة هي "يوم ذي قار" علق رسول الله - صلي الله عليه و سلم -
بقوله: "اليوم انتصف العرب من العجم و بي انتصروا" (١٩).

^{١٩} انظر تفاصيل علاقة النعمان بكسرى و اخبار يوم ذي قار وفرحة العرب بهذا اليوم و
اشعارهم فيه في المراجع الآتية :

الطبري ج ٢ ص ٢٠١-٢١٢. تاريخ اليعقوبي ص ١٧٤-١٧٦ .

ابن الاثير ج ١ ص ٢٨٥ - ٢٩١ . كما انها واردة عند اغلب المؤرخين المحدثين في
مجال تاريخ العرب قبل الاسلام .

والى جانب التاريخ السياسى للمدينة و الذي يشتمل في اكثره على الصراع بينها وبين الامراء الغساسنة حلفاء الرومان ، فان للحيره شهره عاليه فلقد كانت " مركزا علميا هاما ، وملئى الادباء العرب في الجاهلية"^(٢٠) وكانت مجالس امرائها " مرجع المستجدين و ميدان الشعراء والمادحين، ومن شعرائهم النابغة وحسان والمنخل و اليشكري ، ولهم مع الشعراء وقائع تدخل في مجلد كبير"^(٢١) كما انها كانت جسرا اساسيا عبرت عليه الوان من حضارة الفرس إلى الجزيرة العربية و من هذه الالوان الحضاريه الاديان ، وضروب من المعارف العامة والقراءة والكتابة والفنون الحربية و غيرها^(٢٢) .

دولة الغساسنة :

الغساسنة من قبيلة مازن ، وهى الوحيدة من قبائل الازد الكبيرة التى تفرقت في البلاد بعد سقوط سد مارب في اليمن ، و عرف هؤلاء الناس بالغساسنة وذلك لاقامتهم حول بئر تسمى " غسان " ، و يروى اليعقوبي قصتهم قائلا :

و سارت غسان إلى الشام حتى نزلت ارض البلقاء ، وكان بالشام قوم من سليح قد دخلوا ذمة الروم وتتصروا ، فسألتهم غسان ان تدخل معهم في ذلك فكتبوا إلى ملك الروم فاجابهم إلى ذلك . ثم ساء مجاورتهم عامله على دمشق فحمل عليهم صاحب الروم بجماعة من العرب من قضاة من قبل ملك الروم ، ثم ان غسان طلبت الصلح فاجابهم ملك الروم . وكان

^{٢٠} عبد العزيز سالم : المصدر المذكور ص ٢٠٠ .

^{٢١} جورجى زيدان : المصدر المذكور ص ٢٤٠-٢٤١ .

^{٢٢} احمد شلبى : التاريخ الاسلامى ص ١١٠ و انظر ايضا عبد الفتاح شحاته : دراسات

في تاريخ العرب وصدر الاسلام ، القسم الاول ص ١٦٠ .

رئيس غسان يومئذ جفنة بن عليه . فتنصرت غسان ، فاقامت بالشام مملكة من قبل صاحب الروم (٢٣) .

ويتبين من النص ان العلاقات لم تكن طيبة بين الروم والغساسنة في البداية ، وانها وصلت إلى حد الصراع المسلح بينهم ولكن حين يتبين للروم شجاعة الغساسنة فانهم تحولوا إلى مهادنتهم واستمالاتهم واستغلالهم بنفس الطريقة التي سبق للفرس ان استغلوا بها ملوك الحيرة .

جعل الرومان من الغساسنة شبه دوله حاجزة تقوم لهم بنفس الدور الذي يمارسه الحيريون لصالح الفرس ، وسنشير إلى بعض ملوك الغساسنة : الحارث بن جبلة : توفي في حدود ٥٦٩م ويذكر عنه أنه حارب امير الحيرة المنذر وانتصر عليه في ربيع ٥٢٨ م . وانه قمع ثورة الثلمريين في فلسطين في العام التالي ، وقد قر به الامبراطور الروماني ، واعترف له بالزعامة على بعض القبائل العربية ومنحة لقب " باسيلئوس " (٢٤) ، وقد قام الحارث بزياره للقسطنطينية ربما للاتفاق مع القيصر على من يخلفه في امارة الغساسنة او لمناقشة قضية الصراع مع المناذرة . وتوفي الحارث بعد ان حكم عرب الشام حوالى اربعين سنة وتمتع بمكانة عالية بين قومه . وظلت هذه المكانة معترف بها لدى المؤرخين العرب بعد ذلك (٢٥) .

^{٢٣} تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٦٦ .

^{٢٤} سعد زغلول : في تاريخ العرب ص ٢٠٦ .

^{٢٥} السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب ص ٢٠٤ .

المنذر بن الحارث : وعلى عهدة اذداد الصراع مع مملكة الحيرة وتوترت علاقاته بالدولة الرومانية لبعض الوقت ثم عادت إلى مجاريها بسبب اذدياد نفوذ اماره الحيرة و حاجة الرومان إلى المنذر و الغساسنة للوقوف في وجه هذه الاماره .

ثم عادت العلاقات بين المنذر والامبراطور إلى التكدر والاضطراب وتم القبض على المنذر و سجنه و نفيه إلى القسطنطينية ومنها إلى صقلية ، وترتب على ذلك تدهور احوال اماره الغساسنة . وقيام الرومان بالتدخل المباشر في حكم اماره الغساسنة . بنفس الصورة التي كان يمارسها الفرس في اماره الحيرة .

الصراع الحيري الغساني :

اشارتني هنا إلى هذا الصراع تهدف إلى توضيح كيفية استغلال القوى الكبرى الموجودة حينذاك للعرب في تحقيق مآربهم الخاصة : ويذكر التاريخ ان الحارث بن جبلة قد قام بغزو بلاد المنذر بن النعمان ملك الحيرة وانه انتصر في معاركة هذه وحاز غنائم كثيرة كما عادة الحرب بين الامارتين في عام ٥٤٤ حيث تمكن المنذر بن النعمان من اسر احد ابناء الحارث و قتله (٢٦) .

و بعد وفاة الحارث بن جبلة سنة ٧٥٠ خلفه ابنة الاكبر المنذر ، والذي ما ان تولى الامارة حتى سعى لمواصلة الصراع مع عرب الحيرة و انتصر على ملكهم قابوس بن المنذر اللخمي .

^{٢٦} عبد العزيز سالم : المصدر المشار اليه ج ١ ص ٢٠١ .

نهاية امارة الغساسنة :

أشرت إلى توتر العلاقات بين الغساسنة و الروم و قد دفع ذلك بالرومان إلى القبض على اولاد المنذر ، وتسبب ذلك في فك إمارة الغساسنة، وكان دخول الفرس بلاد الشام في عام ٦١٣ م وهو الذي قضى نهائيا على حكم الغساسنة .

ويذكر المؤرخون انه بعد عودة هذه المنطقة إلى حكم الروم فانهم اعادوا الحكم لاحد احفاد الغساسنة ، ويذكرون جبلة بن الايهم كاخر ماوك هذه الامارة ، وانه كان إلى جوار الروم في معركة اليرموك ، على راس جيش من قومه (٢٧) .

ولقد اسلم جبلة بن الايهم بعد هذه المعركة ووفد على عمر بن الخطاب في المدينة حيث اكرمه امير المؤمنين ، ولكن جبلة لم يكن قد تشرب الايمان تشربا سليما فحدث ان لطم رجلا من المسلمين و حين حلولوا القصاص منه هرب إلى الروم حيث ارتد عن الاسلام و اعتنق المسيحية(٢٨).

اقليم وسط شبه الجزيرة :

يقصد بمنطقة وسط شبه الجزيرة مساحات واسعة من الارض تمتد من بلاد اليمن جنوبا إلى بادية الشام شمالا ، وهى في معظمها مناطق

^{٢٧} تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١١٩ ، وانظر ايضا الطبري ج ٣ ص ٥٧٠ .

^{٢٨} عبد الفتاح على شحاته : المصدر المشار اليه ص ١٦٤ - ١٦٥ . احمد شلبى :

موسوعة التاريخ الاسلامي و الحضاره ج ١ ص ١١٠ .

صحراوية خالية من مراكز العمران ، ومع ذلك فانها - باستثناء مناطقها - كانت مرتعا للبدو والاعراب المتجولين .

وإذا كان التطور الحضارى قد تباین من جزء إلى اخر على ارض شبه الجزيرة و كان من ابرز درجات هذا التطور ما اشارنا اليه من قيام الدول في الجنوب و الدويلات في الشمال . اما بالنسبة لهذه المنطقة فقد شهدت نوعا من الحضارة قبل الاسلام ، وان اختلف مظهرها عما سبق دراسته .

يمثل الحجاز اهم اقسام وسط شبه الجزيرة ، ويحتل مكانة مرموقة في التاريخ الاسلامى . وتعتمد اهمية الحجاز على اسس ثابتة ، منها انه يحتوى على اهم المراكز العمرانية في ذاك الحين وهى مكة و الطائف ويثرب ومنها ان الله سبحانه و تعالى قد اختار هذا الاقليم ليكون مهدا لرسالته الاسلامية ومنذ ذلك الحين وارض الحجاز مطمع المسلمين وهوى افئدتهم في كل مكان و زمان ، نقطة ثالثة تضاف إلى اهمية بلاد الحجاز تتمثل في عدم خضوعة للقوى الخارجية المتمثلة في الفرس و الروم ، واذا كان لطبيعة بلاد الحجاز الفضل في عدم خضوع بلاد الحجاز للأجانب الا ان ذلك لا يعنى انعزال الحجاز بعيدا عن مسرح الحياة خلال هذه الحقبة على العكس من ذلك كانت ارض الحجاز ممرا للقوافل القادمة من الجنوب إلى الشمال و العكس، كما ان اهل الحجاز كانوا في المقام الاول تجارا خاضوا بتجارتههم اسواق الشمال و الجنوب واتصلوا بالامم هنا و هناك .

و يشهد التاريخ ان المنطقة لم تكن منسية او منعزلة . بل لقد حاول الاحباش و الروم اخضاع هذه المناطق لسيطرتهم ، فجاءت إلى المنطقة في سنة ٢٤ قبل الميلاد حملة رومانية بقيادة اليوس جالوس حاولت فتح المنطقة لكنها فشلت فشلا زريعا ^(٢٩) كما ان حملة ابرهة على مكة ، وان تخفت تحت ستار هدم الكعبة الا اننا يمكن لنا ان نتخيل انه ربما دار في ذهن ابرهة الحبشي فكرة السيطرة على مكة ، ومن ثم على القبائل العربية المنتشرة في الحجاز ^(٣٠).

لم تشهد هذه المنطقة قبل الاسلام نظاما ثابتا للحكم و الادارة على غرار مناطق الجنوب و الشمال ، وانما سادتها نظم خاصة سوف نشرح جوانبها و اذا كان هناك من يتناول دراسة هذه المنطقة تحت اسم " امارة الحجاز " ^(٣١) ، الا ان الغالبية الكبرى من المؤرخين الموثوقين لا تقر قيام دولة في اقليم وسط شبه الجزيرة على نمط الدول التي قامت في الجنوب او في الشمال ، ويستنتجون من ذلك جزء من تاريخها امارتي اللخميين و الغساسنة.

^{٢٩} عبد العزيز سالم : المصدر المشار اليه ج ١ ص ٢٩٠ .

^{٣٠} عبد الفتاح على شحاته : دراسات في تاريخ العرب ص ١٧١ .

^{٣١} محمد مصطفى النجار : عرب الجزيرة بين الجاهلية والاسلام ص ٤٥ وما بعدها

ويبالغ السيد امين مدني في كتابه " التاريخ العرب وبدايته " حتى ليتصور ممالك العرب قبل الاسلام كانت مثيلة لما بعد الاسلام ، انظر الصفحات من ٢٥٨ وما بعدها ويشير إلى ذلك ايضا الدكتور محمد بك غنيم في كتابه " خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والاسلام " ج ١ ص ١٠٠ .

مملكة كندة:

تشير بعض المصادر إلى محاولة هذه القبيلة القيام بنوع من فرض سيادتها على القبائل العربية في وسط شبه الجزيرة العربية .

وكندة من قبائل اليمن التي هاجرت إلى الشمال ، و كان اول ملوكهم حجر بن عمرو المعروف باسم اكل المرار وازداد نفوذها على عهد الحارث بن عمرو و الذي تمكن بمساعدة الفرس من الاستيلاء على الحيرة و حكمها حتى جاء كسرى انوشروان فاعاد المناذرة إلى حكم الحيرة .

و من اشهر امراء كندة الشاعر الجاهلي المعروف امرؤ القيس الذي انغمس في الصراع مع بعض القبائل الاخرى حتى يقال انه اضطر للاستجداء بقيصر الروم وقد وافته المنية بعد عودته من بلاد الروم ، و يقال بان قيصر قد دس له السم حتى يتخلص من مشاكله^(٣٢).

اما اهم ما يعنينا في دراستنا لاقليم الوسط هو الاشارة إلى تاريخ الحواضر الثلاث الكبرى في منطقة الحجاز و هي مكة و يثرب و الطائف .

مكة المكرمة :

اشهر المدن الإسلامية ، و مهد رسول الله صلى عليه و سلم و مرتع صباه وشبابه و موطن دعوته و أحب أرض الله اليه^(٣٣)، و لمكة أسماء كثيرة أشهرها ما ذكره القرآن الكريم من انها "بكة" و قد اورد البكري

^{٣٢} ابن كثير : البداية و النهاية ج ٢ ص ٢١٨ - ٢١٩ .

^{٣٣} حسن فتح الباب : على طريق الهجرة ص ٧٣ .

اسماء كثيرة للمدينة منها : صلاح و الرأس ، و العرش و القادس^(٣٤) كما انها عرفت بأَم القرى، و البلد الأمين..... الخ^(٣٥)، و معني اسمها كما يقول المفسرون " سميت مكة لأنها تبك الذنوب ، أي تستخرجها و تذهب بها كلها "^(٣٦).

و من المسلم به تاريخيا أن مكة قد قامت حول البيت الحرام و أن أول من سكنها كانت السيدة هاجر و ابنها اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام، و نتبين ذلك من قول الله سبحانه و تعالى علي لسان ابراهيم الخليل : " ربنا انى اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم "^(٣٧) كما كان البيت الحرام هو اول بناء بها اذ يقول الله سبحانه " ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا "^(٣٨) و بئر زمزم هي أول الآبار التي فجرها الله في هذه المنطقه و حول البئر بدأ الناس يتجمعون ، و أول من قام مع هاجر قبيلة جرهم ، ويقول ابن الاثير " وكانت جرهم بواد قريب من مكة ، ولزمت الطير الوادى حين رات الماء ، فلما رات جرهم الطير لزمت الوادى قالوا : ما لزمته الا وفيه ماء ، فجاءوا إلى هاجر و قالوا : لو شئت لكننا معك فانسناك والماء ماؤك ؟ قالت : نعم فكانوا معها حتى شبا اسماعيل و ماتت هاجر ، فتزوج اسماعيل من جرهم فتعلم العربية منها هو و اولاده فسهم العرب المستعربة "^(٣٩) .

^{٣٤} البكري : معجم ما استعجم ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

^{٣٥} انظر كتاب الدكتور السيد عبد العزيز المشار إليه ص ٢٩٤ - ٢٩٧ .

^{٣٦} البكري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٩ .

^{٣٧} القرآن : سورة ابراهيم الاية ٣٧ .

^{٣٨} القرآن : آل عمران الاية ٩٦ .

^{٣٩} ابن الاثير : الكامل ج ١ ص ٥٩ .

وقامت قبيلة جرهم بأمر البيت الحرام ومكة حتى تمكنت قبيلة خزاعة من نزول المكان وطرد الجرهميين واقامتهم مكانهم بمكة (٤٠) .

سيطرت خزاعة على البيت وقضت على الجرهميين واضطرتهم إلى الرحيل والهجرة، واقام بنو اسماعيل إلى جوارهم وارتبطوا بصلات طيبة رغم سيادة خزاعة على البيت وولاية امر مكة (٤١)، وينسبون إلى قبيلة خزاعة قيامها بتغيير دين ابراهيم الخليل وعبادتها الأصنام وخاصة على يد زعيمها عمرو بن لحي الذي يذكر انه قد احضر معه من بلقاء الشام اصناما نصبها حول الكعبة (٤٢)، وهناك رواية اخرى تنسب إلى بنى اسماعيل انهم اول من عبد الحجارة وذلك انه لم يكن يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد الا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما له، فحيثما نزلوا وضعوه، فطافوا به طوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى ان كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة واعجبهم (٤٣) .

وتزوج قصي بن كلاب زعيم قريش من ابنة جليل بن حبشية الخزاعي زعيم خزاعة و الذي كان يمتلك مفاتيح الكعبة، وحين حضرت الوفاة لجليل اوصى بولاية البيت من بعده إلى قصي . ولم يرض ذلك الامر بالطبع قبيلة خزاعة فحالت بين قصي وولاية البيت مما اضطر قصي إلى

^{٤٠} محمد على مختار : الازرقى المؤرخ من خلال رواياته . مقاله في كتاب " مصادر

تاريخ الجزيرة العربية " ج ١ ص ٢٠٥ .

^{٤١} المصدر السابق ص ٢٠٤ .

^{٤٢} ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٧٢ .

^{٤٣} نفس المصدر ج ١ ص ٧٢ .

طلب النجدة من اخواله واخوته، وتجمعت تحت رايته كل القبائل العدنانية و
جاءه اخوه لامه دراج بن ربيعة العذري واقتتل الفريقان ثم تداعوا إلى الصلح
على ان يخلو بين قصي وبين البيت و مكة^(٤٤) فولى قصي البيت و امر
مكة.

وجمع قبائل قريش فامر لهم بابطح مكة وكان بعضهم في الشعاب
ورؤوس الجبال فقسم منازلهم بينهم فسمى مجمعا .
وفيهم يقول الشاعر :

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فھر^(٤٥)

بدا بذلك نجم قبيلة قريش في الارتفاع ، و قام قصي بتجميعها و
اسكنها مكة وقسمها بين فخوذها و بطونها ، وهو اول من اعز قريشا وظهر
به فخرها ومجدها و سناها^(٤٦) ، وبعد ان استقامت له الامور و نفى خزاعة ،
هدم البيت ثم بناه بنيانا لم يبنيه احد ، وبنى دار الندوة ، وكانت قريش في
حياته ترى امره كالدين المتبع^(٤٧).

وكانت دار الندوة من اهم المنشآت التي انشاها قصي في مكة قبل
الاسلام حيث كانت ملتقى كبار القوم للتشاور و تبادل الاراء ، ويرى

^{٤٤} سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٠٩ - ١١٠ . تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

^{٤٥} ابن هشام ج ١ ص ١١٥ - ١١٦ ، اليعقوبي ج ١ ص ١٩٨ والطبري ج ٢ ص ٢٥٦ -
٢٥٨ .

^{٤٦} تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٩٨ .

^{٤٧} تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٩٩ .

اليعقوبى انه " كان لا ينكح رجل من قريش ولا يتشاور في امر ولا يعقدون لواء بالحرب ولا يعذرون غلاما (اى لا يختونه) الا في دار الندوة " (٤٨).

وكان لقصى من الاولاد الذكور عبد مناف ، وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصى وقسم قصى بين ولده مراتب الشرف التي كانت في يده السقايه و الرئاسة لعبد مناف والدار لعبد الدار والرفادة لعبد العزى وحافتي الوادي لعبد قصى (٤٩).

ويروى الطبرى رواية اخرى في توزيع مراتب الشرف في مكة فيقول : " فلما كبر قصى ورق عضمه ، وكان عبد الدار بكره اكبر ولده ، وكان - فيما يزعمون - ضعيفا . وكان عبد مناف قد شرف في زمان ابيه ، وذهب كل مذهب وعبد العزى بن قصى.

فقال قصى لعبد الدار - فيما يزعمون - اما والله لالحقنك بالقوم ، وان كلنو قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون انت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء لحربهم الا انت بيديك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء الا من سقايتك ، ولا ياكل احد من اهل الموسم طعاما الا من طعامك ولا تقطع قريش امورا الا في دارك ، فاعطاه داره دار الندوة التي لا تقضى قريش امرا الا فيها ، و اعطاه الحجابة واللواء والندوة والسقاية والرفادة (٥٠).

^{٤٨} تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٩٩ .

^{٤٩} تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٩٩ .

^{٥٠} الطبرى ج ٢ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

ويوافق الدكتور احمد شلبي على هذا الرأي ويذكر ان خلافا شديدا
قف وقع بين ابناء عبد مناف وابناء عبد الدار و تحزب بعض قریش لكل من
الطرفین حتى اوشكت الحرب ان تقع بينهما لولا نجاح المساعي التي قسمت
وظائف الكعبة بين هؤلاء واولئك^(٥١)، فما هي الوظائف باختصار شديد ؟

دار الندوة:

هي دار أقامها قصي بن كلاب زعيم قریش بقرب الكعبة وآلت إلى
ابنه عبد الدار، وكانت قریش لا تقضي أمراً إلا في دار الندوة فهي أشبه
بمجلس شيوخ أهل مكة، تجري فيها المناقشات والمباحثات في الأمور الهامة
كالاشتراك في الحروب أو عقد المعاهدات والاتفاقات وتجهيز القوافل
وتنظيمها وبهذه الدار اتخذت الكثير من القرارات الهامة في حياة المكين.

الرفادة :

تقديم الطعام إلى حجاج بيت الله ، ويقال بان قصيا قد فرض على كل
قریشي قدرا من الطعام يتم تقديمه إلى المحتاجين من الحجيج ، يقول
الطبري: وكانت الرفادة خراجا تخرجه قریش في كل موسم من أموالها إلى
قصي بن كلاب . فيصنع به طعاما للحجاج يأكله من لم تكن له سعة ولا زاد
ممن يحضر الموسم ، وذلك ان قصيا فرضه على الناس فقال لهم حين امرهم
به: يامعشر قریش انكم جيران الله واهل بيته واهل الحرام ، وان الحاج
ضيف الله وزوار بيته وهم احق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شرابا

^{٥١} احمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة ج ١ ص ١٩٩ . وانظر ايضا
جورجي زيدان في كتابه المشار اليه ص ٢٧٨ . وجمال سرور في كتابه قيام الدولة
العربية الاسلامية ص ٤٤ - ٤٥ .

وطعاما ايام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام من اموالهم فيدفعونه اليه فيضعه للناس ايام منى فنجرى ذلك من امره على قومه في الجاهلية حتى قام الاسلام^(٥٢).

السقاية :

قامت مدينة مكة اساسا حول بئر زمزم ، و بعد ذلك تم حفر ابار اخرى خارجها ، وردم الجرهميون بئر زمزم فقل الماء في المدينة ، وذلك كانت السقاية في موسم الحج مهمة اساسية يقوم المكلف بها باحضار الماء من الابار وتقديمه إلى الحجيج بعد ان يمزجه بشيء من التمر والزبيب. وكانت هناك حياض توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفة وتملا بالماء العذب من الابار على الابل لكي يشرب منها الحجاج ، وهذه مسألة في غاية الاهمية لحاجة الحجاج إلى شرب الماء ، وندرة هذا الماء في اقليم مكة .

الحجابه :

الاشراف على الكعبة المكرمة والاحتفاظ بمفاتيحها وتولى فتح ابوابها وغلقها و القيام على خدمتها و تولى هذا الامر عبد الدار بن قصي ثم بعده ابنه عثمان ، وظلت حجابه الكعبة في بنى عبد الدار حتى فتح الرسول الله - صلى الله عليه و سلم - مكة في العام الثامن من الهجرة ودخل رسول الله الكعبة و حطم الاصنام ، ويروى ابن هشام ان " رسول الله صلى الله عليه و سلم جلس في المسجد ، فقام اليه علي بن ابي طالب ، ومفتاح الكعبة في يده، فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابه مع السقاية صلى الله عليك . فقال

^{٥٢} الطبري ج ٢ ص ٢٦ .

رسول الله صلى الله عليه و سلم : اين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال :
هاك مفتاحك يا عثمان : اليوم يوم بر ووفاء " (٥٣).

حيث نزل قول الله تعالى على رسوله الكريم ، " ان الله يامرکم ان
تؤدوا الامانات إلى اهلها " (سورة النساء الايه ٥٨) . ومهمة القائم بسها ان
ياذن للناس بدخول الكعبة ، ولم تكن تتطلب من القائم بها ان يكون عالماً في
الدين كما انها ولا ريب كانت مصدر رزق للقائمين عليها .

اللواء :

ويقصد بذلك انه في حالة الحرب يتولى صاحب اللواء عقد لواء
قريش ، اى يعطيهم علم الحرب ومن ثم الاذن بها وكان لواء الحرب في يد
قصي ومن بعده إلى ابنه عبد الدار ثم في اولاد عبد الدار يتولاه اصحاب
الشرف وكبار السن فيهم ونراه ينتقل احياناً إلى ايد رجال من بنى عبد
مناف، فقد كان يوم احد في يد ابي سفيان بن حرب.

وظائف أخرى:

وعرفت الحياة في مكة مجموعة من الوظائف الأخرى منها:
القيادة: هي غير اللواء، وكانت القيادة في بني أمية بن عبد شمس
فقد قاد حرب بن أمية الناس في حرب الفجار، كما قاد الناس يوم بدر عتبة
بن ربيعة لأن أبا سفيان بن حرب كان في القافلة التي سببت المعركة، وقاد
أبو سفيان قريشاً في غزوتي أحد والخندق، كما كان قائدها أيضاً يوم فتح
مكة وكان سبباً في دخول رسول الله ﷺ مكة دون قتال.

الأعنة:

وهناك ذكر للأعنة، ويكون صاحبها المقدم على خيول قريش في الحرب.

الحكومة:

وهي الأموال التي يسمونها لآلهتهم، وكانت عند ظهور الإسلام للحارث بن قيس السهمي. ولم تكن في مكة وظيفة لقاض أو حاكم يفصل في المنازعات التي تنشب بين الناس، فإذا حدث خلاف بين أفراد العشيرة فإن شيخ القبيلة هو الذي يحكم فيه. أما إذا حدث خلاف بين أفراد قبائل متعددة فإنهم كانوا يلجئون إلى رؤساء هذه العشائر أو إلى الكهان.

الأشفاف:

وهي وظيفة تقدير الخسائر، وكانت في يد أسرة أبي بكر رضي الله عنه.

ظلت الرياسة الشرفية لابناء قصي بن كلاب على مكة ، و علي الكعبة و كانت زعامة قريش حين هاجمها ابرهه الحبشي لهدم الكعبة في يد عبد المطلب بن هاشم و في أيام النبي كانت للعباس بن عبد المطلب ، و بعد أن أسلم انتقلت زعامة قريش إلى أبي سفيان بن حرب ، حتى كان فتح مكة و دخول القرشيين الاسلام .

يثرب:

يثرب هي مدينه رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و هي التي اختارها الله سبحانه و تعالى لتكون منطلقا لانتشار الاسلام . و اذا كانت مكة

هي مهد النبي عليه السلام فان يثرب هي مثواه الاخير ، و هي بذلك بعد مكة أحب المدن إلى قلوب المسلمين .

و تقع المدينة علي بعد حوالي ٤٠٠ كيلو مترا إلى الشمال من مكة في منطقه تكثر بها الأشجار و المياه، و كان ذلك سبب استقرار الناس بها منذ وقت طويل . و أسماها رسول الله "طيبه" و ناداها الله تعالى باسم " يثرب و المدينة و الدار " ، و يذكر ذلك البكري فيقول طيبه اسم مدينه الرسول صلى الله عليه و سلم معروف .

قال الشاعر :

طربت ودارى بأرض العراق إلى من بطيبة و المسجد .

و قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : يسمونها يثرب الا و هي طيبه . كأنه كره أن تسمي يثرب لما كان في لفظ التشريب^(٥٤).

ثم يعود إلى ذكرها فيقول : المدينة ، هي مدينه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاذا قيل المدينة غير مضافة و لامنسويه علم أنها هي ، قال الله تعالى " يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل " . و هي يثرب ، قال تعالى : " يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " . و هي الدار قال سبحانه : " و الذين تبؤوا الدار و الايمان " . و هي طيبه و طابـة و عذراء.....^(٥٥).

^{٥٤} البكري : المصدر المشار اليه ج ٢ ص ٩٠٠ ، وانظر ص ١٣٨٩ .

يقال ان أول من سكن يثرب هم العمالقة من العرب ، و بعد ذلك نزحت اليها بعض قبائل اليهود هربا من الاضطهاد الروماني الذي حل بهم اعتبارا من القرن الاول قبل الميلاد و استمر حتى القرن الثاني الميلادي ، و أصبح اليهود في يثرب أصحاب المصالح فيها حتى جاءتهم الأوس و الخزرج مقبلين من بلاد اليمن و ساكنوا اليهود مده من الزمن دون مشاكل كانت السيادة لليهود و يقع عبء العمل علي العرب و ظلوا علي ذلك زمنا ازدادت فيه الثروات في الاوس و الخزرج و بدأ تبرم اليهود بهم و اوقعوا بهم الايذاء و تتمروا لهم و قطعوا الحلف القائم بينهم و أصبحت الاوس و الخزرج في خوف من أن يقوم اليهود بطردهم فاخترأوا مالك بن العجلان الخزرجي و أمروه عليهم ، و تمكن هذا من قتل زعيم اليهود ، و استعان بعرب الغساسنة في حرب اليهود و الانتصار عليهم و بذلك أصبحت السيادة في يثرب للاوس و الخزرج بينما بقي اليهود مقيمين بالمدينة و أماكن أخرى كثيرة مثل خيبر و تيماء و وادي القرى يتاجرون و يزرعون ويرابون دون أن تكون لهم حكومه معينه و انما عاشوا في كنف العرب .

أما الاوس و الخزرج فقد وقع بينهم الشقاق الذي وصل إلى الحرب و جرت بينهم بعض الايام المشهورة تبادلوا فيها النصر والهزيمة و أشهر هذه الايام يوم بعاث حيث ناصر اليهود الاوس و دارت الدائرة علي الخزرج حتى كادت أن تفني لولا تعقل بعض رجال الأوس الذي نادوا بايقاف الحرب و تداعوا إلى الصلح و علي اقامه حكومه تدبر شئونهم يرأسها عبد الله ابن

^{٥٥} نفس المصدر ص ١٢٠١ - ١٢٠٢ و ذكر لها الدكتور عبد العزيز سالم ٢٩ اسما نقلها عن الاخباريين والمؤرخين انظر كتابه المشار ص ٣٣٣ .

أبي سلول و هموا بتتويجه فعلا ، ولكن شاعت ارادة الله أن يهاجر رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى المدينة وتجمع أهلها حوله ، وأصبحوا بنعمه الله اخوانا^(٥٦).

مدينة يثرب ((نص للقراءة))

لمدينة يثرب كيان قديم كفه لها تعدد أوديتها وعيونها وآبارها، وخصوبة تربتها، وبالتالي وفرة أرباضها ومزارعها، مع كثرة إنتاجها وسكانها كثرة نسبية، وأهمية أسواقها المحلية والموسمية، فضلاً على موقعها قرب شرايين التجارة الرئيسية البرية والبحرية وتعاملها بالتالي مع متاجر اليمن ومصر والشام.

وتقع يثرب في مهاد من الأرض ذات لابات أو أحرار سبخة، أهمها حرة واقم وحرة الوبرة وحرة قباء، وهي مفتوحة الحدود، وأقرب الجبال إليها جبال أحد وعير وسلع وسليع، وهي ذات ارتفاعات متباينة.

وانتفعت يثرب بميناء الجار في عمليات التصدير والاستيراد المناسبة لعصرها القديم، وكانت تصل إليها وتخرج منها بعض متاجر عدن وشرق أفريقية والهند ومصر - وبلغ من شهرتها القديمة أن سمى الساحل الممتد منها إلى خليج ايلة بساحل الجار لفترة من الزمن - ولعلها هي البريقة الحالية التي عمرت لفترة طويلة من العصور الإسلامية - وجاورتها جزيرة صغيرة

^{٥٦} عبد الفتاح على شحاته : دراسات في تاريخ العرب وصدر الاسلام ص ١٨٣ - ١٨٩ . وانظر ايضاً دراسة الدكتور عبد العزيز سالم في كتابه المشار اليه ص ٣٣١ وما بعدها .

كانت ترسو عليها سفن الحبشة بخاصة وظلت الجار كذلك حتى جاءت محلها في الأهمية ميناء ينبع.

وعثر في جبل المكتب خارج المدينة على نصوص قديمة لم يتم بحثها بعد، كما عثر في جبل الصويدة على مبعدة منها على نصوص ثمودية وصور حيوانات منقورة. وعثر في داخل المدينة نفسها عن طريق المصادفة وخلال حفر أساسات بعض المباني بالمناخة وغيرها على بقايا عمران سابق لم يتيسر تحديد عهده.

واحتفظ الأخباريون المسلمون لمدينة يثرب بأسماء كثيرة تراوحت عدتها في مؤلفاتهم بين العشرة، والأحد عشرة، والتسعة والعشرين، بل والأربعة والتسعين، وكانت في أغلبها صفات قد يسهل تفسير القليل منها وتعليقه، بينما تصعب معرفة مدلول الكثير منها أو تحليله. وكان اسم يثرب من أقدمها، أو هو أثرب، وقد يكونان لهجتين لمسمى واحد كان يشغل جزءا من المدينة غرب مشهد حمزة الحالي، ثم عم عليها. ومن الأهمية بمكان أن ذكر نص للملك نابونهد آخر ملوك بابل الكلدانية في منتصف القرن السادس قبل الميلاد اسم "اتريبو" في نهاية توسعه بجيوشه في أرض الحجاز، وخلال محاولته السيطرة على عواصم الطريق التجاري الكبير بين غرب شبه الجزيرة وبلاد الشام. وحدث هذا التسجيل بطبيعة الحال بعد نشأة يثرب فيما قبل القرن السادس ق.م بعهود طويلة.

وتضمنت بعض النصوص المعينية القديمة اسم يثرب أيضا، كما ذكره الرحالة بطليموس السكندري في منتصف القرن الثاني للميلاد، بصيغتي lathrippa or Jathrippe ، وأشار إليه اسطفانوس البيزنطي باسم

Iathrippa Polis أى مدينة يثرب، وذلك بما يدل على انها كانت قد استكملت الطابع المدنى وتميزت به عما حوالها من اراضى الزراعة ومضارب البدو. تأيد هذا في تسميتها العربية "المدينة" التي قد تعبر عن هذا التحول، وتكون عربية الاصل، ان لم تكن مشتقة من لفظ ارامى قديم عبر العبرانيون عنه بصيغة مدينتو او مدينتنا بنفس معناه العربى او بمعنى الحمى. وعندما دخل الاسلام يثرب استحب الرسول لها اسم المدينة وصفة طيبة او طابة دون اسم يثرب الذي قيل انه قد معنى الفساد او التثريب أى المؤاخذه بالذنب. وشاعت للمدينة صفات اخرى من اهمها: ام قرى المدينة، والجاراة والمجيرة والمحبورة. والبحرة والبحيرة...الخ.

ادى خصب يثرب وثراؤها النسبى إلى كثرة عمرانها، وادى موقعها والظروف التي مرت بها إلى تعدد طوائف سكانها. وهى طوائف يصعب تحديد مسمياتها الاولى، ولم يجد النسابون لديهم الا ان يجعلوا من اقدمها طائفة العماليق ذات الصبغة الاسطورية، كما أشاروا إلى بطون متأخرة من جذام وبلى وسليم ومن قيس عيلان وغيرها ظلت بقاءها خارج المدينة حتى العصر الجاهلى وربما كانت في الاصل بداخلها حتى غلبها غيرها على امرها واخرجها منها. وفازت بالشهرة اكثر منها قبائل ذات اصول قحطانية اختلطت بالعدنانية، وبقيت منها في العصر الجاهلى طوائف الاوس والخزرج ببطونها الكثيرة. وجاورتها طوائف عبرية بقى منها في العصر الجاهلى ايضا بنو النضير وقينقاع وقريظة. وبطون غيرها صغيرة. ولعل ما يقال عن تداخل الجماعات ذات الاصول القحطانية والعدنانية في يثرب يشبه ما كانت الحال عليه قديما في لحيان وتيماء وغيرها من حيث نزول جاليات تجارية عربية جنوبية معينة وسبأية في ارضها لكى ترعى المصالح التجارية لدولها الجنوبية، ولما طال المقام بها اختلطت وتصاهرت مع السكان

الاصليين من العرب الشماليين ولكن النسابين ظلوا يردونها إلى اصولها القحطانية او الجنوبية الاولى من حين إلى اخر.

وكان من الطبيعي ان تهتم طوائف المدينة بحماية حدودها وارباضها ومزارعها بتحسينات صناعية تمثل اكبرها في الآطام (جمع اطم)، وعرفت صغرها باسم الصياصي. وبنى بعضها من اللبن وبنى بعضها الآخر بأحجار صغيرة او كبيرة، وزودت بأبراج كما احتوت على آبار ومخازن بحيث يحتوى بها اهلها حين الغارة، ويتحصن بها الشيوخ والنساء والصغار حين خروج رجالها إلى الحرب. وكما كانت ليثرب حصونها العامة كانت لكل طائفة من سكانها حصونها الخاصة نتيجة فيما يبدو لعدم خلوص نوايا بعضهم للبعض الآخر.

واهتم رواة اليهود وكتابهم بتاريخ طوائفهم في يثرب اهتماما كبيرا لا يخلو من الغرض وتخللوا لها ماضيا بعيدا تباروا في القول ببدايته منذ ايام موسى وهارون في القرن ١٤ ق.م، او بعد انتصار داود على معارضييه في القرن العاشر ق.م ، او بعد سقوط مدينة السامرة الاسرائيلية امام الغزو الاشورى في عام ٧٢١ ق.م ، أو بعد تدمير البابليين لاورشليم وهيكل سليمان في عام ٥٨٦ ق.م ، او بعد قضاء القائد الرومانى تيتوس على ثورة اليهود الاولى وتخریب معابدهم في عام ٧٠م ، او بعد القضاء على ثورتهم الثانية في عهد الامبراطور هارديان بين ١٣٢-١٣٥ .

أوهم قد جمعوا بين اشتات من كل هؤلاء. ومع وضوح الشك في هذا الخليط الكثير من الاراء وجد آذانا صاغية ممن اخذوا عن الاسرائيليات

وصدقوا روايتها باعتبارهم من اهل الكتاب والكتابة لاسيما وانه لم تظهر
للاسف لعرب يثرب القدامى كتابات اصيلة تتحدث باسمهم حتى الان.

وافترض بعض المؤرخين من القدامى والمحدثين رأيا وسطا .
احتملوا فيه ان يكون يهود يثرب او اغلبهم من العرب المحليين اللذين قد
يرتد نسبهم إلى الجنوب . وانهم تهودوا في يثرب حينما بلغتھا الديانة
اليهودية بطريقة ما شأنهم في ذلك شأن من تهود من عرب تيماء وتبوك
ووادى القرى وعرب اليمن ايضا. وزكوا هذا الفرض بما قيل من ان هؤلاء
اليهود المحليين لم يكونوا يعترفون بالتلمود كله، وان معارفهم الدينية كانت
محدودة بحيث انكر عليهم بعض يهود الشام في القرن الثالث الميلادي صدق
يهوديتهم . وربما انضمت اليهم اشقات صغيرة مهاجرة من الادوميين مثلاً
بعد ان دالت دولتهم (حيث وجد رأى ينسب بنى قينقاع اليهم). ولم يكن
هؤلاء وهؤلاء كثرة كبيرة. وانما قدر عدد رجالهم في احدى المناسبات بما لا
يزيد عن الالفين.

وكانوا يتحدثون بعربية تداخلت فيها ألفاظ ومسميات عبرية اكتسبوها
من التوراة أو ممن معهم من اليهود الطارئین، وقام لهم بيت يسمى بيت
المدراس كان من المفروض أن يتدارسوا فيه أمور دينهم ويفصلوا فيه في
قضاياهم. ومع عربيتهم أو استعرا بھم عاشوا في أحياء محدودة ومجتمع مقفل
عليهم. وقد أسلفنا في الفصل العاشر كيف ربط بعض الأخباريين بين الملك
أب كرب أسعد ملك سبأ وذي ريدان وبين يهود يثرب مرة بدخولهم إليها في
عهدہ (في بداية القرن الخامس الميلادي)، ومرة بامتداد نفوذه إليها حينما
توسع في نواحي معد والحجاز، ومرة برحلته إليها وتهوده، ومرة بتعيينه أحد
أولاده عليه حيث قتل بعد رحيله عنها . . . الخ.

واعتبرت الروايات العربية الأوس والخزرج أخوين من الأزد وقضاة هاجروا إلى يثرب بعد سيل العرم وخراب سد مأرب باليمن، وهو توقيت غير محدد بزمان صريح حيث تخرب سد مأرب في أكثر من عهد، وأصلح أكثر من مرة كما سبق التنويه بذلك في الفصل الرابع. ولهذا تباينت آراؤهم في توقيت هذه الهجرة بالقرن الثالث أو أواخر القرن الرابع، أو في القرن الخامس الميلادي.

ومرة أخرى أشاعت الروايات العبرية وما تأثر بها أو وافقها من الروايات العربية أن الأوس والخزرج اكتفوا في بداية الامر بحياة متواضعة في يثرب في مقابل كثرة استغلال يهودها للتجارة والصناعة . وعمل بعضهم في الزراعة وتعاقدوا في حلف مع اليهود ليؤمن بعضهم بعضا. ووجد اليهود في هذا الحلف ما يزكي وجودهم ويكفل لهم معونة الأوس والخزرج في الدفاع عن يثرب والقيام بدور الوساطة بينهم وبين من حولهم من عرب واعراب.

وشيئا فشيئا اثرى الأوس والخزرج وتحسنت اوضاعهم . ورأى بنو قريظة والنضير الحيلولة دون استفحال امرهم فأهدروا حلفهم معهم واستبدوا بهم. وانكمش الأوس والخزرج زمنا حتى استنفر همهم زعيم الخزرج مالك بن العجلان (او عمرو بن النعمان) وسعى معهم إلى احراز السيادة. ويبدو انه حالف بطونا من قضاة في غسان او في غيرها من جنوب الشام، وربما حالف بعض الحميريين ايضا، ثم فاجأ بقومه وحلفائه اليهود قبل ان يعتصموا بصياصيتهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وساد هو وقومه يثرب في ختام القرن الخامس الميلادي او بعده بقليل. ورأى بعض المؤرخين (ومنهم ولفنسون) ان

هزيمة اليهود حينذاك في يثرب كانت انعكاسا لهزيمتهم في اليمن، وانها تمت في الحاليين بناء على تحريض مسيحيي الحبشة في اليمن، وبناء على تحريض مسيحيي غسان في يثرب. ورأى آخرون العكس . ويلاحظ هنا ان هزيمتهم في يثرب سبقت هزيمتهم في اليمن. واستبعد مؤرخون آخرون اثر التحريض الديني في يثرب وقصر اسباب النزاع بين العرب واليهود حينذاك على تضارب المصالح الاقتصادية والرغبة في الاستئثار بالسلطة.

وبعد النصر زاد الاوس والخزرج من عمران يثرب وسعتها، وزادوا من أطامها أو حصونها. وانتشر الاوس في بقاع خصيبة من العوالى في جنوب وشرق يثرب، بينما انتشر الخزرج في بقاع اقل ثراء في الاجزاء الوسطى والشمالية منها.

وعاش عرب يثرب في بداية الامر متحدى الصفوف ، ثم ساءت العلاقات فيما بين قبائلهم الرئيسية، وفرق التناقض الاقتصادي والسياسي وحدتهم، حيث اخذ الاوس على الخزرج استئثارهم بالسيادة السياسية، بينما اخذ الخزرج على الاوس استئثارهم بأهم النواحي الاقتصادية.

وعمل اليهود من حين إلى آخر على تأجيج نار الفتنة بين الفريقين، وتأليب فريق منهما على فريق. وهكذا تكررت ايام الحروب بين الاوس والخزرج ، وظل اغلب النصر فيها للخزرج حتى هزموا في حرب بعث التي سبقت هجرة الرسول إلى يثرب بنحو خمس سنين. وقبيل وصوله اليها كان الاوس قد جمعوا كلمتهم برئاسة ابي عامر بن النعمان. بينما اعاد الخزرج تنظيم صفوفهم برئاسة عبد الله بن ابي سلول واعدوه ليكون ملكا على يثرب كلها.

وكما تنافس الاوس والخزرج واليهود خفية وعلانية في يثرب، وتنافست مكة ويثرب في شئون التجارة والاقتصاد وزعامة عرب الحجاز. وكانت اولاهما كما سبق القول عنها تغلب فيها العدنانية، وجذب التربة، وثراء التجارة الخارجية، وحرمة البيت ، بينما غلبت في يثرب الاصول القحطانية الخليفة وخصب التربة وكثرة الانتاج مع النصيب الاقل من التجارة الخارجية (٥٧).

الطائف

تعتبر الطائف قرينه مكة و ارتبطت بها ارتباطا قويا ربما بحكم قربها منها فهي لا تبعد عنها بأكثر من حوالي اثني عشر فرسخا ، و تمتاز الطائف باعتدال هوائها و ارتفاع سطحها و خصوبه تربتها حتى قيل انها بقعة من الشام انتقلت إلى الحجاز ، كما اشتهرت ببساتينها وحدائقها الرائعة التي يزرع بها كثير من الفواكه مما يشابه فواكه الشام ، وهي إلى جانب ذلك طيبة الهواء و بها مياه جارية (٥٨).

اختلفت الاراء في سبب تسميتها بالطائف ف قيل لان قبيلة ثقيف رات ان تبني سورا يكون حصنا لهم واطلقوا عليه الطائف لاطافته بهم ومن ثم عرفت باسم الطائف (٥٩).

^{٥٧} د. عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية ص ٢٠٨

^{٥٨} جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية ص ٥١ .

^{٥٩} البكري : المصدر السابق ج ١ ص ٦٧ و ج ٢ ص ٨٨٦ .

ويذكر البكري قصة طويلة عن سبب تسمية سكانها باسم ثقيف مفادها ان قيساً بن منبه بن بكر بن هوازن لما رحل من وادي القرى إلى هذه البقعة وكانت تسمى " وجا " سال زعيمها عامر العدوانى ان يزوجه فزوجه ابنته ، ومن بعدها ابنته الثانية ، فكثر اولاده وزرع بارضها بعض العيدان التي اخذها من عجوز يهودية ، فلما اثمرت العيدان قال اهل و ج : قاتله الله كيف تقف عامر حتى بلغ منه ما بلغ ؟ وكيف تقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء فسمى ثقيفاً من يومئذ وكثر نسله^(٦٠).

وكانت الطائف المكان الذي حاول رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يلجا إلى اهله حين ضاقت به الامور في مكة ولكنه لم يجد من اهله استجابة على ما سنيين فيما بعد ، ومن الغريب ان الطائف كانت من اهل المعاقلة التي بقيت على اسلامها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان منها بعض ابطال الفتوحات الاسلامية .

ويروى في ابن هشام ان ابرهه الحبشي مر بالطائف فخرج اليه سعود بن مالك في رجال من ثقيف فقالوا له : ايها الملك ، انما نحن سلمعون لك ومطيعون ليس عندنا لكم خلاف وليس بيننا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - انما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم . فبعثوا معه رجلاً يقال له ابو رغال يدلّه على الطريق

^{٦٠} المصدر السابق ج ١ ص ١٧ . جمال سرور : المصدر السابق ص ٥٣ .

إلى مكة. فخرج ابرهه ومعه ابو رغال حتى انزله المغمس ولما انزله به ملت
ابو رغال هناك ، فرجمت العرب قبره (٦١) .

أحوال العرب قبيل الإسلام

القينا نظره على المراكز العمرانية الهامة في الحجاز ، وأن لنا الان
لنقدم صورة لمظاهر حياة السكان في منطقة وسط الجزيرة العربية .

الاحوال السياسية :

نتبين مما سبق دراسته وجود نوع من التنظيم السياسي في اماكن
التجمعات الرئيسية في اقليم الحجاز لكننا نريد التأكد ان ذلك التنظيم لم يكن
قائما على منهج منظم للإدارة كذلك الذي نعرفه في حكومات العصر الحديث
بل لم يكن تماسكيا من سيادة قبيلة اعتمدت على عصبية القبيلة وعلى
تماسكها ووحدتها وقدرتها على الحفاظ على هذه السيادة . ومن هنا كان
الاساس في الحياه السياسيه لعرب قبل الاسلام انما هو العصبية القبلية " حيث
الفت كل قبيلة جماعة مستقلة تمام الاستقلال وانسحب هذا الاستقلال ايضا
على افراد القبيلة فكل فرد منها كان لا يرى في زعامة شيخ القبيلة او سلطته
الا رمزا لفكرة عامة شأنت الظروف ان يأخذ هو منها نصيب ، بل كان
مطلق الحرية في ان يرفض ما اجتمع عليه رأى الاغلبية من ابناء قبيلته ،
وابعد من هذا انه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة رئيس القبيلة ، فكان يختار
لها غالبا اكبر الافراد سنا واكثرهم مالا ، واعظمهم نفوذا ، واجدرهم بكسب
الاحترام الشخصي . واذا ما تضحمت قبيلة ما تشعبت فروعاً كثيرة يتمتع

^{٦١} سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥ .

كلا منها بحياة منفصلة ووجود مستقل . ولا تتحد الا في ظروف غير عادية
اشتركا في الدفاع عن القبيلة او قياما بغارات بالغة الخطورة^(٦٢).

بالرغم من ذلك الاحساس الكبير بالحرية الذي اخذ به الدكتور حسن
ابراهيم الا انه مما لا شك فيه ان شيخ القبيلة قد تمتع بسلطات سياسية واسعة
فهو الذي كان يحق له اعلان الحرب و الدعوة إلى السلام ، كما ان طاعته
بين ابناء قبيلته تعتبر دينا قابل الوفاء به ، كما انهم يستمعون إلى نصيحته ،
ويدافعون عن سمعته التي هي ذات الوقت سمعة القبيلة .

ركن اخر من اركان القبيلة الاساسية يتمثل في شاعرها ، فالشاعر
هو سوط القبيلة ، المعبر عن ارائها ، والمادح لافعالها ، والذاكر لنسبها
وفضلها و تاريخها ، وهو المهاجم لاعدائها ، القاص لمثالبهم و عيوبهم ،
ولعب الشاعر على عصره دورا هاما لا يقل عن الدور الذي يمارسه الان
في الحكومات المعاصرة وزراء الاعلام ، لان مهمته الاساسية الدفاع عن
قومه وقبيلته ومهاجمة وهجاء اعدائها وذكر مثالبهم و عيوبهم .

نقطة هامة اخري في حياة عرب وسط شبه الجزيرة تتمثل في عدم
الاستقرار وذلك بسبب الظروف المناخية و النظم القبلية وتركيبية العربي
الفكرية والاجتماعية ، ومن هنا وقعت مجموعة كبيرة من الحروب بين
بعضهم و البعض الاخر عرفت في التاريخ باسم " ايام العرب " وهي كثيرة
جدا لدرجة يصعب حصرها ، وذكروا ان ابا عبيدة (توفي سنة ٢١١ هـ)

^{٦٢} حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٥٢ .

صنف كتابا افرده لرواية ١٢٠٠ يوما من ايام العرب لم يصل إلينا (٦٣) ، ويخصص ابن الاثير لايام العرب حوالي ١٥٠ صفحة ومع ذلك فانه يذكر " الايام المشهورة و الوقائع المذكورة التي اشتملت على جمع كثير ، و قتال شديد ، ولم اعرج على ذكر غارات تشتمل على النفر اليسير لانه يكثر ويخرج عن الحد " (٦٤).

ولقد اشار اليه بتوسع وباختصار كافة من تعرضوا لتاريخ العرب تقريبا من مؤرخي المسلمين وغيرهم ، وفي العصر الحديث ايضا فما من مؤلف يشير إلى تاريخ العرب قبل الاسلام الا و اشار إلى هذا الموضوع ، وخصص لها الاستاذان محمد ابو الفضل ابراهيم و علي محمد البجاوي كتابا بعنوان " ايام العرب في الجاهلية " (٦٥) وقدمتها الدكتورة سهام ابو زيد في جداول حسب نوعيتها ونوعية القبائل المشتركة فيها (٦٦).

هذا وقد درج المؤلف على تصنيف ايام العرب إلى :

- ١- ايام بين القبائل العدنانية بعضها مع بعض .
- ٢- ايام بين القبائل القحطانية بعضها مع بعض .
- ٣- ايام بين قبائل القحطانيين و قبائل العدنانيين (٦٧).

^{٦٣} السيد علي الزير سالم : الكتاب السابق ذكره ص ٣٧٦ .

^{٦٤} ابن الاثير : الكامل ج ١ ص ٢٩٨ - ٤٢٢ .

^{٦٥} صدر في القاهرة في حدود عام ١٩٤٨ و ارفد بايام العرب في الاسلام ، والقاهرة ١٩٥٠ .

^{٦٦} سهام ابو زيد مصطفى : رسالة الاسلام والعالم القديم الصفحات من ٤٥ إلى ٧٨ .

^{٦٧} المصدر السابق : ص ٤٨ .

وقد سميت هذه الايام باسماء الاماكن التي وقعت فيها او ابرز احداثها او بالقبائل التي اشتركت فيها ، ونشير هنا باختصار عن بعض هذه الايام .

حرب البسوس :

قامت هذه الحرب بين قبيلتي بكر و تغلب ابني وائل بن هنب وهما من القبائل العدنانية، وكان يتزعمها وائل بن ربيعة بن الحارث المعروف بكليب وهو من قبيلة تغلب ، وسبب هذه الحرب ان كليب كان له حمى يرعى فيه ولا يسمح لغيره بالرعى فيه ، وذات يوم وجد ناقة غريبة فقتلها ، وكانت الناقة لخاله جساس بن مرة شقيق زوجة كليب وابن عمه ، وغضب جساس لمقتل ناقة خالته واخذته العزة بالاثم فصمم على الانتقام لها بقتل كليب نفسه، وتحين الفرصة لذلك ونفذ ما اعتزم عليه منتهزا فرصة مكنته من كليب . ثار بنو تغلب وعلى راسهم المهلهل بن ربيعة شقيق كليب ، ولم تفلح المفاوضات في الحصول على ترضية من بنى بكر ، وقامت الحرب بين الطرفين واستمرت حوالي ٤٠ عاما التقوا خلالها في اكثر من معركة وفشلت كل مساعي الصلح بين الفريقين وقتل جساس واسر المهلهل وقتل بعد ذلك ، وفني الحيان من بكر وتغلب مات في اثنائها الشيوخ ، وشاخ الشبان ، وشب الولدان ، وولدت طبقة من الناس لم تكن في الحسبان^(٦٨).

وتجدر الإشارة إلى تلك الحرب بانها تمثل ملحمة رائعة لخلال العرب وسجاياهم فمنها نستشف متانة العلاقات الاسرية ، وقوة صلة القرابة، ومعنى الصداقة ، وكذلك حب القبيلة عامة إلى درجة التضحية بالابن من

^{٦٨} اقرا حرب البسوس تفصيليا عند ابن الاثير ج ١ ص ٣١٢ وما بعدها .

اجل صالح القبيلة عامة ، وليس الامر هنا موضع التحليل الفنى او الادبى لعنصر هذه الماساه التي استمرت إلى ما يقرب من نصف قرن من الزمان ولكن يكفينا تقديم هذه اللحاح السريعة . نقيم البسوس عند ابن اختها جالس وتقتل ناقتها فينتقم لها جساس من قاتل ناقتها نفسه لانه احس بالاهانة والعربى يرفض الضيم .

ان المهلهل عرف بالسكر والعريضة و شرب الخمر لكن ما ان يصله خبر مصرع اخيه حتى يهجر ذلك كله ويهجر النساء والملذات ويكرس حياته من اجل الانتقام لـ اخيه .

اما الموقف الرائع فقد كان للحرث ابن عباد ، وكان قد اعتزل الحرب ولم يشهدا . فلما قتل همام و جساس ابنا مره ، حمل ابنه بجيرا ، إلى المهلهل مع كتاب يقول فيه : " انك قد اسرفت في القتل وادركت ثارك سوى ما قتلت من بنى بكر ، وقد ارسلت ابنى اليك فاما قتلت باخيك واصلحت بين الحيين ، واما اطلقت واصلحت ذات البين فقد مضى من الحيين في هذه الحروب من كان بقاؤه خيرا لنا ولكم " . فلما وقف المهلهل إلى الكتاب اخذ بجير فقتله ، وقال : بؤبشع نعل كليب . فلما سمع ابوه بقتله ظن انه قد قتله باخيه ليصلح بين الحيين ، فقال : نعم القتل قتلا اصلح بين ابنى وائل ، فقيل له : انه قال بؤبشع نعل كليب فغضب عند ذاك الحرث بن عباد وقال :

لقت حرب وائل عن حبال
شاب راسي وانكرتني رجالي

قربا مربوط النعمة من
قربا مربوط النعمة من

فاتوه بفرسه النعامة ولم يكن في زمانها مثلها فركبها ، وولى امر
بكر فشهد حربهم ومن الغريب ان الجرث بن عباد اسر مهلهلا واسمه عدى
وهو لا يعرفه فقال له : دلنى على عدى وانا اخلى عنك . فقال له المهلهل :
عليك عهد الله بذلك ان دلتك عليه ، قال : نعم ، قال : أنا عدى ، فجز
ناصيته وتركه .

حرب داحس والغبراء :

سميت كذلك نسبة إلى فرسين اصيلين يحملان هذا الاسم تسابقا وكن
سباقهما سببا في قيام الحرب بين قبيلتين عبس و ذبيان . ولقد استمرت
الحرب بين القبيلتين حوالى ٤٠ عاما ، وتخللها كثيرا من مواقف الشجاعة
والمرؤه وصاغ فيها العرب اشعارا رائعة مثل اشعار عنتر بن شداد بن ابي
سلمة . وبدأت المشكله عندما كان قيس بن ابي زهير سيد بني عبس يسعى
للحصول على السلاح والمعونه فذهب إلى مكة واشترى خيلا و سلاحا وفى
طريق عودته التجأ إلى حذيفة بن بدر واخيه حمل بن بدر واقام معهما ،
وكان لهذين الرجلين خيلا ليس في العرب مثلها ، وكان حذيفه بالرغم من
اصالة خيوله يحسد قيسا على فرسيه داحس والغبراء .

وسار قيس إلى مكة مرة اخرى لاداء العمرة ، واثناء غيابه حدث
احتكاك بين بعض اهله وحذيفة ترتب عليه ان تراهنا على سباق الخيل ،
وكان السباق بين فرسي قيس داحس والغبراء وفرسي حذيفة الخطار
والحنفاء ، وكان الرهان كبيرا وعاد قيس وخشي مغبة ذلك وقصد حذيفة لفق
الرهن لكنه رفض وكان قد بدا يمل جوار قيس ويرغب في رحيله عنه ولذلك
عمد ايضا إلى تدبير مؤامرة يهدف منها إلى منع داحس من النجاح في
السباق ، وفعلوا استأجر رجلا كمن في طريق السباق حتى اذا اتى داحس

سابقا صده وعطله فجعله ياتي متاخرا ، ولكن فازت الغبراء بالسباق وبعدها
الخطار و الحنفاء و اخيرا داحس .

علم قيس بما حدث وتأكد من ذلك فغضب ولج حذيفه وارسل ابنه
يطلب الرهان على اساس ان فرسيه جاءا متتابعين فرفض قيس وقتل ابن
حذيفه وبدأت الحروب وتمكن حذيفة ابن مالك من زهير اخو قيس فقتله ،
وتداعى الحيان إلى الصلح احيانا وإلى الحرب احيانا اخرى الى ان تمكن
الحارث بن عوف وهرم بن سنان من تحمل ديات القتلى وإيقاف الحرب
بين الحيين^(٦٩)، وانشد زهير بن ابي سلمي معلقته الرائعة التي مطلعها :

امن ام أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتنلم^(٧٠)

ايام الفجار :

هي اربعة ايام و حملت هذا الاسم لانها وقعت في الشهر الحرام
واخرها كان قتال هوازن لقريش ، وشهد رسول الله صلى الله عليه و سلم
قبل بعثته بعض ايامهم ، وكان عمره حين ذاك خمس عشرة سنة او عشرين
سنة ، واخيرا تمكن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من سادات قريش من
اطلاق نداء الصلح بين الفريقين^(٧١).

^{٦٩} ابن الاثير : ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٥٥ .

سهام ابو زيد : رسالة الاسلام ص ٥١ - ٥٥ .

^{٧٠} حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٥٧ .

^{٧١} ابن هشام : السيرة ج ١ ص ١٦٨ - ١٧٠ .

ابن الاثير ص ٣٥٨ - ٣٦٣ .

يوم ذي قار :

نشير إلى هذا اليوم لخصوصيته في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ولأنه يختلف عن أيام العرب التي كان طرفاها من العرب . ويوم ذي قار هو معركة وقعت بين العرب و الفرس ، ولقد سبق ان بينا كيف كان الفرس و الروم حماة للقبائل العربية من لخم و غسان وسادة لهم وذات يوم غضب كسري على النعمان بن المنذر ملك الحيرة بسبب رفضه ارسال نساء من العرب إلى كسري وعمل على التخلص منه ، وارسل اليه يستدعيه إلى المدائن ، وتوجس النعمان شرا ، ولهذا اودع دروعه وسلاحه ونساءه عند هاني بن مسعود الشيباني ، وتوجه إلى كسري فقتله وولى الحيرة اياس بن قبيصة وطالبه بالحصول على اموال النعمان ، ورفض هاني بن مسعود ذلك، فارسل اليه كسري بجيش قوي فيه اهل الحيرة ، واجتمعت ربيعة ومعها قبائل العرب عند ماء يقال له " ذي قار " وفي ذلك اليوم حميت النخوة العربية ، وحاربوا بشجاعة ، وانضم اليهم عرب الحيرة الذين اوقعوا الهزيمة في صفوف الفرس بهربهم ، وسقط الفرس بين قتيل واسير وهزموا هزيمة منكرة لأول مرة في تاريخهم ، وكان ذلك اليوم اول يوم تتحد فية القبائل العربية تحت شعار جنسهم العربي ، وعلق الرسول عليه السلام على ذلك بقوله " هذا اول يوم انتصف العرب من العجم وبني نصرورا " (٧٢).

احوال العرب الاجتماعية :

اذا كانت القبيلة هي وحدة الحياة الاساسية في المجال السياسي عند العرب فهي كذلك في المجال الاجتماعي ، وتشكلت القبيلة اساسا من

^{٧٢} ابن الاثير : ج ١ ص ٢٨٥ - ٢٩١ ، اليعقوبي ص ١٧٥ - ١٧٦ والطبري ج ٢ ص

١٩٣ - ٢١٢ .

جمهورها الصرحاء ، اى ابناءؤها غير المخلطين والذين يرتبطون فيما بينهم
برابطة الدم ، ويسعون بالحفاظ على سمعة القبيلة و يدافعون عنها ويتعصبون
لها .

والى جانب الصرحاء ضمت القبيلة طبقة الموالى وتضم الحلفاء
والعتقاء ولهذه المجموعة نفس حقوق المجموعة الاولى وعليها واجباتها اما
الرقيق الذين يشترون من الاسواق و يجلبون عن طريق الاسر في الحروب،
فلا يتمتعون بحقوق كثيره و اتقل كاهلهم بالواجبات و عهد اليها بالاعمال
التي انف العرب من القيام بها .

الاسره هي بيت العربي و ملاذه ، ولقد عرف العربي بحبه لاسرته
وحمايته لها و تعبها في سبيلها ، واذا كان العربي متعلقا بقبيلته فهو باسره
اكثر، واذا كان وفيا بقبيلته فهو لاسرته اوفى .

ولقد قامت الاسره قبل الاسلام على الزواج ، وان وجدت عدة انواع
من الزواج حرمها الاسلام فيما بعد الا زواج البعولة او الصداق هو الذي
اقره و ابقى عليه ، ومن انواع الانكحة التي حرمها الاسلام وكانت سائدة
في الجاهلية مايلى :

١- نكاح الاستبضاع :

وهو ان يسمح الرجل لزوجته بمجامعة رجل مشهور ويعتزلها حتى
يتبين حملها منه ، وينسب المولود إلى الزوج الاصلى ، وكان يقصد بذلك -
في زعمهم - الحصول على نجابة الولد .

٢- نكاح الرهط :

وهو أن يجتمع رهط ما دون العشرة فيصيبون أمراه ، فإذا حملت انتظرت حتى تضع مولدها ثم ترسل إليهم فتجمعهم في بيتها و تخبرهم بمن سوف تنسب طفلها من بينهم ، ولا يستطيع أن يمتنع عن قبول ذلك وخاصة أن كان المولود ذكرا .

٣- نكاح المقت :

كان الرجل منهم إذا مات عن أمراه أو طلقها قام اكبر بنيه من غيرها فان كان له فيها حاجة طرح ثوبه عليها ، وان لم يكن له فيها حاجة تزوجها بعض اخوته بمهر جديد .

والى جانب هذه الانواع كان هناك زواج المبادلة و نكاح المتعة . وعرفت الاسره فيما قبل الاسلام تعدد الزوجات والطلاق الذي كان بيد الرجل في معظم الاحيان وبيد المراه في بعض الاحيان (٧٣).

^{٧٣} اعتمدت في ذلك على كتابات د. عبد الفتاح على شحاته : دراسات في تاريخ العرب وصدر الاسلام ص ١١٣ - ١٢٠ وانظر ايضا عبد العزيز سالم - تاريخ العرب ص ٣٩٤ .

ومن البديهي في هذا المجتمع القبلي البدوي ان يتمتع الرجل بسلطات اكثر من النساء ، ولكن ذلك لايعنى - كما يدعى كثيرون وخاصة المستشرقون - ضياع حقوق النساء تماما ، ولدينا من احداث تاريخ العرب قبل الاسلام ما يدل على مكانه عالية للمراه ، ولولا الخشية من الاطاله لاوردنا كثيرا من الامثلة^(٧٤).

عرف عن العرب حبهم لابنائهم ورعايتهم لهم ، وخاصة البنين وكانوا يربونهم على النخوة و الشجاعة وكيفية مواجهة متطلبات الحياة على عصرهم . وهنا يجب ان نشير إلى نقطة هامة اتسمت بها حياة العربي في الجاهلية قبيل الاسلام . وتتناقض مع قولنا بان العربي محب لابنائهم وهذه النقطة هي واد البنات ، التي اشار اليه القران الكريم ونود التاكيد بناء على كل كتابات المتخصصين والباحثين ، ان هذه الظاهره لم تكن عامه والا لانقرض الجنس العربي خلال حقبه معينه ، وانما وجدت هذه السوءه عند بعض الناس في بعض القبائل العربيه . و انها كانت في طريقها إلى الانقراض حتى جاء الاسلام فقتضي عليها نهائيا^(٧٥). واسباب واد البنات متعدد ، منها اقتصادي وهو خشية الفقر و منها ما يتعلق بغيره العربي على نسائه وبناته وخشية من وقوعهن في ايدي الاعداء ومنها ما هو خلقى كان تكون المأوودة مشوهة لو وقعت موقعا غير حسن من والدها^(٧٦)، وجاء

^{٧٤} من يرغب في الاطلاع على جزء من مكانة المراه العربيه في التاريخ فليقرأ كتاب عبد الله عفيفي " المراه العربيه في جاهليتها و اسلامها " ٣ أجزاء وكتاب الدكتور عبد العزيز سالم ، السابق الاشارة اليه من ص ٣٩٤ وما بعدها .

^{٧٥} عبد الفتاح شحاتة : المصدر السابق ص ١٠٩ - ١١٢ .

المولودة مشوهة لو وقعت موقعا غير حسن من والدها^(٧٦)، وجاء الاسلام فحرم ذلك تحريما قطعيا في اكثر من ايه من آيات القرآن^(٧٧).

ومن حضارة العربي الاجتماعية حبه للحريه و ميله للكرم ومحبتة للانطلاق والشهامة والرجولة والوفاء بالوعد والنجدة والى جانب هذه الصفات الحسنة ومكارم الاخلاق نجد ان للعربي صفات اخرى هذبها الاسلام وحاربها وعمل على القضاء عليها ما امكن ومنها التمسك بالثار والقتال لاتفة الاسباب ، وشرب الخمر ، وواد البنات ، ولعب الميسر .

الحياة الاقتصادية :

قامت الحياة الاقتصادية في وسط شبه الجزيرة العربية على عاملين اساسيين هما الرعى و التجارة بالإضافة إلى الزراعة في بعض المناطق التي غزرت بها المياه اما الصناعات فكانت يدوية و قليلة .

كان المناخ و قلة الامطار سببا في ندرة الغطاء النباتي ، ومن هنا احترف العرب الرعى ، وقاموا بتربية الحيوانات التي لايتطلب وجودها كميات وافرة من الماء او الخضراوات مثل الاغنام والماعز ، واهتموا بتربية

^{٧٦} انظر عبد العزيز سالم : المصدر المشار اليه الصفحات من ٣٩٤ - ٤٠٢ ، وعبد الفتاح شحاته في كتابه المشار اليه ص ١٠٨ - ١١١ .

^{٧٧} يقول الله تعالى في كتابه الكريم في سورة التكوير " واذا المؤودة سئلت باي ذنب قتلت " (الايتان ٩٠،٨) ، ويقول في سورة الاسراء : " ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطنا كبيرا " (الاية ٣١) ويقول في سورة الانعام : " قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلّسوا وما كانوا مهتدين " (الاية ١٤٠) .

الجمال على اساس انها اقدر الحيوانات على السير على الرمال وتحمل جو هذه المناطق القانظ ، اما الخيل فكان اهتمام العرب بها اهتماماً بالغاً وذلك لاستخدامها في القتال والسباق والتقل . وكذلك اشتهر العرب في الجاهلية بالتجارة حتى قيل " ان كل عربي تاجر " .

وكانت شبة الجزيرة تمثل بحراً واسعاً تخترقه قوافل الابل وكانت تتبع المسالك المعروفة حيث يتوافر الماء ، وكان هناك طريقان رئيسين للقوافل احدهما من الشمال إلى الجنوب غير بعيد عن البحر الاحمر وهو في الشمال يتفرع إلى الشرق تجاه سوريا . وإلى الجنوب الغربي تجاه فلسطين ومصر وهو في الجنوب يسير شوطاً مع ساحل حضرموت .

اما الطريق الثاني فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الاحمر إلى الخليج الشرقي ماراً بمكة . ويتفرع في قلب الجزيرة فرعين احدهما يتجه إلى الشمال الشرقي فيصل شط العرب ويتجه الآخر إلى الجنوب الشرقي ويسير هذا مع الخليج العربي ماراً بدبي ومسقط وظفار (٧٨).

هذا وقد تعود اهل مكة على القيام برحلتين تجاريتين سنوياً احدهما صيفاً وتتجه إلى شمال بلاد الشام والآخرى شتاءً وتتجه جنوباً إلى بلاد اليمن وحدثنا القران الكريم عن هاتين الرحلتين (٧٩) .

^{٧٨} احمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ص ١٢٤ .

^{٧٩} سورة قريش

علاوة على ذلك شهدت شبه الجزيرة عدة أسواق مشهورة كان العرب يجتمعون فيها للتجارة مثل سوق عدن والذي كان يقام في اول يوم في رمضان ومنها يحمل الطيب إلى سائر الافاق ثم سوق صنعاء في النصف من شهر رمضان ، ثم سوق عكاظ باعلى نجد في ذى القعدة ثم سوق ذى المجاز، ولقد احصاها اليعقوبي عشرة اسواق و بين اهمية كل منها وتاريخه^(٨٠).

الاحوال الفكرية :

مثل الشعر أكثر جوانب الحياة الفكرية عند العرب اشراقا ، ولقد ساعد على ذلك طبيعة بلاد العرب الفسيحة والتي منحت الخيال العربي انطلاقا لامثيل له إلى جانب الصراع القبلي الذي كان عاملا حاسما في شحذ قرائح الشعراء لكي يمدحوا ويهجوا ، واتسعت مجالات قول الشعر إلى جانب ذلك فكان هناك الوصف والفخر والرثاء ووصف الاطلال إلى جانب اشعار الحب .

وشهدت ارض الجزيرة ايضا مجالات فكرية عملية مثل صناعة الطب والتي انتقلت اليها بتاثير الفرس والرومان حيث نقل اطباء العرب قبل الاسلام وعلى راسهم الحارث بن كلدة هذه العلوم^(٨١) .

ولعبت الاسواق العربية دورها في اذكاء الحركة الفكرية عند العرب ولست ابالغ اذا وصلنا إلى القول بان الحياة الفكرية قد وصلت إلى قبيل

^{٨٠} اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

^{٨١} محمود دياب : الطب والاطباء ص ٦ .

الاسلام إلى درجة من الرقي كافيه لان تتقبل الديانة الاسلامية وتتفهمها ،
وليس من شك ان القرآن كنص معجز سواء من ناحية البناء اللغوي او بلاغة
التعبير يشهد بان العقلية العربية التي استطاعت ان تتذوقه ، وان تفهم الفرق
بينه وبين ما ينظمون من اشعار او اقوال ، قد وصلت إلى درجة طبيعية من
الرقي الفكرى والنضوج العقلى .

الاحوال الدينية :

ليس من هدفنا هنا دراسة اديان العرب القديمة البائدة والتي اشار
القران إلى الانبياء الذين ارسلوا لاصلاحها و هدايتها ، كما انه ليس مطلوباً
الان دراسة اديان الحنيفية التي بشر بها نبي الله ابراهيم عليه السلام ومدي
انتشارها بين العرب .

وسنركز الحديث على العبادات التي كانت سائدة قبيل الاسلام حيث
نجد ان الغالبية العظمى من عرب شبه الجزيرة العربية كانوا يعبدون
الاصنام ويكاد المؤرخون العرب على ان عمر بن لحي هو الذي بدا عبادة
الاصنام بين العرب ، فيقال انه كان قد خرج إلى ارض الشام في بعض
اموره فلما قدم مآب من ارض البلقاء ، راهم يعبدون الاصنام فقال لهم : ما
هذه الاصنام التي اراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه اصنام نعبدها فنستمطرها
فتمطرنا ونستبصرها فتبصرنا . قال لهم : الا تعطوني منها صنما فاسير به
إلى ارض العرب فيعبدونه ، فاعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه
وامر الناس بعبادته و تعظيمه^(٨٢).

^{٨٢} ابن كثير : البداية و النهاية ج ١ ص ١٨٧ - ١٨٨ ، ابن هشام ج ١ ص ٧٢ .

ويعطى ابن إسحاق تفسيراً آخر لعبادة العرب الأصنام فيقول :
ويزعمون ان اول ما كانت عبادة الأصنام عبادة الحجارة في بني اسماعيل
انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح
في البلاد ، الا حمل لهم حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزل
وضعوه فطافوا بهم طوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى ما كانوا يعبدون
ما استحسنوا من الحجارة واعجبهم ، حتى خلف الخلف ونسوا ما كانوا
عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الاوثان ، وصاروا
إلى ما كانت عليه الامم قبلهم من الضلالات^(٨٣).

وكانت اصنام العرب في الجاهلية على اشكال متنوعة فمنها ما كان
على صورة الانسان، ومنها ما كان على صورة الحيوان ، والاصنام تصنع
من مواد مختلفة ، فبعضها يصنع من الخشب ، وبعضها من الحجارة ،
وبعضها الاخر من مواد شتى ، وقد يكون الصنم من مواد طبيعية عبدها عن
اجداده^(٨٤).

واشهر أصنام العرب . ود الذي كانت تعبده قريش وسواك الذي
كانت تعبده هذيل ويغوث في بلاد مذحج وهوازن .

والى جانب الأصنام عبد العرب بعض مظاهر الطبيعة واعتقدوا في
السحر والكهانة .

^{٨٣} ابن هشام ج ١ ص ٧٢ .

^{٨٤} عبد العزيز سالم : المصدر المذكور ص ٤١٣ .

اما الديانتان اليهودية والمسيحية فقد وجدتتا مراكز لهما في جنوب وشمال الجزيرة وتسربتتا إلى الداخل دون ان ينتشرا بين العرب وكلن اثرها في غرب شبه الجزيرة يتمثل في اثاره الجدل حول ماهية الأصنام وحقيقتها ، مما دفع بعض العرب إلى الشك في عبادتها والعودة إلى دين ابراهيم الخليل عليه السلام ، وعرف هؤلاء النفر بالحنفاء .

كانت هذه الظروف التي وجدت في شبه الجزيرة العربية قبيل الاسلام وهي الفترة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لكي يمنح الارض سلامة واسلامه ودينه الجديد .

نصوص للقراءة

من كتاب (الأوائل) لأبي هلال العسكري المتوفى في حدود ٣٥٩ هـ

أول ما تحرك أمر قريش

واخذ شأنهم يرتفع وذكرهم ينتشر حين قدم قصي مكة عند أمه فاطمة بنت سعد بن شبل الأزدي أزد شنوءه وكان كلاب أبو قصي تزوجها فولدت له زيدا (وهو قصي) وزهرة ثم هلك كلاب وزهرة قد شب وزيد صغير فقدم ربيعة بن خزام العذري مكة فتزوج فاطمة وحملها إلى قومه وحمل زيدا لصغره فولدت فاطمة لربيعة رزاحا وشب زيد فسمته قصيا لبعد داره - والقصو البعد - فنازع رجلا من عذرة فقال له العذري الحق بقومك فسالت منا فأتى أمه فسألها عن قومه فأخبرته بما كان من أمرها وأمره فشخص مع الحجاج إلى مكة فلم يلبث ان اجتمع مع أبي غبشان سليم بن عمرو الخزاعي على شراب فلما سكر أبو غبشان اشترى منه قصي ولاية البيت بزق خمر وعود فقيل اخسر من أبي غبشان واحق من أبي غبشان واندم من أبي غبشان فجرت أمثالا . قال بعضهم :

بزق خمر فبئست صفقة البادي
عن المقام وظل البيت و النادي

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت

وقال آخر :

بزق خمر فلا فازوا ولا ربحوا

باعت خزاعة بيت الله صاحبه

فتحزبت خزاعة على قصي فاستتصر أخاه من أمه رزاحا فاقبل بمن
معه وجمع قصي كنانة فنفوا خزاعة عن مكة وجمع قريش من رؤوس
الجبال وشعابها فانزلهم الابطح فسمى مجمعا قال مطرود :

قصي أبوكم كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر

ففتش قصي عن اجله قومه فسمى قريش والتقريش التفتيش قال
الحرث بن حلزة :

أيها المبلغ المقرش عنا عند عمرو وهل لذاك بقاء

وقيل كان قريش اسما للنضر بن كنانة واشتقاق من التقرش وهو
التكسب وكانت قريش تجارا ، وقيل التقرش التجمع ، وكانت صوفة تجيز
الناس من عرفة إلى جمع ومن جمع إلى منى ، فإذا رمى الناس الجمار
أخذت ناحية العقبة ، فيقولون أجيزي صوفة ، فلا يجوز أحد حتى تجوز
صوفة ، وكانوا يرون ذلك دينا ، فاعترضهم قصي بمن معه وانهزمت
صوفة وخلت مكة والمواسم لقصى فكان أول من نال الملك من ولد النضر
بن كنانة فقال رزاح بن ربيعة :

جلبنا الخيل مضمرة تعادى	من الأعراف أعراف الجناب
إلى غوري تهامة قادرينا	بنى الذفراء في قاع بباب
وقام بنو على إذ رأونا	على الأسياف كالإبل الظراب
فأما صوفة الخنثى فخلوا	منزلهم محاذرة الضراب

فلما استوى أمر مكة لقصى بنى دار الندوة فكانت قريش تقضى فيها
أمرها فلا تتكح ولا تشاور في أمر ولا حرب إلا فيها وهى دار الإمارة ،
وبابها في المسجد حيال الكعبة .

ثم قال لقريش انتم جيران الله والحجاج زوار الله فهم اضيافه و أحق
الاضياف بالكرامة اضيافه فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج ، ففرض
عليهم فرضا يدفعونه إليه ، فيصرفه في إقامة الحجاج فجرى ذلك إلى اليوم
إلا أن الخلفاء هم الذين يقيمونها .

وكان قصي في زمن بهرام جور وهو بهرام بن يزدجرد وقصى أول
من احتقر بالابطح سقاية للحجاج وسماها العجول وقال :

سقى الله العجول برغم عاد وكانت من زيادته العجولا

فلم يزل يشرب منها حتى سقط فيها رجل من بنى جعيل فعطلت
وكانت زمزم زمن جرهم وهو أول من ثرد الثرد بعد إبراهيم عليه السلام
وعاب بعض الشعوبية العرب باتخاذ الثريد وقال : لابد أن يفضل من العرب
إذا أكلوا فضلة مرق تجعل لمسكين قال : فأرادت العرب إلا يبطل عليهم ذلك
فثردوا فيه قال : وليس من طعام العجم . واحتج بما اخبرنا به أبو احمد بن
الحسين بن عبد الله بن سعيد عن الجلودى عن محمد بن ذكرى عن محمد بن
عبيد الله بن محمد بن على قال : قال حصين لفيروز احب ان أتغذى عندك
قال فما تشتهى قال ثريدا قال إني اكره أن أضع على مائدتي طعام الكلاب
ولكنى أتحمل ذلك لك .

قال أبو هلال أيده الله تعالى : لو كان الثريد طاعما خبيثا مكروها
لكان ما يقال فيه شائعا ، فأما وهو طعام مشتهى طيب فلا اعتراض على
العرب في اتخاذ طعام طيب وليس ترك العجم إياه قدحا فيه فكم من شئ
مختار قد تركته العجم غفلة عنه أو جهلا به ، وليس ثردهم في المرق يدل
على انهم أرادوا منع ما يفضل منه .

أول من اخذ الأيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف :

والإيلاف كتاب أمان يؤمنهم بغير حلف . فأما الولاة فتدارك لمعان
البرق ولا يكاد يخلف . والالاق بالقاف إن يلمع لمعة بعد لمعة وربما اخلف
أخبرنا غير واحد عن ابن دريد وغيره عن أبي حاتم العبثي ومحمد بن سلام
قال : كانت قريش تجارا وكانت تجارتهم لا تعدو مكة وما حولها فخرج
هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر وكان يذبح كل يوم شاة ويصنع
جنفة ثريد ويدعو من حوله . وكان من أتم الناس واجملهم فذكروا ذلك
لقيصر فاحضره فلما رآه استجهره وكلمه فلما رأى مكانه عنده قال : أيها
الملك إن قومي تجار العرب فان رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمنهم فيقدمون
عليك بما تستخلف من أمتعة الحجاز فيكون اخص لكم ، فكتب كتاب أمان
لمن يخرج منهم فخرج هاشم به فكلما مر بحي من العرب اخذ من أشراقهم
الأمان حتى قدم مكة فاتاهم بأعظم شئ أوتوا به قط بركة . فخرجوا بتجارة
عظيمة وخرج معهم هاشم يجوزهم ويوفيههم إيلافهم حتى ورد بهم الشام وفي
ذلك يقول القائل :

تحمل هاشم ما ضاق عنه . وأعيان يقوم به ابن فيض

ثم خرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فليأخذ من ملوكهم عهدا لمن اتجر إليهم من قريش وكان اكبر ولد أبيه ويسمى الفيض وهلك بردفان من اليمن . وخرج عبد شمس بن مناف إلى ملك الحبشة واخذ لهم ايلافا ثم ورد مكة وهلك بها وقبره بالحجون ، وخرج نوفل بن عبد مناف وكان اصغر ولد أبيه فاخذ لهم عهدا من كسرى ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسلام فانتسعت قريش في التجارة وكثرت أموالها فبنو عبد مناف اعظم قريش بركة في الجاهلية والإسلام وفيهم يقول الشاعر :

كانت قريش بيضة فتقلقت فالمح خالصه لعبد مناف

وكان هاشم يسمى أبا فضلة ، واسمه عمرو وروى بعض الشيوخ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال خرجت وجماعة من قريش إلى العراق في تجارة فلما دنونا من الأرياف خرج قوم فقطعوا علينا فدخلنا المدائن مخفيين قال : فكنت أطوف بها اطلب رجلا يفهم عنى ما أقول فاسترشدته في امرنا فلا أجد حتى مررت بصائع سقطت مطرقة فقال بسم الله أخذها فدنوت منه فذكر انه نصراني من أهل الحيرة فشكوت إليه ما لقينا فقال سر إلى باب الملك فان المتظلم لا يمنع منه فلما أدخلت إليه وذكرت امرنا دفع لي ألف درهم وأخرجت فعدت في اليوم التالي فتكلمت فدفع إلى ألف درهم أخرى وأخرجت وكذلك في اليوم الثالث فلما أمرت بالخروج وقد دفع إلى ألفا أخرى اومات إليه إنني لم احضر لطمع فعلم ان الترجمان يخون ويؤدى خلاف ما أورد عليه فاحضر ترجمانا آخر فادى ما قلت فقال : لا تبرحوا البلد فلم نلبث إلا قليلا حتى أدخلنا إليه فإذا اللصوص والترجمان مكتوفون بين يديه أمتعتنا موضوعة فقيلا لنا منها قلنا مقرة فطالبهم بها فقالوا لا نعرف لها موضعا ونعوضهم عنها مقرة فضه ثم اشترى منا

تجارتنا بربح وافر فذكرت ما أعطيت في الأيام الثلاثة فقبل هي لك لا يسترد ما أعطيناه و أقمنا حتى أصلحنا أمورنا وخرجنا فإذا اللصوص والترجمان مصلوبون في المكان الذي قطعوا علينا فيه .

أول من سن الدية مائلة من الإبل عبد المطلب :

اخبرنا جماعة من مشايخنا قالوا : لقي عبد المطلب من قريش أذى كثيرا حين أقام سقاية زمزم وحسدوه حسدا شديدا لانصراف الناس إليها عن غيرها لمكانها من المسجد الحرام ولأنها بئر إسماعيل عليه السلام فنذر لئن ولد له عشرة نفر بلغوا معه حتى يمنعوه ليزبحن أحدهم الله عند الكعبة فلما توافى بنوه عشرة جمعهم ثم اخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله به فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل منكم قدحا وليكتب عليه اسمه ثم ليأتني به ففعلوا فدخل بهم على هبل وكان اعظم أصنام قريش يضربون عنده بقداحهم لحوائجهم فقال عبد المطلب للسادن : اضرب على بنى هؤلاء بأقداحهم ودخل الكعبة فقام يدعو الله فضرب عليهم القدح على عبد الله وكان احب ولده إليه وكان هو وأبو طالب لفاطمة بتي عمرو ابن عابد المخزومي فاخذ عبد المطلب بيده واخذ الشفرة ثم اقبل به إلى آساف ونائلة وهما وثنا قريش اللذان تتحر عندهما ذبائحهم ليزبحه فقامت إليه قريش فقالوا : لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا ولو كان فداه أموالنا افدينا وانطلق إلى الحجاز فان فيه عرافة فاستخراها فانطلق حتى قدم عليها فقالت : كم الدية فيكم ؟ قال : عشو من الإبل قالت : فارجع إلى بلادك ثم قرب صاحبك وعشرا من الإبل واضربن عليه وعليها بالقداح فان خرجت عليه فزده عشرا من الإبل حتى يرضى ربك فان خرجت على الإبل فانحرها عنه فقد رضى ربك ونجى ولدك فخرج حتى أتى مكة ثم قرب عبد الله وعشرا من الإبل وضرب

فخرجت القداح على عبد الله فزاد عشرا فما زال يزيد حتى بلغت الإبل مائة فخرجت القداح على الإبل فقالت قريش : قد انتهى رضى ربك فقال : والله ما انتصفت ربي خرجت على عبد الله تسع مرات فلم اذبحه وخرجت على الإبل مرة فاذبحها لا والله حتى اضرب عليها ثلاث مرات فضربوا فخرجت القداح على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصد عنها بئس ولا سبع وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خمس سنين من هذه القصة .

أول من سن الدية كذلك النضر بن كنانة :

وذلك انه قتل أخاه فوداه مائة من الإبل فجرت سنة .

وقال أبو اليقظان : أول من سنها كذلك أبو سيارة العدوانى وهو الذي كان يفيض بالناس من المزدلفة إلى منى على حمار اسود أربعين سنة فقالت العرب : اصح من عير أبي سيارة فجرت مثلا قال وكان من دعائه الهم حبيب بين نساءنا وبغض بين رعاتنا واجعل المال في سمحائنا وكان خالد بن صفوان والفضل الرقاش يختاران ركوب الحمير ويجعلان أبا سيارة قدوة فيه . قال بعضهم لخالد وهو على حمار ما هذا الركب ؟ قال : عير من نسل الكداذ أضرم السربال مقتول الاجلاد محملح القوائم يحمل الرحلة ويبلغ العقبة ويقل دأؤه ويخف دواؤه ويمنعني أن أكون جبارا في الأرض أو أكون من المفسدين ولولا ما في الحمار من المنفعة ما امتطى أبو سيارة ظهر عير أربعين سنة .

أول من خضب بالوسمة من قريش عبد المطلب :

حدثنا الشيخ أبو احمد قال حدثنا محمد بن يحيى عن الفضل بن
الحباب عن الرياش عن العتبي قال وفد عبد المطلب على بعض ملوك اليمن
فرآه قد شاب فأمر له بخضاب اسود فاختضب بها فلما رآه عبد المطلب حسنا
قال :

قلو دام لي هذا الشباب حمدته وكان بديلا من حبيب قد انصرم
تمتعت منه والحياة قصيرة ولا بد من موت يليه أو هرم

أول ما عظم أمر قريش آل الله وقرابينه :

حين هزم الله جيش الفيل وكان من أول حديثهم أن تبعا دخل في
اليهودية في أيام قباذ وكان لدوس رجل من يهود نجران ضيعة يخرج بنوه
إليها ليلا فيجرون فيها من الماء أكثر مما يخصصها فاجتمعت نصارى نجران
فقتلوهم وطلبوا أباهم دوسا فأعجزهم فقالوا له أقبل فقال : لا يقبل المرء على
الموت فذهبت مثلا فقالوا : إلى أين عن لهوك وغنائك ؟ فقال الأحياء يعون .
فسار حتى دخل على ذي نواس وكان تهود فشكى إليه ما أصيب به فخرج
إلى أهل نجران فحاصرهم ثم عاهدهم فلما تمكن منهم أوقع بهم وهم مفترون
فلم ينج منهم إلا الشريد ، فلحق بعضهم بالنجاشي ومعه الإنجيل قد احرق
أكثره فلما رآه ساءه فكاتب ملك الروم بذلك واستدعى من جهته سفنا يحمل
فيها الرجال إلى اليمن وبلغ ذلك ذانواس فصنع مفاتيح كثيرة فلما دنا منه
جيش الحبشة أرسل إليهم بها ، وقال هذه مفاتيح خزائن اليمن فخذوا المال
والأرض ، وأنا طوع لكم فاطمأنوا وتفرقوا في المخاليف يجوبون فأرسل ذو
نواس إلى المقابلة إذا كان يوم كذا فاذبحوا كل ثور اسود فيكم فعلموا الذي
أراد فقتلوهم فلم يبق منهم إلا القليل وبلغ النجاشي ذلك فجهز إليهم سبعين ألفا

عليهم ابرهه ومولى بن حزام وامرهم إلا يقبلوا صلحا فعلم ذو نواس انه لا قبله بذلك.

ومن أوائل أفعالهم حلف الفضول

اخبرنا أبو احمد قال اخبرنا أبو عمر القاضي قال حدثنا عبد الله ابن شبيب عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن عروة عن حكيم ابن حزام وأخبرناه عن الطوس عن الزبير بن بكار عن رجل عن محمد بن حسن عن محمد بن فضالة عن هشام بن عروة عن عائشة وأخبرناه عن أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم عن أبي عبيدة يزيد بعضهم على بعض فجعلت أحاديثهم حديثا واحد ان رجلا من بنى زبيد من مذحج قدم مكة بسلعة فباعها من العاص بن وائل وكان شريفا فظلمه ثمنها وابت الأحناف عبد الدار ومخزوم وجمع ان يعينوه عليه فاوصى الزبيدي على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقرش حول الكعبة فصاح بأعلى صوته

يا آل فهر لمظلوم بضاعته	بيطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم شعت لم يقض عمرته	يا للرجال وبين الحجر والحجر
هل مخفر من بنى سهم لحضرته	فعاذل أم ضلال آل معتمر
ان الحرام لمن تمت حرامته	ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقال الزبير بن عبد المطلب ما لهذا مترق فاجتمعت زهرة وتيم وأسد في دار عبد الله بن جدعان وصنع لهم طعاما فتحالفوا ليكونن يدا على الظالم للمظلوم حتى يردوا حقه إليه وعلى الناسى في المعاش فقالت قرش قد دخل

هؤلاء في فضل من الأمر ثم اتو العاص بن وائل فانتزعوا سلعة الزبيدي من يده فدفعوها إليه وقال الزبير وكان صاحب هذا الحلف :

ان الفضول تحالفوا وتعاهدوا ألا يبيت ببطن مكة ظالم

وورد رجل من خثعم ومعه بنت له يقال لها القتول من احسن الناس وجها فعلقها نبيه بن الحجاج وغلب عليها أبويها فأتي أبوها حلف الفضول فحالوا بينها وبينه قال نبيه اتركوها عندي الليلة فقالوا ما اجهلك ولا شخب ناقة فقال نبيه :

والخوف من عدوانها	لولا الفضول وحلفها
ولطفت حول خبائها	لدنوت من أبياتها
وانمت في أحشائها	وشربت فضلة ريقها

وقال :

لم أودعهم وداعا جميلا	راح صحبي ولم أحي القتولا
قد أراني ولا أخاف الفضولا	إذا بدا للفضول ان يمنعوها

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد شهدت مع عمومتي في دار ابن جدعان من حلف الفضول ما لو دعيت عليه اليوم لأجبت وما احب ان سينقضي ولي حمر النعم . ثم كان بين الحسين عليه السلام وبين معاوية كلام في ارض الحسين فقال الحسين لابن الزبير خيره في ثلاثة وأربعة الصلح : ان يجعلك أو ابن عمر بيني وبينه ، أو يقر بحقي ثم يسألني ان أهبه له ، أو يشتريه مني فان أبي فوالذي نفسي بيده لا هتفن عليه بحلف الفضول فقال ابن الزبير : والله لئن فعلت وانا قاعد لا قومن أو قائم لا مشين أو ماش لا شتدن

حتى تفنى روعي مع روحك ثم خيره بين ابن الزبير أو ابن عمر فقال معاوية لأحاجة لنا في الصلح واشتراها منه هكذا رواه لنا أبو احمد عن الطوسي بإسناده الذي تقدم ورواه لنا أيضا في كتاب أمر المدينة ان هذه القصة كانت للحسين مع الوليد بن عقبة بن أبي سفيان وهو يلي المدينة

أول من أهدي البدن إلى البيت اليأس بن مضر :

وهو أول من وضع الركن بعد ذهابه في الطوفان وقال بعض المفسرين إياه عنى الله تعالى في قوله " سلام على آل ياسين " يعني اليأس بن مضر وأهل دينه جميعهم " بالواو والنون " كان كل واحد منهم اليأس وقال بعضهم اليأس والياسين بمعنى واحد كما تقول ميكال و ميكائيل و نرى على آل ياسين يعني محمدا صلى الله عليه وسلم .

أول من غير الحنيفية وبحر البحيرة و سيب السائبة وجعل الوصيعة والحام عمرو بن لحي :

وهو عمر بن ربيعة أبو خزاعة وهو أول من ولى البيت منهم ثم رحل إلى قومه بالشام و رأى الأصنام تعبد فأعجبته عبادتها و قدم مكة بهبل ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنيفة فاجابه الجمهور واكثره من لم يجرسه حتى استمر له ما أراد منه وقال النبي صلى الله عليه وسلم اطلعت في النار فرأيت عمرو بن لحي يجر قصبه فيها - والقصب المعا - وكان الأصل في عبادة الأوثان لن من الأوائل اعتقدوا ان الكواكب تفعل أفعالا تجرى في النفع والضرر مجرى أفعال الآلهة على حسب ما يعتقد به بعض أهل التنجيم فاتخذوا عبادتها ديناً وأراد ماوكلهم ورؤساؤهم توكيده في أنفسهم والزيادة فيه عندهم وذلك ان الملك يحتاج إلى الدين كحاجته إلى الرجال والمال لان الملك لا يثبت إلا بالتبعية والتبعة لا تكون إلا بالأيمان والأيمان لا

يكون إلا لأهل الأديان إذ لا يصح ان يحلف الرجل إلا بدينه ومعبوده ومن لا يعتقد معبودا لا يوثق بيمينه ولا يطمأن إلى عهده وعقده إلى غير ذلك مما يتعلق من أمر الملك بالدين فصنعوا لهم الأصنام على صور الكواكب التي يعبدونها بزعمهم ليشاهدوها من قرب فتحلوا في نفوسهم وتزكوا محبتها في قلوبهم ثم انتشر ذلك في أكثر الأرض وعم جل الأقاليم وسمعت المشايخ يذكرون ان بعض المراكب أخطأ السميت في بعض البحار حتى انتهى أهلها إلى جزيرة وإذا فيها ناس لم يعرفوا قط ان في الأرض ناسا غيرهم وعرف بدلائل المكان ان أحدا منا لم يخلص إليهم قط وإذا هم يعبدون الأصنام ووقفوا من جهتهم بالإشارة إلى ان السبب الذي دعاهم إلى عبادتها هو الذي ذكرناه في أمر الكواكب وهذا من اعجب ما في هذا الكتاب والله اعلم .

وزعمت العرب إنها تعبد الأصنام لتشفع لها عند الله وهذا مثل ما حكى عن بعض السؤال انه كان يقول " اللهم ارزق الناس حتى يعطوني " فقال له أبو الحارث حميد : مالك تسأل الله سفتجة بالرزق سل الله يرزقك وكان ينبغي للعرب ان يعبدوا الله ليرحمهم ولا يحتاجون إلى إقامة شفيع .

وعمر بن لحي أول من بحر البحيرة وسيب السائبة وجعل الوصيلة والحام .

والبحيرة :

الناقلة إذا نتجت خمسة أبطن فان كان الخامس أنثى بحروا أذنبا أي شقوها وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها وان كان ذكرا نحروه للإلهة ولحمه للرجال دون النساء .

والسائبة :

البعير يسيب بنذر يكون على الرجل ان سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة ان يفعل ذلك فلا يحبس عن رعى ولا ماء ولا يركبه أحدا .

والوصيلة :

من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن فان كان السابع ذكرا ذبح فاكل منه الرجال والنساء وان كانت أنثى تركت وان كان ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم تذبح لمكانها وكان لبنها وجميع منافعها حراما على النساء وان وضعته ميتا اشترك في أكله الرجال والنساء .

وقالوا السائبة : الأنثى من الإبل يسيبها الرجل لالهته ومن البقر والغنم فيكون ظهورها وأولادها وأصوافها واو بارها وأشعارها للإلهة وأبانها للرجال دون النساء .

والحامي الفحل إذا ركب ولد ولده وقالوا إذا نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كالأ ولا ماء .

حديث عمرو بن لحي وذكر أصنام العرب :

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : حدثت ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار فسألته عن بينه من الناس ، فقال: هلكوا .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ان أبا صالح السمان حدثه انه سمع أبا هريرة : قال ابن هشام : واسم أبي هريرة عبد الله ابن عامر ويقال اسمه : الرحمن بن صخر - يقول : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لاكثم بن الجون اخزاعي : " يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبة في النار ، فلما رأيت رجلا اشبه برجل منك به ، ولا بك منه . فقال أكثم : عسى ان يضرني شبهه يا رسول الله ؟ قال : لا ، انك مؤمن وهو كافر ، أنه كان أول من غير دين إسماعيل ، فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السابعة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي " .

أصل عبادة الأصنام في ارض العرب وجلب الأصنام من الشام إلى مكة :

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم ان عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من ارض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق . ويقال : عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح - رأيهم يعبدون الأصنام . فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستصرها فتتصرنا ، فقال لهم أفلا تعطونني منها صنما ، فأسير به إلى ارض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له : هبل ، فقدم به إلى مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

سبب عبادة الأصنام :

قال ابن إسحاق : ويزعمون ان أول ما كانت عبادة الحجارة في بنى إسماعيل انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما

للحرم ، فحينما نزلوا وضعوه ، فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى ان كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلف الخلف ، ونسوا ما كانوا عليه . واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان . وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف على عرفة و المزدلفة ، وهدى البدن والإهلاك بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه . فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : " لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما لك " فيوحدونه بالتلبية . ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكا بيده ، يقول الله تبارك وتعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - " وما يؤمن من أكثرهم بالله وهم مشركون " أي ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكا من خلقي " .

الأصنام عند قوم نوح :

وقد كانت لقوم نوح أصناما قد عكفوا عليها ، قص الله - تبارك وتعالى خبرها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : " وقالوا لا تذرون آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سوعا ، و لا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا " .

القبائل العربية وأصنامها :

فكان الذين اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم ، وسموا بأسمائهم حين فارقوا دين إسماعيل . هذيل بن مدركة بن اليأس بن مضر ، اتخذوا سواعا فكان لهم برهاط وكلب بن وبرة من قضاة ، اتخذوا ودا بنومة الجندل .

قال ابن إسحاق : وقال كعب ابن مالك الأنصاري :

وننسى اللات والعزى وودا نسلبها القلائد والشنوفا

قال ابن هشام : وهذا البيت في قصيدة له سأذكرها في موضعها ان شاء الله.

قال ابن هشام : وكلب بن وبرة بن تغلب بن عمران بن حلوان بن الحاف بن
قضاة .

عباد يغوث :

قال ابن إسحاق : وانعم من طيئ ، وأهل جرش من مذحج اتخذوا

يغوث بجرش .

قال ابن هشام : ويقال . أنعم ، وطيئ بن أدد بن مالك ، ومالك :

مذحج بن أدد ويقال ، طيئ بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ .

عباد يعوق :

قال ابن إسحاق : وخیوان بطن من همدان اتخذوا يعوق بأرض

همدان من أرض اليمن .

قال ابن هشام . وقال مالك بن نمط الهمداني .

يريش الله في الدنيا ويبرى ولا يبرى يعوق ولا يريش

وهذا البيت في أبيات له .

قال ابن هشام : اسم همدان : أوسلة بن مالك بن زيد بن ربيعة بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ويقال : أوسلة بن زيد بن أوسلة بن الخيار .

ويقال همدان بن أوسلة بن ربيعة بن مالك بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

نسر وعبادته :

قال ابن اسحق : وذو الكلاع من حمير اتخذوا نسرا بأرض حمير .

عباد عميانس :

وكان أخولان صنم يقال له : عميانس بأرض خولان ، يقسمون له من انعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله بزعمهم ، فما دخل في حق عميانس من حق الله تعالى الذي سموه له تركوه له وما دخل في حق الله تعالى من حق عميانس ردوه عليه . وهم بطن من خولان ، يقال لهم : الأديم ، وفيهم انزل الله - تبارك وتعالى - فيما يذكرون : " وجعلوا الله ممرا ذرا من الحرث والآنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون " .

قال ابن هشام : خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاة ويقال : " خولان ابن عمرو بن مرة بن أد بن زيد بن مهسع بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان ابن سبأ " ويقال : خولان بن عمرو بن سعد العشيرة بن مذحج .

سعد وعبادته :

قال ابن إسحاق : وكان لبني ملكان - بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن اليأس ابن مصر - صنم يقال له : سعد : صخرة بفلاة من أرضهم طويلة ، فاقبل رجلا من بني ملكان بابل له مؤبلة ، ليقفها عليه ، التماس بركته - فيما يزعم - فلما رآته الإبل وكانت مرعية لا تركب ، وكان يهراق عليه الدماء نفرت منه ، فذهبت في كل وجه ، وغضب ربها الملكاني ، فأخذ حجرا فرماه به ، ثم قال . لا بارك الله فيك ، نفرت على ابلي ، ثم خرج في طلبها حتى جمعها ، فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ، ليجمع شملنا فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتتوفة من الأرض لا تدعو لغى ولا رشد

دوس وصنمهم : وكان في دوس صنم لعمر بن حممة الدوسي .
قال ابن هشام : سأذكر حديثه في موضعه ان شاء الله .
ودوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك ابن نصر بن الأسد بن الغوث .

عباد هبل :

قال ابن إسحاق : وكانت قريش قد اتخذت صنما على بشر في جوف الكعبة يقال له : هبل .
قال ابن هشام : سأذكر حديثه ان شاء الله في موضعه .

اساف ونائلة :

قال ابن اسحق : واتخذوا اسافا ونائلة ، على موضع زمزم ينحرون عندهما ، وكان اساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم - هو اساف بن بغي ونائلة بنت ديك - فوقع اساف على نائلة في الكعبة : فمسخهما الله حجرين .

حديث عائشة عن اساف ونائلة : قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم . عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد زرارة إنها قالت : سمعت عائشة - رضى الله عنها - تقول : مازلنا نسمع ان اسافا ونائلا كانا رجلا وامرأة من جرهم ، احثنا في الكعبة : فمسخهما الله تعالى حجرين والله اعلم .

قال ابن إسحاق : وقال أبو طالب :

وحيث ينيخ الاشعرون ركابهم بمفضى السيول من اساف ونائل

قال ابن هشام : وهذا البيت في قصيدة له ، سأذكرها في موضعها ان شاء الله تعالى .

ما كان يفعله العرب مع أصنامهم :

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدا به قبل ان يدخل على أهله ، فلما بعث الله رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالتوحيد " قالت قريش : " اجعل الآلهة آلهة واحدا ، ان هذا لشيء عجاب " .

الطواغيت :

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها
كتعظيم الكعبة، لها سدة وحجاب ، وتهدى كما تهدى للكعبة ، وتطوف بها
كطوفها بها ، وتتحر عندها ، وهى تعرف فضل الكعبة عليها ، كانت قد
عرفت إنها بنت إبراهيم الخليل ومسجده .

العزى وسدنتها وحجابها :

فكانت لقريش وبني كنانة العزى بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بنو
شيبان من سليم، خلفاء بني هاشم .

قال ابن هشام : خلفاء بني أبي طالب خاصة ، وسليم بن منصور بن
عكرمة ابن خصفة بن قيس بن عيلان .

قال ابن إسحاق : فقال شاعر من العرب :

لقد أنكحت أسماء رأس بقررة من الادم أهداها امرؤ من بني غنم
رأى قدعا في عينها إذ يسوقها إلى غبغب العزى فوسع في القسم

وكذلك كانوا يصنعون إذا نحروا هديا قسموه في من حضرهم ،
والغبغب ، المنحر ومهراق الدماء .

قال ابن هشام : وهذان البيتان الأبي خراش الهذلى واسمه : خويلد بن مرة
في أبيات له .

من أهم السدنة : والسدنة الذين يقيمون بأمر الكعبة . قال رؤبة بن العجاج :

فلا ورب الآمات القطن بمحبس الهدى وبيت المسدن

بمحبس الهدى وبيت المسدن

وهذان البيتان في أرجوزة له ، وسأذكر حديثها ان شاء الله تعالى في موضعه.

اللات وسدنتها : قال ابن إسحاق : وكانت اللات لتقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بنو معتب من ثقيف .

قال ابن هشام : واذكر حديثها ان شاء الله تعالى في موضعه .

مناة وسدنتها :

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للاوس والخزرج . ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقدير .

قال ابن هشام : وقال الكميت بن زيد أحد بنى أسد بن مدركة :

وقد آلت قبائل لأتولى مناة طهورها متحرفينا

وهذا البيت في قصيدة له :

هرم مناة : قال ابن هشام : فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم

- إليها أبا سفيان بن حرب فهدمها ، ويقال : على بن أبي طالب .

ذو الخلصة وعباده وهدمه :

قال ابن إسحاق : وكان ذو الخلصة لدوس وختعم وبجيلة ، ومن كلن ببلادهم من العرب بتبالة .

قال ابن هشام : ويقال : ذو الخلصة . قال رجل من العرب :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا

مثل شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

قال : وكان أبوه قتل ، فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالآلام ، فخرج السهم بنهيه عن ذلك ، فقال هذه الأبيات . ومن الناس من ينحلها امرأ القيس بن حجر الكندي ، فبعث إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جرير بن عبد الله البجلي فهدمه .

فلس وعباده وهدمه :

قال ابن إسحاق : وكانت فلس لطبيئ ومن يليها بجبل طيبئ ، يعنى سليمان وأجأ .

قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث إليها على بن أبي طالب فهدمها ، فوجد فيها سيفين ، يقال لأحدهما : الرسوب ، والآخر : المحزم .

فأتى بهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوهبهما له ، فهما سيفا على رضى الله عنه .

رثام :

قال ابن إسحاق : وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له :

رثام .

قال ابن هشام : قد ذكرت حديثه فيما مضى .

رضاء وعباده وهدمه :

قال ابن إسحاق : وكانت رضاء بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن

زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين

هدمها في الإسلام :

ولقد شدت على رضاء شدة فتركتها قفرا بقاع اسمها

عمر المستوغر :

ويقال ان المستوغر عمر ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة . وكان أطول

مضر كلها عمرا هو الذي يقول :

وعمرت من عدد السنين مئينا

وازددت من عدد الشهور سنينا

يوم مر وليلة تحـدونا

ولقد سئمت من الحياة وطولها

مائة حدثها بعدها مئتان لي

هل ما تبقى إلا كما قد فاتنا

وبعض الناس يروى هذه الأبيات لزهير بن جناب الكلبي .

ذو الكعبات وعبادة :

قال ابن إسحاق : وكذلك ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وأياد بسنداد وله يقول أعشى بنى قيس بن ثعلبه :

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذي الكعبات بن سنداد

قال ابن هشام : وهذا البيت للأسود بن يعفر النهشلي . نهشل بن دارم بن مالك ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم في قصيدة له ،
وانشدني فيه أبو محرز خلف الأحمر .

أهل الخورنق والسدير وبارق والبيت ذي الشرفات من سنداد

الفصل الثاني ظهور الديانة الإسلامية

الرسول عليه السلام قبل البعثة

الفترة المكية من حياة الرسول عليه السلام

الفترة المدنية من حياة الرسول عليه السلام

الرسول عليه السلام قبل البعثة :

ينتسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أسرة من اشرف اسر قبيلة قريش فهو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، ويرتفع نسبه الشريف إلى معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام^(٨٥). وامه هي آمنه بيت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة وهو لذلك: اشرف ولد آدم حسبا وفضلهم نسبا من قبل ابيه وامه^(٨٦).

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل، والاغلبية من المؤرخين ترجع مولده إلى ما بعد حادث الفيل بحوالي خمسين يوما، ومع ان هناك بعض الاراء التي تفيد ان والده كان حيا حين ولادته، وان وفاة الوالد كان والرسول عليه الصلاة والسلام في المهد أو وهو طفل يحبو إلا ان ابن هشام وكثيرون يؤكدون وفاة عبد الله بن عبد المطلب والنبي صلى الله عليه السلام مازال جنينا في بطن امه^(٨٧).

^{٨٥} ابن سيد الناس، عيون الأثر فنون المغازي و الشمائل و السير ج ١ ص ٢١-٢٢. وانظر

أيضا بان المصعب الزبيري : كتاب نسب قريش من ص ١٠-٢١.

^{٨٦} ابن هشام، يرة ج ١ ص ١٠٠-١٠١.

^{٨٧} المصدر السابق ج ١ ص ١٤٦ وانظر أيضا ابن كثير : الفصول في اختصار سيرة

الرسول ص ٨٠، اليعقوبي ج ٢ ص ٦.

ويحدثنا التاريخ عن والد النبي عليه الصلاة والسلام، وهو عبد الله بن عبد المطلب، انه كان اصغر ولد ابيه، وان عبد المطلب كان قد نذر لئن رزقه الله من الولد عشرة يمنعونه ويعينونه في عمله لينحرن احدهم عند الكعبة تقربا لله سبحانه وتعالى فلم بلغ بنوه عشرة وحق عليه الوفاء بالوعد اخبر أبناءه وضرب القداح بينهم فجاءت القرعة على عبد الله، وكان احب لبنائه عليه لكنه صمم على تنفيذ نذره وحين هم بذلك وقفت له قبيلة قريش ومنعته على ان تفديه بأموالها، واحتكموا إلى كاهنة في خيبر فسألتهم كم الدية فيكم، فقالوا: عشرة من الابل فقالت ارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشرا من الابل واضربوا عليها وعليه بالقداح فان خرج على صاحبكم فزيدوا عشرا حتى يرضى ربكم. وقد ظلوا يضربون بين عبد الله والابل إلى ان صار عدد الابل مائة وخرج عليها القداح فنحرت الابل المائة وتركت بعد ذلك لا يصد عنها انسان ولا سبع^(٨٨).

يروى ابن هشام هذه القضية على النحو التالي: -

ذكر نذر عبد المطلب و ذبح ولده :

قال ابن إسحاق: وكان عبد المطلب بن هاشم - فيما يزعمون - والله اعلم - قد. نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم : لئن ولد عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة. فلما توافى بنوه عشرة، وعرف انهم يسمعون، جمعهم، ثم اخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني ففعلوا، ثم اتوه، فدخل بهم على هبل في جوف

^{٨٨} انظر ابن الأثير: الكامل ج ٢ ص ٣-٤ وكذلك ابن هشام: السيرة جذ ص ١٤٠ وما

بعدها، والطبري ج ٢ ص ٢٣٩ وما بعدها.

الكعبة، وكان هبل على بئر في جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هى التي يجمع فيها ما يهدي للكعبة.

الضرب بالقداح عند العرب:

وكان عند هبل قداح سبعة، كل قدح منها فيه كتاب، قدح فيه (العقل)، إذ اختلفوا في العقل من يحمله منهم، ضربوا بالقداح السبعة، فان خرج العقل فعلى من خرج حمله وقدح فيه (نعم) للأمر إذا أرادوه يضرب به القداح، فلن خرج قدح نعم، عملوا به. وقدح فيه (لا) إذا أرادوا به ضربوا به القداح فإن خرج ذلك القداح لم يفعلوا هذا الأمر، وقدح فيه: (منكم) وقدح فيه (ملصق): وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه: (المياه) إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح و فيها ذلك القدح. فحينما خرج عملوا به.

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما، أو ينكحوا منكحاً، أو يدفنوا ميتاً، أو شكوا في نسب احدهم، ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون ما يريدون، ثم قالوا: يا الهنا هذا فلان ابن فلان قد أردنا به كذا وكذا، فاخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب فان خرج عليه: (منكم) كان منهم وسيطا، وان خرج عليه: (من غيركم) حليفاً، وان خرج عليه: (ملصق) كان على منزلته فيهم، لا نسب له، ولا حلف، وان خرج فيه شئ، مما سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به، وان خرج (لا) اخروه عامه وذلك حتى يأتوه به مرة أخرى ينتهون في أمورهم إلى ذلك مما أخرجت به القداح.

عبد المطلب يحتكم القداح:

فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه واخبره بنذره الذي نذر، فأعطاه كل رجل منهم قداحه الذي فيه اسمه، وكان عبد الله بن عبد المطلب اصغر بني ابيه، كان هو و الزبير و أبو طالب لفاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخروم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر.

خروج القداح على عبد الله وشروع ابيه في ذبحه، ومنع قريش له :

قال ابن إسحاق: وكان عبد الله - فيما يزعمون - احب ولد عبد المطلب إليه، فكان عبد المطلب يرى ان السهم الذي اخطاه فقد اشوى. وهو أبو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما اخذ صاحب القداح - القداح - ليضرب بها، قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله، ثم ضرب صاحب القداح، فخرج القداح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم اقبل به إلى آساف ونائله لينذبه فقامت إليه قريش من أندية فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال: اذبحه: فقالت له قريش و بنوه: والله لا تذبحه أبدا، حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذعه، فما بقاء الناس على هذا؟!.

وقال له النخيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخروم بن يقظة - وكان عبد الله بن أخت القوم: والله لا تذبحه أبدا، حتى تعذر فيه، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه: وقالت قريش وبنوه: لا تفعل. و انطلق به إلى الحجاز، فان به عرافه لها تابع، فسلها، ثم أنت على رأس أمرك، ان امرأتك بذبحه ذبحته، وان امرأتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته.

قصة عراف الحجاز :

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوها - فيما يزعمون - بخير فركبوا حتى جاءوها، فسألوها، وقص عليها عبد المطلب خبره و خبر ابنه، وما أراد به ونذره فيه فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فسأله: فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها فقللت لهم: قد جاءني الخبر كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل، وكأنت كذلك. قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قربوا صاحبكم، وقربوا عشر من الإبل، ثم اضربوا عليها و عليه بالقداح، فان خرجت على صاحبكم، فزيدا من الإبل حتى يرضى بكم، وان خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضى بكم، ونجا صاحبكم.

نجاة عبد الله من الذبح :

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما اجمعوا على ذلك من الأمر، قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله و عشرا من الإبل، و عبد المطلب قائم عند هبل يدعو الله عز وجل !! ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الإبل. فبلغت الإبل ثلاثين، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل أربعين، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل خمسين، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل ستين، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل سبعين، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله،

فزادوا عشرا من الابل، فبلغت الابل ثمانين، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الابل، فبلغت الابل تسعين، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الابل، فبلغت الابل مائة، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على الابل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب. فزعموا ان عبد المطلب قال: لا والله حتى اضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على عبد الله وعلى الابل، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الابل، ثم عادوا الثانية، وعبد المطلب قائم يدعو الله، فضربوا فخرج القدح على الابل، ثم عادوا الثالثة، وعبد المطلب قائم يدعو الله، فضربوا فخرج القدح على الابل، فنحرت، ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا يمنع.

وكان عبد الله احسن رجل روى في قريش قط، وزوجه والده آمنه بنت وهب، وهى يومئذ افضل امرأة في قريش نسبا وموضعا، ودخل عليها وعمره حينذاك ثلاثون عاما وقيل خمس وعشرون ويقول المؤرخون انه لما تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنه أقام عندها ثلاثا، وكانت تلك السنة عندهم إذا دخل الرجل امرأته في أهلها^(٨٩).

ورحل عبد الله بعد زواجه إلى الشام في تجارة لوالده، وحين عودته أصابه المرض فنزل بالمدينة عند أخوال أبيه من بنى النجار فمات هناك - وفي رواية أخرى ان والده كان قد أرسله إلى المدينة في ميرة يحمل تمرا

^{٨٩} ابن سيد الناس المصدر المشار إليه ص ٢٣ - ٢٥. والطبري ج ٢ ص ٢٣٤ وما

بعدها.

فمات بالمدينة، فبعث عبد المطلب ابن الحارث في طلبه حين أبطأ فوجده قد مات (٩٠).

أما السيدة آمنة بنت وهب، فإنها حملت من زوجها حملاً هيناً وينسب إليها قولها: ما شعرت بأني حملت به ولا وجدت له ثقله كما تجد النساء إلا أنني أنكرت رفع حيضتي، وربما كانت تقول وآتاني آت بين النائم واليقظان فقال: هل شعرت أنك حملت فكأنني أقول ما أدرى فقال: أنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وهي القائلة أيضاً لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته (٩١).

تعود أهل مكة، وخاصة الأشراف منهم ان يعهدوا بأطفالهم إلى مرضعات يتولون إرضاعهم وتربيتهم بعيداً عن جو المدينة حتى يشب هؤلاء الأطفال في صحة جيدة وبدن سليم، وكان نصيب النبي عليه السلام ان تتولى رعايته ورضاعته حليلة السعدية زوج الحارث بن عبد العزى ابن رفاعة السعدي، ويروى عن حليلة انها - مثلها في ذلك مثل كل المرضعات - كانت تبحث عن طفل عني ، وإنها انصرفت عن النبي لفقره، ولولا خوفها من ان تعود إلى موطنها خالية الوفاض لما أخذته، لكنها حينما وفقها الله إلى هذا الغلام اسبغ الله عليها نعمة كبيرة حتى انها حينما انتهت سنتا الرضاع، وكان عليها ان تعيده إلى أمه بمكة، ذهبت إليها وتوسلت لها ان تترك معها محمداً، وتقول: فقد منا به إلى أمه ونحن احرص شئ على مكثه فينا لما نرى فيه من بركته، فكلمنا امه وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ فإنني أخشى

^{٩٠} الطبري: ج ٢ ص ٢٤٦.

^{٩١} ابن سيد الناس: المصدر المذكور ج ٢ ص ٢٥.

عليه وباء مكة فلم نزل به حتى رنته معنا فرجعنا به ^(٩٢). واقام عندها إلى ان بلغ الرابعة من عمره، وتعرض لحادث شق الصدر بواسطة الملائكة واعادته إلى أمه في مكة لأنها خشيت ان يصاب بسوء ^(٩٣).

وتروي حليلة قصتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على النحو التالي:-
حديث حليلة عما رأته من الخير :

كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية. أم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي أرضعته، تحدث: انها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضاء قالت: وذلك في سنة شهباء، لم تبق لنا شيئاً. قالت: فخرجت على اتان لي قمرء معنا شارف لنا، والله ما نبض بقطرة، وما ننام ليلنا اجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارقنا ما يغذيه - قال ابن هشام ويقال: يغذيه. ولكننا كنا نرجو الغيث و الفرج فخرجت على اتاني تلك، فلقد أدمت بالركب، حتى شق ذلك عليهم ضعفا و عجفا، حتى قدما مكة نلتمس الرضاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتأباه، إذا قيل لها انه يتيم، وذلك. أنا إنكما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول. يتيم؟ وما عسى ان تضع أمه وجده؟ فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري فلما اجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله أني لأكره ان ارجع من بين صواحيبي ولم اخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلأخذه قال: لا عليك ان تفعلي، عسى

^{٩٢} ابن سيد الناس: المصدر المذكور ج ص ٣٣-٣٤. ابن هشام ج ١ ص ١٥٢.

^{٩٣} العقود ج ٢ ص ٧، ابن كثير: الفصول ص ٨٠، ابن هشام ج ١ ص ١٥٢، وابن سيد الناس ج ١ ص ٣٤.

الله ان يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلى أني لم أجد غيره.

الخير الذي أصاب حليلة :

قالت فلما أخذته، رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي، وشرب معه أخيه حتى روي، ثم نام وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارقنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ربا وشبعا، فبيتنا بخير، ليلة قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليلة، لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله أني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت اتاني، وحملته عليها معي، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليها من شئ من حمرهم، حتى ان صواحي لقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك ! أربعي علينا، أليست هذه اتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، انها هي هي، فيقلن. والله ان لها لشأنا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما اعلم أرضا من ارض الله اجذب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شبعا لبنا. فنحلب ونشرب. وما يحلب أنسانا قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع. حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شبعا لبنا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنته حتى كان غلاما جفرا.

رجوع حليلة إلى مكة أول مرة :

فقال فقصدنا به على أمه و نحن احرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلما أمه، وقلت لها: لو تركت بني عندي حتى يغلظ، أخشى عليه و بأهل مكة، قالت: فلم تزل بها حتى ربتته معنا.

حديث الملكين الذي شقا بطنه صلى الله عليه وسلم :

قالت فرجعت به، فو الله انه يعد مقدمنا بشهر مع أخيه خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذلك، أخي القرشي قد أخذ رجلاً عليهما ثياب بيض، فأضجعه، فشق بطنه، فهما يسوطانه قالت فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً ممتعاً وجهه. قالت: فالتزمته و التزمه أبوه، فقلنا له: مالك يابني، قال جاعني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو. قالت: فرجعنا إلى خباتنا.

حليلة ترد محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى أمه :

قالت و قال لي أبوه يا حليلة، لقد خشيت ان يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به. قالت: فاحتملناه، فقصدنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر، وقد كنت حريصة عليه، وعلى مكثه عندك؟ قالت فقلت: قد بلغ الله ابني وقضيت الذي على، و تخوفت الأحداث عليه، فاديت إليه كما تحيين. قالت: ما هذا شأنك، فاصدقيني الخبر. قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها. قالت: افتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: قلت، نعم، قالت كلا. و الله ما للشيطان عليه من سبيل، وان لبني لساناً أفلا أخبرك خبره. قالت: قلت بلى. قالت: رأيت حين حملت به انه خرج مني نور أضاء قصور بصري من ارض الشام. ثم حملت به، فو الله ما رأيت من حمل قط كان

أخف ولا أيسر منه. ووقع حين ولدته وأنه لو اضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء دعيه عنك، و انطلقى راشدة.

الرسول يسأل عن نفسه و إجابته صلى الله عليه وسلم :

قال ابن إسحاق: وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم، ولا احسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي: ان نفرا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا له: يا رسول الله. خبرنا عن نفسك؟ قال. نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى و رأت أمي حين حملت بي انه خروج منها نور أضاء لها قصور الشام.

واسترضعت في بني سعد بن بكر. فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بسطت من ذهب مملوءة ثلجا ثم أخذاني فشقى بطني، و استخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علة سوداء فطرحاها ثم غسلوا قلبي و بطني بذلك الثلج حتى نقياه. ثم قال أحدهما لصاحبه "زنه بعشرة من أمته: فوزنني بهم فوزنتهم قال: زنه بمئة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم. فقال: دعه عنك فو الله لو وزنته بأمته لوزنها".

رعية صلى الله عليه وسلم وافتخاره بقرشيته:

قال ابن إسحاق: و كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "ما من نبي إلا و قد رعى الغنم، قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: و أنا. قال ابن إسحاق: و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: "أنا اعربكم، أنا قرشي، و استرضعت في بني سعد بن بكر".

اِفْتَقَدَتْهُ حَلِيمَةُ وَوَجَدَهُ وَرَقَةَ بْنِ نُوْفَلٍ:

قال ابن إسحاق: وزعم الناس فيما يتحدثون - والله اعلم - ان أمه السعدية لما قدمت به مكة اضلها في الناس، وهي مقبلة به نحو أهله، فالتمسته فلم تجده، فأتت، عبد المطلب فقالت له: أني قد قدمت بمحمد هذه الليلة، فلما كنت بأعلى مكة اضلني فو الله ما ادري أين هو، فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده، فيزعمون أنه وجده ورقه بن نوفل بن أسد، ورجل آخر من قريش، فاتيا به عبد المطلب، فقال له: هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة، فأخذه عبد المطلب، فجعله على عنقه، وهو يطوف بالكعبة يعوزه له، ثم أرسل به إلى أمه آمنه.

سبب آخر لرجوع حليلة به صلى الله عليه وسلم إلى مكة:

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العمل، أن مما هاج أمه السعدية على رده إلى أمه، مع ذكرت لامه مما أخبرتها عنه، أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه، وسألوها عنه وقلوبه، ثم قالوا لها: لنأخذن هذا الغلام، فلنذهبن به إلى ملكنا و بلدنا، فان هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرف أمره. فزعم الذي حدثني إنها لم تكذب تنقلت به منهم.

أقام النبي - عليه الصلاة والسلام - مع والدته تعاونها على تربيته أم أيمن إلى ان بلغ من العمر ٦ سنوات - فخرجت به أمه في زيارة إلى يثرب لزيارة قبر والده هناك فأدركها الموت بالابواء بين مكة والمدينة، وهي في طريقها إلى مكة، واصبح النبي يتيم الأبوين وهو في هذه السن الباكرة، فانتقل إلى كفالة جده عبد المطلب الذي اسبغ عليه منحنائه وعطفه أكثر مما كان يسبغه على أبنائه، فكان يرفقه عنه ويقربه منه ويدنيه إليه، ولا يقدم على

تتاول طعام إلا إذا قدم الصبي إليه، ويجمع المؤرخون على أنه كان يوضع لعبد المطلب فراشا في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش حتى يخرج إليه لا يجلس عليه واحد من بنيه إجلالا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعو بني فو الله ان له لشأنا ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع (٩٤).

وحيثما بلغ النبي - عليه السلام - الثامنة من عمره ، توفي جده عبد المطلب عن سن عالية فحزن عليه النبي . ومن هنا انتقلت كفالة النبي - عليه السلام - إلى عمه أبي طالب. وتجمع المصادر التاريخية على أن أبا طالب كان شقيقا لعبد الله أبا و إما ولهذا كان أولى أولاد عبد المطلب برعاية ابن أخيه كما أن عبد المطلب كان يوصي أبا طالب بمحمد دائما، واعتبر ذلك إحياء له بكفالته من بعده (٩٥).

انتقل النبي - عليه السلام - إلى كفالة عمه أبي طالب وتربى في بيته وكان عمه له راعيا ومحبا يصحبه معه في غدوه ورواحه ولا ينام إلا إلى جواره وكان له خير كافل. وحيثما خرج إلى الشام في تجارة له طلب منه الرسول أن يصحبه معه وصعب على العم ترك ابن أخيه وحيدا فرق له وأخذه معه ولرسول الله من العمر حوالي تسع سنوات على ما يقول ابن الأثير أو الإثنتي عشر سنة على ما يقول الآخرون. وحين مرور القافلة

^{٩٤} ابن سيد الناس: ج ١ ص ٣٨. محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية

ص ٦٧.

^{٩٥} ابن هشام ج ١ ص ١٦٤. اليعقوبي ج ٢ ص ٩. ابن سيد الناس ج ١ ص ٤٠. ابن

كثير: الفصول ص ٨١.

بصومعة الراهب بحيرى بالقرب من بصري بلاد الشام. تبين الراهب علامات النبوة على وجه النبي عليه السلام - وتحادث مع عمه محذرا إياه من الخطر الذي قد يتعرض له الصبي لو عرفه اليهود وطلب منه ان يعود بأبن أخيه إلى مكة وان يحتاط له. ويروى ان هشام قصه هذا اللقاء على النحو التالي:

قال ابن إسحاق: ثم ان أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام فلما تهيأ للرحيل واجمع المسير صب به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيملا يزعمون فرق لهم، وقال: و الله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدا أو كما قال: فخرج به معه.

بحيرة يحتفي لتجار قريش:

فلما نزل الركب بصري من ارض الشام وبها راهبا يقال له بحيري في صومعة له "وكان إليه علم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها "فيما يزعمون" يتوارثونه كابرا عن كابر. فلما نزلوا ذلك العام ببصري، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض له. حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا وذلك "فيما يزعمون" عن شئ رآه وهو في صومعته، يزعمون انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صومعته في الركب حين اقبلوا وغمامة تنزل من بين القوم، قال، ثم اقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبة منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيري نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال: أني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، فأنا احب ان تحضروا كلكم صغيركم

وكبيركم، وعبدكم وحرکم، فقال له رجل منهم: والله يا بحري أن لك لشأنا اليوم، فما كنت تصنع هذا لنا، وقد كنا نمر بك كثيرا، فما شأنك اليوم.

قال له بحيري: صدقت، فقد كان ما تقول ولكنكم ضيوف، وقد أحببت أن أكرمكم واصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلکم فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من القوم، لحدثه سنه، في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيري في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنه، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، قالوا له: يا بحيري، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سنا، فتخلف في رحالهم فقال: لا تفعلوا، ادعوا، فليحضر هذا الطعام معكم قال: فقال رجل من قريش مع القوم: اللات والعزى، ان كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام بيننا ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

بحيري يتثبت من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فلما رآه بحيري، جعل يلحظه لحظا شديدا، وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجده عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيري، فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى، إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيري ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: لا تسألني باللات والعزى شيء، فو الله ما أبغضت شيء، قط بغضهما، فقال له بحيري: فبأله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له، سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله: من نومه وهيئته وأمره، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - يخبرهم، فيوافق ذلك ما عند بحيري من صفته، ثم نظر إلى ظهره،
فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.
قال ابن هشام: وكان مثل أثر المحجم (٩٦).

قال ابن إسحاق: فلما فرغ، أقبل على عمه أبي طالب، فقال له: ما
هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيري: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا
الغلام ان يكون أبوه حيا، قال فانه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات
وأمه حبلى به، قال: صدقت، فأرجع بابن أخيك إلى بلده، وأحذر عليه يهود:
فو الله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت ليبيغينه شرا، فانه كائن لابن أخيك
هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده.

بعض من أهل الكتاب يريدون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - الشر:
فخرج به عمه أبو طالب سريعا، حتى أقدمه مكة حين فرغ من
تجارته بالشام فزعموا فيما روى الناس: ان زريرا، وتاما ودريسا - وهم
نفر من أهل الكتاب - قد كانوا رأوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
مثل ما راه بحيري في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، فأرادوه،
فردهم عنه بحيري، وذكرهم السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، وانهم
أن اجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه، ولم يزل بهم، حتى عرفوا ما قال
لهم، وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه.

^{٩٦} يعني: اثر المحجمة القابضة على اللحم، حتى يكون ناتئا. وفي الخبر انه كان حوله
خيلا في شعرات سود. وفي صفته أيضا انه كان كالتفاحة، وكرر الحجة. وفي حديث
آخر: كان كبيضة الحمامة، وفي حديث عياض بن عمرو: قال ورأيت خاتم النبوة وكان كركبة
العنز.

فشب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية، ولما يريد به كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كلن رجلا أفضل قومه مروءة و أحسنهم خلقا، و أكرمهم حسبا، و أحسنهم جوارا، و أعظمهم حلما، و أصدقهم حديثا، و أعظمهم أمانة، و أبعدهم من الفحش و الأخلاق التي تدنس الرجال تتزها و تكرما، حتى ما اسمه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحدث عن حفظ الله له:

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما ذكر لي يحدث عما كان يحفظ به في صغره و أمر جاهليته، انه قال:

لقد رأيتني في غلمان قریش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به غلمان، كنا قد تعرى، و أخذ إزاره، فجعله على رقبتة، يحمل عليه الحجارة، فأني لأقبل معهم كذلك و أدبر، إذ لکمني لا کم ما أراه، لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك. قال فأخذته وشدته على، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتني و إزاري على من بين أصحابي^(٩٧).

^{٩٧} وهذه القصة انما وردت في الحديث الصحيح في حين بنیان الکعبة، و كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينقل الحجاره مع قومه إليها، و كانوا يجعلون أزهرهم على عواتقهم لتقيهم الحجاره، و كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحملها على عاتقه و إزاره مشدودة به، فقال له العباس رضى الله عنه: يا ابن أخي! لو جعلت إزارك على عاتقك، ففعل فسقط مغشيا عليه، ثم قال: إزارى فشد عليه إزاره، و قام يحمل الحجاره، و في حديث آخر: انه لما سقط، ضمه العباس إلى نفسه، و سأله عن شأنه فأخبره أنه نودي من السماء: أن أشدد عليك إزارك يا محمد قال: وأنه لأول ما نودي و حديث ابن إسحاق أن صح أنه كان في حال صغره إذ كان يلعب مع الغلمان فعلمه أن هذا الأمر كان مرتين، مرة في حال صغره و مرة في أول اكتماله عند بنیان الکعبة. (انظر الروض)

كانت هذه المرة الأولى التي نعلم فيها ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم قد سافر في صباه في رحلة إلى بلاد الشام ، وليس لدينا علم عن رحلة ثانية له إلى هذه البلاد إلا الرحلة التي قام بها ليتاجر في مال السيدة خديجة رضي الله عنها وهو في سن الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين.

ومما لا شك فيه قيام النبي عليه السلام يرعى الأغنام، قام بذلك وهو صغير مع اخوته في الرضاع في بني سعد ، وقام بذلك وهو يافع في مكة ونستدل على ذلك مما رواه صلى الله عليه وسلم عن نفسه حين قال: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين. كل ذلك ويحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته فأني قلت ليلة لغلام من قریش كان يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى ادخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الشبان ! فقال: افعل فخرجت أريد ذلك، حتى إذا جئت أول دور مكة، سمعت عزفا بالدفوف والمزامير فقلت ما هذا ؟ قالوا: فلان بن فلان تزوج فلانة بنت فلان فجلست انظر إليهم ، فضرب الله على أذني ففهمت فما أيقظني إلا مس الشمس . . الخ (٩٨). ويتكرر نفس الشيء مرة أخرى، ومن هنا لم يهم أبدا بسوء حتى اكرمه الله برسالته.

أشترك رسول الله قبل بعثته في حرب الفجار التي بين قریش ومعها كنانة وبين قيس عيلان، ويقال أن سنة كانت خمسة عشر عاما أو عشرين

^{٩٨} الطبري ج ٢ ص ٢٧٩. ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤.

عاما وروى عنه انه كان يناول أعمامه النبيل ^(٩٩) كما انه شهد حلف الفضول، وهو حلف تعاهد فيه القرشيون على نصرة المظلوم ممن يظلمه ، وقال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما حب ان لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت ^(١٠٠). ولم يعهد عنه أبدا عبادة الأصنام أو المشاركة فيما كلن شائعا في مكة من رذائل أو عيوب . بل عرف عليه السلام باستقامة الخلق وسمى بين أهله بالأمين . وقال فيه الله تعالى وانك لعلى خلق عظيم.

كانت السيدة خديجة بين خويلد امرأة تاجرت، ذات مال وشرف تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم، فلما بلغها ما بلغها : من صدق حديثه وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه ان يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه افضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم - وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم بلاد الشام ^(١٠١).

رأى ميسرة من صدق حديث النبي وأمانته، ويسر معاملته ما أعجبه فلما عاد إلى سيدته أخذ يمتدح لها صفات الرسول عليه السلام ويقال بأن الرسول قد جلس في ظل شجرة بالقرب من صومعة راهب يسمى نسطور وتعرف الراهب على نبوة محمد، وبشر بذلك ميسرة الخادم ^(١٠٢).

^{٩٩} ابن هشام ج ١ ص ١٦٨ وما بعدها.

^{١٠٠} ابن الأثير ج ٢ ص ٢٦.

^{١٠١} ابن هشام ج ١ ص ١٧٢. ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤.

^{١٠٢} نفس المصدر ج ١ ص ١٧٢، الطبري ج ٢ ص ٢٨٠.

كانت السيدة خديجة امرأة حازمة عاقلة شريفة مع ما أراده الله من كرامتها ، فحينما سمعت كلام خادمها ميسرة عن محمد بن عبد الله عرضت نفسها عليه ليتزوجها فنقل الرسول ذلك إلى أعمامه فذهبوا إلى خويلد بن أسد لخطبتها منه، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سن الخامسة والعشرين، وكانت هي في حدود الأربعين فولدت له أولاده جميعا ماعدا إبراهيم وهم: القاسم وبه كان يكنى رسول الله والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة تقبلهم الله جميعا في رحمته واسبغ عليهم رضوانه(١٠٣).

عاش محمد - عليه السلام - مع السيدة خديجة على أتم وفقاء، فلم يفكر في الزواج بغيرها حتى توفيت، وذكرها بالخير دائما بعد ذلك وهي من جانبها كانت له محبة وفية وقفت إلى جانبه بمالها وحسبها وساعده ذلك على ان يخصص شهرا من كل عام يتعبد فيه في غار حراء وكانت ترسل إليه الطعام في الجبل، ويقال انه كان يعود إلى بيته كل عدة أيام ليتزود بالطعام . ويروى لنا ابن هشام قصة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع السيدة خديجة على النحو التالي.

^{١٠٣} ابن هشام ج ١ ص ١٧٤ وما بعدها. الطبري ج ٢ ص ٢٨١. ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤ -

حديث تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها

سنة - صلى الله عليه وسلم - حين زواجه :

قال ابن هشام: بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمساً وعشرين سنة، وتزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب فيما حدثني غير واحد من أهل العلم منهم أبو عمرو المدني.

خروجه - صلى الله عليه وسلم - إلى الشام في تجارة لخديجة :

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجره، ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه، بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما بلغها: من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، تعطيه أفضل ما كانت تعطي من التجار، مع غلام لها يقال له ميسره، فقبله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسره، حتى قدم الشام.

حديثه - صلى الله عليه وسلم - مع الراهب :

فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ظل شجرة قريبة من صومعته راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسره. فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة هذا الرجل من قريش من أهل الحرام، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

ثم باع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلا إلى مكة، ومعه ميسره، فكان ميسره - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة، وأشدت الحر، ويرى ملكين يظلاله من الشمس - وهو يسير - على بغيره فلما قدم مكة على خديجة بمالها، باعت ما جاء به فاضعف أو قريبا وحدثها ميسره عن أقوال الراهب، وعما كان يرى من إضلال الملكين إياه.

رغبة خديجة في الزواج من الرسول - صلى الله عليه وسلم - :
وكانت خديجة امرأة حازمه شريفه لبيبه، مع أراد الله بها من كرامه فلما أخبرها ميسره مما أخبرها به، بعث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت له - فيما يزعمون - يا ابن عم، أني رغبت فيك قرابتك، ووسطك في قومك وأمانتك. وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش سنا، وأعظمهن شرفا، وأكثرهن مالا، كل قومها حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه.

نسب خديجة رضي الله عنها:

وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مره بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحه بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر، وأم فاطمه: هاله بنت عبد مناف بن الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر. وأم هاله: قلابه بنت سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر.

الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتزوج من خديجة بعد استشارة أعمامه:
فلما قالت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذكر لأعمامه،
فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب - رحمه الله - حتى دخل على خويلد
بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها.

صداق خديجه:

قال ابن هشام: واصدقها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عشرة
بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم
يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، رضى الله عنها.

أولاده - صلى الله عليه وسلم - من خديجه:

قال غبن إسحاق: فولدت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولده
كلهم إلا إبراهيم: القاسم وبه كان يكنى - صلى الله عليه وسلم - و الطاهر،
والطيب و زينب، و رقيه، و أم كلثوم و فاطمة، عليهم السلام.

ترتيب ولادتهم :

قال ابن هشام: اكبر بنيه: القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر، وأكبر بناته:
رقيه، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

قال ابن إسحاق: فأما القاسم، والطيب، والطاهر فهلكوا في الجاهلية.
وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه - صلى الله عليه وسلم - .

إبراهيم وأمه:

قال ابن هشام: وأما إبراهيم فأمه: ماريه القبطية. حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة، قال: أم إبراهيم: مارية سرية النبي - صلى الله عليه وسلم - التي أهداها إليه المقوقس.

حديث خديجة معه وصدق نبوءته:

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وكان ابن عمها وكان نصرانيا قد تتبع الكتب، وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسره من أقوال الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلاله، فقال ورقة، لئن كان هذا حقا يا خديجة أن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت انه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه.

بعثة الرسول والفترة الملكية:

كانت كل الدلائل تنبئ انه سيكون لهذا الفتى من قریش شأن عظيم وان الله سبحانه قد اختاره لمهمة سامية، وما ان بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأربعين نزل عليه جبريل مرسلا من قبل الله ليوحى إليه وذلك حينما كان في غار حراء في السابع عشر من شهر رمضان (١٠٤).

ويذكر المؤرخون ان أول ما بدئ مع الوحي انما كانت الرؤيا الصادقة ، أثناء نومه، فكان لا يرى رؤية إلا كانت مثل فلق الصبح وذكروا انه عليه السلام - أول ما بعث كان يسمع من يدعو ولا يرى شيئا ويذكر الطبري بإسناد ، بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته

^{١٠٤} الطبري ج ٢ ص ٢٩٠ وما بعدها.

وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتا ويفضى إلى الشعاب ويطون الأودية فلا يمر بحجر ولا شجرة إلا قالت: السلام عليك يا رسول الله، فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا (١٠٥). كما يؤكد ابن هشام في سيرته بأن الكهان من العرب والأخبار من اليهود والرهبان من النصارى قد تحدثوا بأمر رسول الله قبل مبعثه وأنه لا بد وسيظهر في هذا الأوان (١٠٦).

وفى الليلة التي اختارها الله سبحانه وتعالى ليكرمها ببدء ظهور هذا الدين الجديد وتجلي الوحي للرسول عليه السلام - جاء جبريل إليه بأول آيات القرآن الكريم، وقد أخبر عليه السلام عن نفسه فيما رواه ابن هشام فقال: جاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ، قلت ما اقرأ؟ فقال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ. قلت: ماذا اقرأ؟ قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ. قال: فقللت ما اقرأ، ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم (١٠٧). قال: فقرأتها ثم انتهت فأنصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا فخرجت حتى إذا كنت في الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال فرفعت رأسي إلى السماء انظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت انظر إليه فما

^{١٠٥} المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩٥، وانظر أيضا ابن هشام ج ١ ص ٢١٦.

^{١٠٦} ابن هشام ج ١ ص ١٨٩ وما بعدها.

^{١٠٧} سورة العلق.

أتقدم أمامي وما ارجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا اقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مصغياً إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا ابن عم واثبت فو الذي نفسي بيده أنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عم لها وكان يعلم علم الأقدمين، وسمع أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فطمأنها وأخبرها بأن ذلك هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام (١٠٨).

وهناك رواية أخرى موجزها ان النبي عليه الصلاة والسلام حين قص على خديجة ما حدث له قال لها: لقد خشيت على نفسي . قالت له خديجة: كلا ابشر فو الله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل من أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة أخي أبيها وكان امرأ تنصر في الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله ان يكتب شيخا كبيرا قد عمى فقالت له خديجة أي عم اسمع من ابن أخيك قال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة: هذا الناموس الذي انزل على موسى، يا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك، قال

١٠٨ ابن هشام ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢. ابن الأثير ج ٢ ص ٣١.

رجل قط بما جئت إلا عودي، وان يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً
(١٠٩).

تيقن الرسول عليه السلام من اختياره لأداء مهمة إلهية، والقيام برسالة سماوية وكان عليه ان ينهض في القيام بها وتحمل تبعاتها. وتنقسم الفترة التي قام بها - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة التي هي قسمين رئيسيين يعرفان عند المؤرخين بالطور المكي والذي يبدأ من بداية قيامه عليه السلام بالدعوة إلى الدين الجديد في مكة وبين القرشيين وحتى إجباره على الهجرة إلى يثرب والطور المدني إلى المدينة أو اليثربي ويتضمن الفترة التاريخية بين الهجرة إلى وفاة الرسول عليه السلام، ونتناول الفترتين بإيجاز فيما يلي:

١ - الطور المكي :

تردد الوحي على النبي عدة مرات قبل ان يشرع في الدعوة إلى الإسلام ، وأوحت إليه عدة آيات من القرآن الكريم مثل سورة العلق والتي يذهب عدد كبير من المؤرخين إلى اعتبارها أول ما نزل من القرآن الكريم (١١٠) وبعض آيات سورة المدثر والتي يذهب البعض إلى اعتبارها أول ما نزل من القرآن الكريم (١١١) . ولقد استمرت هذه الحقبة من الوحي على الرسول فترة من الزمان قدرت بعامين ونصف. ثم تبدى له الملك بين السماء والأرض على كرسي، فثبته، وبشره بأنه رسول الله حقاً، فلما رآه رسول الله

^{١٠٩} ابن سيد الناس ج ١ ص ٨٥.

^{١١٠} انظر الطبري ج ٢ ص ٢٩٨ وما بعدها.

^{١١١} ابن كثير: البداية و النهاية ج ٣ ص ١٦ - ١٧.

صلى الله عليه وسلم فرق منه وذهب إلى خديجة وقال: زملونى، دثرونى.
فأنزل الله عليه (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر) (١١٢).

وكانت الحالة الأولى حال نبوة وإحياء، ثم أمر في هذه الآية أن ينذر قومه،
ويدعوهم إلى الله فشمس - عليه السلام - عن ساق التكليف وقام في طاعة الله
أتم قيام، يدعو إلى سبحانه الكبير والصغير (١١٣). وتأتينا رواية ابن هشام
على النحو التالي:

^{١١٢} سورة المدثر.

^{١١٣} ابن كثير: الفصول ص ٨٥.

مبعث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما

اخذ الله الميثاق على الرسل بالإيمان به صلى الله عليه وسلم :

قال: حدثنا أبو محمد بن الملك بن هشام، قال: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق المطلبي قال: فلما بلغ محمد رسول صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا، وكان الله تبارك وتعالى قد اخذ الميثاق على كل نبي بعث قبله بالإيمان به والتصديق له والنصر له على من خالفه ، واخذ عليهم ان يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه. يقول الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم: (وإذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لِمَا مَعَكُمْ، لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى) : أي ثقل مل حملتكم من عهدي (قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) . فأخذ الله ميثاق النبيين جميعا بالتصديق له ممن خالفه ، وأدوا ذلك إلى من آمن بهم ، وصدقهم من أهل هذين الكتابين.

الرؤيا الصادقة أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال ابن إسحاق: فذكر الزهري عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنهما انها حدثته: ان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق لصبح قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شئ احب إليه من ان يخلو وحده.

سلام الحجر والشجر على الرسول صلى الله عليه وسلم :

قال بن إسحاق: وحدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي، وكان واعية، عن بعض أهل العلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته ابعده حتى تحسر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة ويطون اوديتها، فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، قال: فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة. فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله ان يمكث، ثم جاء جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو لحراء في شهر رمضان.

ابتداء نزول جبريل عليه السلام:

قال بن إسحاق: وحدثني وهب بن كيسان، مولى آل الزبير . قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة ، حين جاءه جبريل عليه السلام ؟ قال: فقال عبيد - وانا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ، ومن عنده من الناس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء من كل سنة شهرا، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية. والتحنث: التبرر.

قال بن إسحاق: حدثني وهب بن كيسان قال: قال عبيد : فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاء من المساكين فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره

ذلك، كان أول ما يبدأ به - إذا انصرف من جواره - الكعبة قبل ان يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته.

حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ومعه اهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى فيها برسالته ورحم العباد بها، وجاءه جبريل - عليه السلام - بأمر الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءني جبريل، وأنا نائم، بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: ما اقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت انه الموت ، ثم أرسلني ، فقال: اقرأ، قلت: ما اقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت انه الموت ، ثم أرسلني ، فقال: اقرأ ، قلت: ما اقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت انه الموت ، ثم أرسلني ، فقال: اقرأ ، قلت: ماذا اقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه ان يعود لي بمثل ما صنع بي فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) قال: فقرأتها ثم انتهت، فانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتابا. قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله. وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء انظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وان جبريل. قال: فوقفت انظر إليه فما أتقدم وما اتأخر، وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا انظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدم

أمامي وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي. فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها، وأنا أقف في مكاني ذلك. ثم انصرف عني.

الرسول صلى الله عليه وسلم يقص على خديجة ما كان من جبريل معه: وانصرفت راجعا إلى اهلي، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخدها مضيفا إليها فقلت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، حتى بلغوا مكة ورجعوا لي، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: ابشر يا ابن العم واثبت فالذي نفس خديجة بيده أني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

أخبار خديجة رضى الله عنها لورقة بن نوفل:

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى بن قصي: وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر، وقرأ الكتب. وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى وسمع فقل ورقة بن نوفل: قدوس قدوس، والذي نفسي بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وانه نبي هذه الأمة، فقول لي له: فليلبث.

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف، صنع كما يصنع: بدأ بالكعبة. فطاف بها فلقية ورقة بن نوفل، وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده أنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكن به ولتؤذنه ولتخرجنه

ولتقاتلنه، ولئن انا أدركت ذلك اليوم لانصرن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه، فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله.

امتحان خديجة برهان الوحي :

قال ابن إسحاق: وحدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير: انه حدث عن خديجة رضى الله عنها انها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي ابن عم، أ تستطيع ان تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال: نعم قالت: فإذا جاءك فأخبرني به. فجاءه جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخدي اليسرى قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلس عليها، قالت: هل تراه ؟ قال نعم، قالت: فتحول، فاجلس على فخدي اليمنى، قالت: فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلس على فخدها اليمنى، فقالت: هل تراه ؟ قالت نعم، فتحول فاجلس في حجري، قالت: فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلس في حجرها، قالت: هل تراه ؟ قال: نعم، قال: فتحسرت و ألفت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا ، قالت يا ابن عم، اثبت و ابشر، فو الله انه لملك وما هذا بشيطان.

قال ابن إسحاق: وقد حدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث (فقال قد سمعت أُمِّي فاطمة بنت حسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة، إلا أنني سمعتها تقول: أدخلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها، فذهب عند ذلك جبريل، فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذا لملك، وما هو بشيطان.

متى نزل القرآن :

قال ابن إسحاق : فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان، يقول الله عز وجل (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وقال الله تعالى (انا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بأذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر).

وقال الله تعالى (حم والكتاب المبين انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين).

وقال تعالى (ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان). وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركون ببدر.

قام الرسول عليه السلام بالدعوة إلى الله سرا وخاصة أهله المقربين واصدقائه المخلصين. فدعاهم إلى نبذ عبادة الأوثان وتوحيد الله سبحانه وتعالى باعتباره خالق الكون وعدم الإشراك به لحدا سواه وكان أول من آمن به هي زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها وبذلك تكون أول من اسلم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي هذا ما يجب التركيز عليه. على أساس ان لهذا معنى هاما جدا بما يؤكد من مكانة المرأة في الديانة الإسلامية ، لانه إذا كان رسول الله هو أول المسلمين فالسيدة خديجة هي ثاني المسلمين ، وإذا وضعنا في الاعتبار ان رسول الله هو المكلف بالدعوة تجلت لنا مكانة

السيدة خديجة باعتبارها أول مسلمة دخلت في دين الله وكان لها دورها في تشجيع الرسول وتثبيتته على طريق الدعوة وفي رفع الأذى عنه بعد ذلك، يقول ابن هشام وأمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاء منه فخفف الله بذلك عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب ذلك، إلا فرج الله عنه إذا رجع إليها، تثبتته وتخفف عليه وتصدقته وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى (١١٤).

وتباينت أقوال المؤرخين فيمن أسلم مباشرة بعد السيدة خديجة فقال ابن هشام انه على بن أبي طالب (١١٥). وذلك لانه كان يعيش في كنف الرسول ومن ثم فلا غرابة في ان يكون من أول الذين اتبعوا النبي أو انه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما يقول ابن كثير في الفصول من ان جائز سبقهم أبو بكر رضي الله عنه (١١٦). ولهذا حتى يزول هذا الاختلاف يقلل ان أبا بكر هو أول من أسلم من الرجال، وعلى هو أول من أسلم من الصبيان، وزيد بن حارثة هو أول من أسلم من الموالى .

كان إسلام أبي بكر تعزيد للنبي عليه السلام وامرا هاما بالنسبة للدعوة الإسلامية لانه كان - كما يقول ابن هشام - رجلا مألفا لقومه محببا سهلا، وكان انسب قریش لقریش، واعلم قریش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه

١١٤ ابن هشام ج ١ ص ٢٢٤.

١١٥ ابن كثير الفصول ص ٨٥.

١١٦ ابن هشام ج ١ ص ٢٢٨.

لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يخشاه، ويجلس إليه (١١٧).

وعلى يد أبي بكر الصديق آمن عدد من الرجال ممن كان لهم دورا بارزا في التاريخ الإسلامي وهم عثمان بن عفان، الزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون وأخوته، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد وأهله، وعمير بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، والارقم بن أبي الارقم وغيرهم. وجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له واسلموا (١١٨) وصلوا ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام قليلا حتى عرف الإسلام في مكة وتحدثت به قريش.

اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من دار الارقم بن أبي الارقم مكانا يلتقي فيه بأصحابه يعلمهم القرآن، وأمور الدين وظل الحال كذلك لمدة ثلاث سنوات إلى أن جاءه امر الله سبحانه (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) (١١٩) وقال تعالى: (وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) (١٢٠)، (وقل انى انا لنذير مبين) (١٢١). عندئذ جهر الرسول بدعوته. ولجأ في ذلك إلى أسلوب النداء حيث صعد إلى جبل الصفا ونادى - بطون قريش، ولما اجتمعوا قال لهم: ان الله امرنى ان انذر

١١٧ ابن هشام ج ١ ص ٢٢٢.

١١٨ ابن هشام ج ١ ص ٢٢٢.

١١٩ قرآن سورة الحجر الآية ٩٤.

١٢٠ قرآن سورة الشعراء ٢١٤، ٢١٥.

١٢١ قرآن سورة الحجر الآية ٨٩.

عشيرتي الاقربين، واني لا املك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا
إلا لن تقولوا: لا اله إلا الله: فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم لهذا جمعتنا ؟
فأنزل الله في لهب وزوجته (تبت يدا أبي لهب وتب ما اغنى عنه ماله وما
كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من
مسد) (١٢٢).

لم يقبل القرشيون على الدعوة الجديدة، وقفوا منها موقفا سلبيا طالما
ان الرسول لم يتعرض لآلهتهم بسوء، ولكنهم لم يكونوا كذلك حين بدأ
الرسول يهاجم هذه الآلهة ويسفهاها ويبين انها لا قيمة لها ويشرح لنا ابن
هشام هذه الصورة بقوله: فلما بدا رسول الله قومه بالإسلام وصدع به كما
أمره الله، لم يبعد منه قوم - ولم يردوا عليه - فيما بلغنى - حتى ذكر آلهتهم
وعابها، فلما فعل ذلك اعظموه وناكروه، واجمعوا خلافة وعداوته إلا من
عصم الله تعالى منهم بالإسلام (١٢٣). ومن هنا بدأ الصراع بين النبي عليه
السلام وبين مشركي مكة الذين تصدوا لدعوته بشدة وعنف ويرجع ذلك لعدة
أسباب منها:

١- خوف القرشيين على مكانة مكة، الموطن الأكبر للاصنام ففي شبه
الجزيرة العربية خشيتهم من ان تتأثر بهذه الدعوة وحرصهم على إلا
يفقدوا جموع الحجاج التي تأتيها كل عام، وما يترتب على ذلك كله من
ضياح مصادر هامة للكسب والتجارة.

^{١٢٢} قرآن سورة المسد، وأنظر في ذلك محمد جمال الدين سرور: المصدر المشار إليه
ص ٧٢.

^{١٢٣} ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨.

٢- الصراع العائلي والقبلي في مكة وخاصة بين بنى هاشم وبنى أمية ومحاولة كل من الفريقين - رغم ما بينهما من قرابة - الارتفاع بمكانته في قريش وان يحوز قصب السيادة فيها.

٣- ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن - على حد قولهم - جديرا بالزعامه عليهم. لانه لم يستجمع صفات شيخ القبيلة وسيدها والجدير بالاتباع واهم هذه الصفات السن والغنى والجاه والنفوذ، وفي هذا يقول الله تعالى: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم).

إلى جانب السخرية من النبي عليه السلام ومحاولات ايدائه، والتصدي للمسلمين الجدد واضطهادهم اتخذت قريش طريقين للحيلولة بين النبي ودعوته فعرضت عليه ان يترك هذه الدعوة في مقابل ان يقدموا أموالهم له ما يطمح إليه من الملك أو المال أو العلاج أو أي شيء آخر ، لكنه عليه السلام رفض ذلك لانه مكلف بالدعوة إلى الله وإلى عبادة الأصنام (١٢٤).

أما الأسلوب الآخر فتمثل في الضغط على عمه أبي طالب لكي يمنعه من القيام بالدعوة أو ليمنعه من سب آلهتهم ، وذهب إلى أبي طالب وفد من كبار القوم فقالوا له: يا أبا طالب، ان ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فأما ان تكفيه عنا، وأما ان تخلي بيننا وبينه،

^{١٢٤} ابن هشام ج ١ ص ٢٦١ ، ابن سيد الناس ج ١ ص ١٥٠.

فانك على مثل ما نحن - عليه من خلاف فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه (١٢٥).

واستمر الرسول في دعوته وتبعه عدد من احرار قريش، وازدادت العلاقات سوءا بينها، فتذا مروا فيه ومضى بعضهم بعضا عليه. وعادت قريش إلى الحديث مع أبي طالب مرة أخرى، وفعلوا تحدث الرجل مع ابن أخيه قائلا إياه: يا ابن أخي، ان قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبقى على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق ! فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قد بدا فيه لعمه بداء وانه خاذله ومسلمه، وانه ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عماء، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو اهلك فيه ما تركته، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: اقبل يا بن أخي، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا اسلمك لشيء أبدا (١٢٦).

حاولت قريش محاولة ثالثة مع أبي طالب لاثثائه عن تأييد ابن أخيه فعرضوا عليه خير فتيانهم، عمارة بن الوليد بن المغيرة على ان يكون لعبد المطلب في مقابل ان يعطيهم محمدا يقتلونه، وبذلك ينتهي الأمر ويرد عليهم

^{١٢٥} ابن هشام ج ١ ص ٢٣٩.

^{١٢٦} ابن هشام ج ١ ص ١٤٠. الطبري ج ٢ ص ٣٢٦.

أبو طالب قائلاً: بئس ما تسومونني، اتعطوني ابنكم اغذوه لكم و أعطاكم
ابني تقتلونه، وهذا والله لن يكون أبداً ١٢٧.

توترت الأمور في مكة بشدة وخاصة بين بني هاشم وباقي قريش
وتناذب الناس وعادى بعضهم بعضاً. وبدأت قريش تعذب من تعلم بإسلامه،
ويصف لنا الطبري هذه الحالة بقوله: ثم ان قريشا تذا مروا على من في
القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين اسلموا معه.
فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتوتهم عن دينهم،
ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا
تصنع ما تصنع في هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع
رسول الله، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، واجابوا إلى ما دعاهم
إليه من الدفع عن رسول الله عليه السلام. إلا ما كان من أبي لهب من قومه
ما سره من جدهم معه وحديثهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومكانه منهم - ليشد على رأيهم (١٢٨).

لجأت قريش إلى مقاطعة بني هاشم بسبب تأييدهم للنبي وعقدوا لذلك
عقداً مع القبائل الأخرى بمكة، واضطر بنو هاشم تحت ضغط روح
العصية إلى التوحد لحماية الرسول وخرجوا من مكة إلى شعب أبي طالب،
وقاطعتهم قريش مقاطعة كاملة، لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، لا
يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، واستمرت هذه المقاطعة حوالي ثلاث سنوات
حتى تحركت النخوة في بعض نفر من قريش تربطهم ببني هاشم روابط

١٢٧ ابن هشام ج ١ ص ٢٤٠. الطبري ج ٢ ص ٣٢٦.

١٢٨ الطبري ج ٢ ص ٣٢٧.

قراءة أو صهر أو نسب فتحركوا لتفض الصحيفة التي سبق لقريش ان وضعتها في صحن الكعبة. وبذلك انتهت المقاطعة، وعاد بنو هاشم إلى مكة دون ان يتوقف اضطهاد قريش للمسلمين وإيذائهم للرسول عليه السلام (١٢٩).

لما رأى القرشيون ان جدالهم للرسول - عليه السلام - لم يجدهم نفعا ولم يضعف من نشاطه في نشر الدعوة الإسلامية، استعانوا عليه بأجبار اليهود في يثرب ، فذهب بعضهم إلى هناك وطلبوا من هؤلاء الأبحار رأيهم في الرسول فقيل لهم : سلوه عن ثلاثة فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل وان لم يجب فهو متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، وعن رجل طواف، وعن الروح (١٣٠).

يذكر المؤرخون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتمكن من الإجابة مباشرة على هذه الأسئلة مما افرح قريش، لكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه بعدة مدة بخبر الفتية الذين ذهبوا وهم أصحاب الكهف، وذكر الجل الطواف وهو ذو القرنين، وقال له عن الروح (ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) (١٣١).

اشتد إيذاء قريش للنبي والمسلمين واقتل سفهاء أهل مكة من الكفار على المسلمين يعذبونهم ليردوهم عن دينهم حتى ان أبا جهل ابن هشام بن المغيرة قد مر يوما بسمية أم عمار بن ياسر وهي تعذب فطعنها بحربة

^{١٢٩} ابن سيد الناس ج ١ ص ٢٦٥.

^{١٣٠} ابن سيد هشام ج ١ ص ٢٦٥.

^{١٣١} ابن هشام ج ١ ص ٢٦٦ وما بعدها.

أصابته منها مقتلاً، وكانت لذلك أول شهيدة في الإسلام وعمل بعض الصحابة الأغنياء على شراء العبيد من سادتهم القساة ثم يطلقون سراحهم بعد ذلك وخصصهم في هذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ويصف الطبري حال المسلمين مع القرشيين فيقول: ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتتوا من تبعه عن دين الله من ابنائهم وأخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء (١٣٢).

ولم يسلم رسول الله نفسه من الأذى والسخرية فقد ألقيت عليه قاذورات شاه مذبوحة وهو قائم يصلي ، كما أنهم تعرضوا له مرة وهو قائم يصلي وكادوا يخنقونه بثوبه لولا أن دفعهم عنه أبو بكر الصديق، وهزأوا به مرة أخرى في الحرم وكان معه أبو بكر وعثمان ثم إن أبا جهل سبه سباً شديداً عندما لقيه مرة عند الصفا وكان ذلك سبب إسلام حمزة بن عبد المطلب، والذي كان إسلامه رنة فرح عند المسلمين وحزن والم عند الكافرين.

حدث ذلك كله والرسول عليه السلام صابر، مكافح، مثابر على دعوة ربه وعدد المسلمين يتزايد سواء من أحرار قریش أو من عبيدها وضعفائها وكان إسلام حمزة ثم من بعده عمر بن الخطاب الذي أسماه المسلمون فتحاً، يقول عبد الله بن مسعود: (ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة وصلينا معه).

^{١٣٢} الطبري ج ٢ ص ٣٢٨. وانظر أيضاً ابن هشام ج ١ ص ٢٧٧ وما بعدها.

الهجرة إلى الحبشة :

كان رسوا اله صلى الله عليه وسلم يرى ويسمع بما يتعرض له الصحابة من الأذى والسخرية والعذاب، وكان يشق عليه ذلك فسمح لهم بالهجرة إلى ارض الحبشة لما سمع شهرة ملكها بالعدل والتسامح، وكان النجاشي لا يظلم بأرضه أحد، وكان يثني عليه مع ذلك صلاح (١٣٣) فكان أول من هاجر عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنت الرسول عليه السلام (١٣٤) وتبعه المسلمون في الفرار من مكة فخرج أحد عشر رجلا واربع نسوة متسللين إلى شاطئ البحر وركبوا سفينتين لبعض التجار إلى بلاد الحبشة، وخرجت قريش في آثارهم فلم يدركوا منهم أحد (١٣٥).

ويبدو أن هذه المجموعة الأولى والتي استقرت بأرض الحبشة ورحب بها ملكها، ووجدت في رحابه الامن والطمأنينة حيث يروى عنهم انهم قالوا: وقدمنا ارض الحبشة، فجاورنا خير جار، امنا على ديننا وعيديننا الله، لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه (١٣٦) وعندما تواترت الأخبار عنهم خرجت مجموعات أخرى من المسلمين منهم جعفر بن أبي طالب ارض الحبشة حتى وصل عدد المسلمين هناك إلى حوالي اثنين وثمانين رجلا (١٣٧).

كان اختيار رسول الله لبلاد الحبشة اختيارا موفقا، فمن جهة عرف النجاشي بعدله وتسامحه، ومن جهة أخرى كانت ارض الحبشة متجرا لقريش

١٣٣ الطبري ج ٢ ص ٣٢٨.

١٣٤ ابن هشام ج ١ ص ٢١٨.

١٣٥ الطبري ج ٢ ص ٣٢٩.

١٣٦ الطبري ج ٢ ص ٣٢٩.

١٣٧ نفس المصدر ج ٢ ص ٣٣٠ وجعلهم ابن هشام ٨٣ رجلا ج ١ ص ٢٨٦.

يتجرون فيها، يجدون فيها رفاة من الرزق، وامنا ومتجرا حسنا (١٣٨).
وجود المسلمين هناك قد يهدد هذه التجارة أو يسئ إلى سمعة القرشيين
هناك. علاوة على ذلك فانه قد يوحى للقرشيين باحتمالات أخرى أهمها
خشيتها ان يستعين النبي بالأحباش مما يهدد سيادة قريش على ممرات قوافلها
وتجارتهم، ولذلك سعت بكل جهدها إلى إعادة هؤلاء الذين هاجروا وإلى منع
غيرهم من اللحاق بهم، فأرسلت قريش وفدا من قبلها برئاسة عمرو بن
العاص إلى النجاشي محملا بالهدايا لكي يعمل على إعادة المسلمين إلى مكة.

بذل الوفد كل جهده من اجل إقناع النجاشي بإعادة المسلمين إلى مكة
وعرضوا الهدايا ففشلوا في ذلك فلجأوا إلى إثارة العواطف الدينية للوقعية
بينه وبين المسلمين قائلين للنجاشي بأنهم لا يعتقدون في ألوهية المسيح، لكن
ذلك كله لم يقنع الملك المسيحي الحبشي بإعادة المسلمين إلى مكة وخاصة
بعد نقاشه مع جعفر بن أبي طال حول رأى المسلمين في السيد المسيح عليه
السلام ويروي ابن هشام على النحو التالي :-

كان للهجرة إلى الحبشة أثره الكبير في نشر الدعوة الإسلامية، لقد
كان شيئا كبيرا ان يفر عدد من المسلمين بدينهم من تعذيب قريش وساداتها
فازداد تعذيبهم للمسلمين وتعرضهم للنبي.

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم إلى الحبشة، ويقول اليكائي نقلا عن عبد الله بن مسعود: (ان
إسلام عمر كان فتحا وان هجرته كانت نصرا، وان إمارته كانت رحمة، ولقد

١٣٨ الطبري ج ٢ ص ٣٢٨.

كنا ما نصلى الكعبة حتى اسلم عمر، فلما اسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وفاة أبي طالب والسيدة خديجة :

كان أبو طالب والسيدة خديجة خير عون لرسول الله، وكان لهما فضل حمايته من كثير مما تعرض له المسلمون من إيذاء وسخرية، ولقد سبقت الإشارة إلى ما قام به أبو طالب من حماية للنبي، ومن تعذيبه وتجميع كل بني هاشم خلفه؛ وتحمله المقاطعة والعيش في الشعب ورضى بخصام قريش كلها، حتى انتهت هذه المقاطعة وعاد إلى أهله في مكة، واضطرار المسلمين إلى الهجرة للحبشة كما أشرنا، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقيما مع قرش بمكة يدعوهم سرا وجهرا، صابرا على آذاهم وتكذيبهم إياه، واستهزائهم به حتى ان كان بعضهم - فيما ذكر يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى ويطرحها في خيمته إذا نصيب له حتى اتخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم - فيما بلغنى - حجرا يستتر منهم إذا صلى، ويواصل الطبري الحديث فيقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج بذلك إذا رمى به في داره على العود فيقف على بابه ثم يقول: يا بني عبد مناف، أي جوار هذا ثم يلقيه في الطريق (١٣٩).

ثم ان أبا طالب وخديجة هلكا في عام واحد قبل الهجرة بثلاث سنين، فعظم ذلك على الرسول، وكبرت عليه المصيبة بهلاكهما، وذلك ان قريشا وصلوا من آذاه بعد موت أبي طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياته

١٣٩ الطبري ج ١ ص ٣٤٣.

منه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه (١٤٠)، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ما نالت منى قريشا شيئا اكرهه حتى مات أبو طالب (١٤١).

موقف الرسول من الدعوة :

ازداد تعرض قريش للرسول بعد وفاة عمه وزوجه كما انهم أصموا آذانهم عن دعوته، وكان عليه السلام ان يفكر في وسيلة يخرج بها من هذا الإطار وان يبحث عن طريقة ينشر بها دعوته بين الناس ، ورأى - صلى الله عليه وسلم - ان يسلك طريقين لتحقيق ذلك:

الطريق الأول: هو ان يخرج بالدعوة إلى مكان غير مكة.

الطريق الثاني: ان يتعرض لرجال القبائل من غير قريش القادمين إلى مكة في موسم الحج ليدعوهم إلى دين الله سبحانه.

خروج الرسول إلى الطائف:

خرج صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ومعه مولاة زيد بن حارثة يلتبس من أهلها الحماية ويدعوهم إلى نصرته ودعوته والإيمان بها، عمد رسول الله إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفها وهم اخوة ثلاثة فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام والقيام معه على من خالفه ، فردوا عليه ردا غير كريم حتى قال أحدهم انه سيسرق ثياب الكعبة ان كان الله قد بعثه. وقال الآخر اعجز الله على ان يرسل غيرك

١٤٠ ابن هشام ج ٢ ص ٤٥ ، الطبري ج ١ ص ٣٤٣.

١٤١ المصدرين السابقين ونفس الصفحات.

أما الثالث فإنه رفض ان يكلمه قائلاً، والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولا كما تقول لأنك اعظم خطرا من ان أراد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي ان أكلمك، وتهزءوا به أفشوا في قومهم ما قالوه له، وقعدوا له صفين فلما مر الرسول رجموه بالحجارة حتى أدموا رجله، وأغروا به سفهائهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس والجأوه إلى حائط لعقبة ابن ربيعة القرشيين، وكانا هناك في ذلك الوقت.

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: (اللهم اشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس . . . ألن ان يصل إلى قوله . . . ان لم يكن بك غضب على فلا أبالي) . . . فيما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال رقا له أرسلاه عنقودا من العنب م عبد لهما.

انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الطائف راجعا إلى مكة حين يئس من ثقيف، وقدم مكة وقومه اشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ولم يستطع - عليه السلام - دخول مكة إلا في حماية المطعم ابن عدي الذي قبل جواره وحمل سلاحه ومكنه من العودة والصلاة في الكعبة^(١٤٢).

^{١٤٢} اقر قصة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أهل الطائف عند ابن هشام ج ٢ ص ٤٧. الطبري ج ٣ ص ٣٤٤ وما بعدها. اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦. ابن سيد الناس ج ١ ص ١٣٤.

الإسراء والمعراج:

لم يمض وقت طويل بعد عودته عليه السلام من الطائف حتى أسوى به الله سبحانه وتعالى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، كما عرج به إلى سدره المنتهى ليرى من آيات ربه، يقول الله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ان هو السميع البصير) (١٤٣). وكان لهذا الحادث دوى هائل في مكة ولقد أنكروا ذلك على الرسول وشككوا في أقواله، ولم يقبل روايته إلا أبا بكر الصديق، وسببت هذه المسألة كثير من المشاكل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واختلفت أقوال العلماء في الإسراء والمعراج هل هو بالروح والجسد معا (١٤٤).

عرض الرسول نفسه على القبائل:

لم يحقق رسول الله نجاحا عندما خرج من مكة إلى الطائف وكان فشله هناك وما رواه عن حادث الإسراء سببا في زيادة الاذى والاستهزاء به من جانب القرشيين، ومن هنا بدأ طريقه الثاني وهو التعرض للقبائل التي ترد مكة في موسم الحج أو التجارة فأتى كندة في منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم فأبوا عليه، فأتى كلبا، إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم فأبوا عليه ولم يقبلوا ما عرض عليهم، ثم انه أتى بنى حنيفة وعرض عليهم نفسه فقالوا له لا حاجة لنا بأمرك - ولم يزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعرض نفسه على كل قادم له اسم وشرف ويدعوه إلى الله وكان كلما أتى قبيلة يدعوهم إلى الاسلام

^{١٤٣} سورة الإسراء الآية الأولى.

^{١٤٤} ابن هشام ج ٣ ص ٣٢. ابن كثير : الفصول ص ٩٣ ، ابن سيد الناس ج ١ ص ١٤٠.

تبعه عمه أبو لهب فإذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كلامه
يقول لهم أبو لهب: يا بني فلان، إنما يدعوكم هذا إلى أن تسلكوا اللات
والعزى فلا تطيعوه ولا تسمعوا له ^(١٤٥). كما قابل الرسول - عليه السلام -
بعض سكان يثرب من الاوس وعرض عليهم ما عرض على القبائل الأخرى
فلم يجد صدا ولا قبولا.

^{١٤٥} ابن الأثير ج ٢ ص ٦٥.

بيعة العقبة الأولى :

أن لهذا الكفاح المرير لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤتي ثماره، وإن يجد في النهاية من يستمع له ويستجيب لدعوته، وكذلك كانت إرادة الله أن يظهر دينه ويعز نبيه وينجز له وعده، فكان صلى الله عليه وسلم كعادته يخرج للقاء القبائل والوفود، وفي هذه المرة لقي رهطاً من الخزرج عند العقبة أراد الله لهم خيراً، فدعاهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: انا قد تركنا قومنا. ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى الله أن يجمعكم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل اعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا. وكان هؤلاء ستة نفر. فلما قدموا المدينة على قومهم فكسروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي العام التالي وافى موسم الحج اثنا عشر رجلاً من الأنصار من الخزرج والأوس فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة وبايعوه وهو ما يعرف باسم بيعة العقبة الأولى أو بيعة النساء وكان الجهاد لم يفرض بعد على المسلمين ويقول ابن اسحق نقلاً عن عبادة بن الصامت قال: "كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب، على أن لا

نشارك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتر
يه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف^(١٤٦).

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هذا الوافد مصعب بن عمير
ليقرئهم القرآن ويدعوهم الى عبادة الله ويفقههم في الدين، وتمكن مصعب من
إقناع سادة الأوس والخزرج وان يجذب الى الإسلام عددا كبيرا من أهل
المدينة وخاصة سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما، واللذان
اسلم بإسلامهما جميع أهلها وانتشر الإسلام في المدينة حتى لم تبق دار من
دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون^(١٤٧).

بيعة العقبة الثانية :

في الموسم التالي لبيعة العقبة الأولى أي في نفس السنة الثالثة عشرة
لبعثته صلى الله عليه وسلم - قدم مكة عدد من مسلمي يثرب ومعهم
مجموعة الوثنيين واتفقوا على لقاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند
العقبة فلما فرغوا من الحج وكانت الليلة التي تواعدوا فيها مع رسولا الله
خرجوا يتسللون تحت جح الظلام بعد مضى شطر من الليل الى ان التقوا
عند العقبة وكانوا حوالي سبعين رجلا وامرأتين وهناك وافاهم رسولا الله
عليه وسلم ومعه عمه العباس رغم ان العباس كان ما يزال على الوثنية إلا
انه احب ان يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . وكان العباس أول من تكلم
فناشد الأنصار التأكد من موقفهم وبصرهم بأهمية ما هم مقبلين عليه وقال يا
معشر الخزرج (يقصد بذلك الأوس والخزرج) ان محمدا منا حيث قد

^{١٤٦} الطبري ج ٢ ص ٣٥٣

^{١٤٧} ابن الأثير ج ٢ ص ٦٨

علمتهم، وقد منعناه من هو على مثل رأينا، وهو في عز في قومه ومنعنه في بلدة وانه قد أبي الانقطاع والحقو بكم، فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة في قومه وبلده " . قال: قتلنا له " سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت " فتكلم رسول الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الإسلام ثم قال أبايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابنائكم^(١٤٨) .

وافق الحاضرون على كلام رسول الله ، ورد عليه البراء بن معرور قائلا : " و الذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرننا " ^(١٤٩) ثم تساءلت الأوس عن علاقتها مع اليهود والتي سيقطعونها وخشيتهم بعد ان يتم النصرة لرسول الله ان يتركهم فأجابهم الرسول صلي الله عليه وسلم " بل الدم الدم ، الهدم الهدم، انتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم أسالم من سألتم " ^(١٥٠) وحاول الأنصار ان يوضح لبعض خطورة ما أقدموا عليه فتوجه العباس بن عباد بن نضله النصاري الى الجميع قائلا ... يا معشر الخوارج ، هل تقدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم قال : انكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون انكم إذا نهلت أموالكم مصيبة ، وأشرفكم قتلًا اسلمتومة ، فمن الآن، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون وافون له بما دعوتموه إليه على نهله الأموال، وقتل

^{١٤٨} الطبري ج ٢ ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

^{١٤٩} نفس المصدر ج ٢ ص ٣٦٢ .

^{١٥٠} نفس المصدر ج ٢ ص ٣٦٣ وانظر إلينا ابن هشام ج ٢ ص ٦٤ .

الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فأنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا ؟ قال : الجنة قالوا ابسط يدك فبايعوه (١٥١).

طلب الرسول عليه السلام - بعد ذلك من الأنصار ان يختاروا له اثني عشر نقيبا فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس (١٥٢) وعاد الأنصار الى رحالهم والى باقي أهل يثرب.

موقف قريش منبيعة العقبة :

كان السبب الأساسي في حث قريش على معارضتها النبي ودعوته هو حرصها على مكانتها وتجاربها بين العرب ولذلك كان اخشي ما تخشاه هو ان يخرج النبي من بين أظهرها الى مكان آخر أو ان يجد له سند عند قوم آخرين . لذلك ما ان تسرب خبر البيعة الى القرشيين حتى سعوا للتأكد من ذلك ، وغدوا الى أهل يثرب فقالوا : يا معشر الخزرج - أنا قد بلغنا أنكم جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، والله ما من حي من العرب ابغض إلينا ان تتشب الحرب بيننا وبينهم منكم " فاقسم لهم المشركون من أهل يثرب بأنه ل علم لهم بأي شي من ذلك ولكن القرشيين تأكدوا من الاتفاق وعادوا مرة ثانية للحديث مع أهل يثرب فوجدوهم قد رحلوا فانطلقوا في آثارهم وتمكنوا من القبض على سعد بن عباد وأعادوا الى مكة مقيد وقاموا بإيذائه حتى خلصه من أيديهم جبير بن

١٥١ ابن هشام ج ٢ ص ٦١ - ق ٩ .

١٥٢ انظر أمر العقبة الثانية ابن هشام ج ٢ ص ٦١ .

مطعم بن عدى والحارث بن حرب وذلك بسبب علاقة طيبة وكانت تربطهما بسعد بن عباد وانطلق سعد بعد ذلك عائدا الى يثرب (١٥٣).

ويروى سعد قصته قائل : فوالله أني لفي أيديهم إذ طلع على نفر من قریش فيهم رجل وصبي ابيض شعشاع حلو من الرجل فقلت في نفسي : ان يك عند أحد من القوم خير فعند هذا قال : فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكلمة شديدة ، قال : فقلت في نفسي : لا والله ما عندهم بعد هذا خيرا أبدا . قال : فوالله أني في أيديهم يسحبونني إذ أتى الى رجل ممن كان معهم فقال ويحك ، أما بينك وبين أحد من قریش جوار ولعهد ؟ فقلت : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارة ، وامنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، كذلك الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف قال : ففعلت ، وخرج ذاك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد - أي الكعبة - فقال لهل ان رجلا من الخزرج يضرب الآن بالا بطح ويتف بكما ، ويذكر ان بينكما وبينه جوارا . قالا ومن هو ؟ . قال : سعد بن عباد ، قالا ! صدق والله ان كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم ان يظلموا ببلدة قال فجاء مخلصا سعد من أيديهم فانطلق وكان الذي لكمه سهيل بن عمرو من لؤي .

نزول الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال :

بسم الله الرحمن الرحيم . قال : حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام ، قال : حدثنا زياد بن عبد الله البكائي ، عن محمد بن اسحق المطلبی : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعه العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تتحلل له الدماء إنما يؤمر بالدعاء الى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن

١٥٣ ابن هشام ج ٢ ص ٦٨ - ٦٩ .

الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتتوهم عن دينهم ونفوسهم من بلادهم ، فهم بين مفتون في دينه ، و بين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فرار منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من في المدينة ، وفي كل وجه ، فلما عنت قريش الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم وعذبوا ونفوا من عبده ووحدته وصدق نبيه ، واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغي عليهم ، فكانت أول آية نزلت في آذانه في الحرب وإحلاله الدماء والقتال ، لمن بغي عليهم فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا يقولون ربنا الله ولولا دفع الله الناس عنهم لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبه الأمور) * : أي أنني أحللت لهم القتال لنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس ، إلا إن يعبدوا الله وإنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف رضي الله عنهم أجمعين ، ثم انزل الله تبارك وتعالى عليه: (وقاتلوا حتى لا تكون فتنة) : أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه (ويكون الدين لله) : أي حتى يعبد الله ، لا يعبد معه غيره .

الإذن لمسلمي مكة بالهجرة الى المدينة :

قال بن اسحق : فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب، وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له وللمن اتبعه، واوي إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج الى المدينة والهجرة إليها، والحقوا بإخوانهم من الأنصار وقال : ان الله عز وجل قد جعل لكم أخوانا ودارا تأمنوا بها فخرجوا إرسالا ، و أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر له ربه في الخروج من الهجرة الى المدينة^(١٥٤).

ازداد قلق قريش خاصة بعد ان سمح النبي لأصحابه بالهجرة الى يثرب وتوقعت هجرة الرسول نفسه وما يمكن ان يعنيه ذلك للقريشيين . وكان أول المهاجرين ابوسلمه بن عبد الأسد وقد هاجر قبل العقبة بسنه ، وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من ارض الحبشة فلما آذته قريش وبلغه إسلام من اسلم من الأنصار خرج الى المدينة مهاجرا .

وقد أشرنا الى ان اخشي ما تخشاه قريش هو ان يتمكن النبي صلى الله عليه وسلم من الخروج من بين أظهرهم الى مكان آخر وقوم آخرين وما قد يترتب على ذلك من احدث. لذلك سعت بكل جهدها الى منع المسلمين من الهجرة وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا كان التخلص من النبي صلى الله عليه وسلم كان مجرد فكرة واردة في تفكير قريش إلا أنها لم تعمل على تنفيذها فعلا إلا حينما أحست بخطر خروج النبي من بين أيديها وخوفا من هجرته وهداهم تفكيرهم الى اختيار شاب من كل قبيلة ليشتروا معا في

^{١٥٤} ابن هشام ج ٢ ص ٨٩ .

قتل رسول الله ، وبذلك يضيع دمه في القبائل ولا يجد بنو هاشم مناصا من قبول دينه واجمعوا على ذلك أمرهم ، واستعدوا لذلك وفي الليلة التي حدوها لتنفيذ غرضهم سبق علم الله بجعلها موعدا لخروجه عليه السلام من مكة وهجرته الى المدينة كما سنبين فيما بعد (١٥٥).

لماذا استجاب أهل يثرب الى الإسلام ؟ :

ليس هناك من يجادل في ان قبول أهل يثرب لدعوة النبي عليه السلام كان تحولا هاما في مسار الدعوة الإسلامية، مما دفع بكثير من المؤرخون الى دراسة العوامل التي بأهل يثرب الى قبول الدعوة الإسلامية في الوقت الذي أنكرتها فيه قبائل العرب الأخرى . ولم يقتصر الأمر على المؤرخين المحدثين وإنما شاركهم في ذلك المؤرخين القدامى من أمثال الطبري حيث يحلل لنا ذلك قوله : " ان اليهود كانوا يهددونهم من حين لآخر بان نبييا الآن مبعوث قد أظلم زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وارم " (١٥٦) والى جانب أخبار اليهود لهم بقرب قدوم النبي، كانت معاشتهم لليهود سببا في تقريب فهمهم لرسالات السماء وذلك علاوة على ما كان بين الاوس والخزرج من خصومة جعل كل منهما يسعى لتأييد الدعوة الجديدة أما السبب الأساسي لذلك فهو أن الله سبحانه وتعالى أراد إظهار دينه وإعزاز نبيه فأتاح لأهل المدينة تقبل رسالة الإسلام.

^{١٥٥} ابن هشام ج ٢ ص ٨٩ .

^{١٥٦} تاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٩ .

هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى يثرب :

في بيعة العقبة الثانية تحدد وضع النبي - صلى الله عليه وسلم - بالنسبة لأهل يثرب، فقد أصبح بهذه البيعة واحداً منه دمه كدمهم وحكمه حكمهم، وأصبح من المنطقي أن ينتقل الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليعيش وسط أنصاره في يثرب وبدأ عليه السلام في الإعداد للهجرة واتخاذ أسبابها وترتيب أمورها تاركا موعدها لحين أمر الله سبحانه وتعالى، ولقد تكلف بأمور الإعداد أبو بكر الصديق بعد أن سأل الرسول الصحبة، وظل أمر هذه الترتيبات سرا كبيرا بين الرسول وصاحبه. وفي الليلة التي تجمهر فيها فتيان قريش ليقتلوا النبي - حفظه الله - خرج الرسول من بين أيديهم دون أن يشعروا به بعد أن ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب لكي يتولى رد الودائع التي كانت لدى رسول الله للقرشيين.

ويحكي ابن هشام كيفية خروج الرسول عليه السلام - قائلا : لما اجتمعوا له وفيهم أبوجهل بن هشام قال وهم على بابهم: ان محمدا يزعم إنكم ان تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنات كجنات الأردن. وان لم تفعلوا كان لكم فيه ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت عليكم نارا تحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال : أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم وأخذ الله تعالى على أبصارهم فلا يرونه فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلوا الآيات من "يس" "يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على سراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم " الى قوله تعالى : " فأغشيناهم فهم لا يبصرون " حتى فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من هذه الآيات ولم يبق منهم رجلا إلا قد

وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب ، فاتاهم أت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا : محمدا قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمدا ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق إلى حاجته ، أما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب . ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا في الفواش متسجيا ببرد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيقولون : والله إن لمحمدا نائما عليه برده . فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي رضي الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا (١٥٧).

ويروى ان هشام قصة أخرى عن هجرة المصطفى عليه السلام قائلا ان الله قد أذن لنبيه بالهجرة وكان أبو بكر - رضي الله عنه - رجلا ذا مال ، فكان حين استأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الهجرة فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا تعجل لعل الله يجد لك صاحبا قد طمع بان يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعني بنفسه حين قال ذلك ، فابتاع راحلتين ، فأحتبسها في داره يعلفهما إعدادا لذلك.

قال ابن اسحق : فحدثني من لا اهتم عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنهم جميعا - أنها قالت : كان لا يخطئ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتي بيوت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه ، أتانا رسول الله صلى

١٥٧ ابن هشام ج ٢ ص ٩١ - ٩٢ .

الله عليه وسلم بالهجرة في ساعة لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر قال :
ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قال : فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبو بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عني من عندك، فقال يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك ؟ فذاك أبي وأمي. فقال ان الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت : فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله : قال: الصحبة. قالت : فوالله ما شعرت قط قبل هذا اليوم أن أحدا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ ثم قال: يا نبي الله، أن هاتين راحلتين قد كنت أعددتها لهذا فاستأجرا عبد الله بن أريقط - رجلا من بني الدئل من بكر - وكانت أمه امرأة من بني سهم من عمرو، وكان مشركا - يذلها على الطريق فدفعنا إليهما راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن اسحق: ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحد حين خرج إلا على بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر. فأما على فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الودائع التي كانت عنده للناس. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليس بمكة أحدا عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته.

حينما علمت قريش بخروج الرسول من بين أيديهم هاجت واضطربت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حيا أو ميتا مائة ناقة، فذهبت تلك الرسل يمينا وشمالا لكنهم لم تظفر به.

اختفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه بغار ثور ثلاثة أيام حتى سكن الطلب عنهما وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى غنمه في المنطقة حتى يزيل آثار عبد الله، وتولت أسماء بنت أبي بكر تزويدهما بالطعام. وبعد الأيام الثلاثة جاءهما الدليل بالراحتين. وتوجه ثلاثتهما الى يثرب عبر طرق ملتوية حتى وصلوا الى قباء لبنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة من مولده، الموافق العشرين من شهر سبتمبر عام ٦٢٢ ميلادية . واستمر هناك أربعة أيام أسس فيها مسجد قباء. ولحق به في هذا المكان ابن عمه علي بن أبي طالب بعدما رد الأمانات الى أصحابها في مكة. خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قباء في وسط أصحابه من الأنصار والمهاجرين، وقد أدركته صلاة الجمعة وهو في الطريق فصلى بالناس لأول مرة، ثم تابع سيره الى يثرب فوصل إليها في السادس عشر من ربيع الأول، ونزل عند أبي أيوب خالد بن يزيد وكان أول أعماله أن شرع في بناء مسجده وبيتا له ملاصقا للمسجد. ومنذ ذلك الحين تبدأ مرحلة جديدة من النزاع الإسلامي تعرف بالطور المدني^(١٥٨). كما اتخذ عمر بن الخطاب

^{١٥٨} انظر تفاصيل الهجرة عند ابن هشام ج ٢ ص ٩٢ والطبري ج ٢ ص ٣٧٢، ابن الأثير ج ٢ ص ٧١.

رضي الله عنه من ذلك الحدث الخطير بداية للتاريخ عند المسلمين، وغدا هذا اليوم مهما بل غاية في الأهمية في التاريخ الإسلامي.

الطور المدني:

تضمن مجتمع المدينة حين وصول الرسول صلى الله عليه وسلم إليها عدة عناصر رئيسية هي :

١- المسلمون وينقسمون الى مجموعتين :

أ - المهاجرون وهم مسلمو مكة الذين هاجروا الى يثرب.

ب - الأنصار وهم من دخل الإسلام من أهل يثرب وينقسمون الى أوس

وخزرج.

٢ - اليهود وكانوا ينقسمون الى ثلاثة قبائل رئيسية هي :

أ - بنو قنيقناع. ب - بنو النضير. ج - بنو قريظة.

٣ - الوثنيون من الأوس والخزرج ممن لم يدخلوا الإسلام بعد.

ولذلك كان من أهم المشاكل التي واجهها الرسول عليه السلام بعد وصوله الى المدينة تتمثل في مسألتين أساسيتين الى جانب هدفه الرئيسي المتمثل في مواصلة الدعوة الى الله وهداية الناس.

وأولى هاتين المسألتين هي تنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار والثانية تنظيم العلاقة بين المسلمين وغير خاصة اليهود. ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعدة أعمال عظيمة في المدينة ، و التي غدت منذ ذلك الحين أول عاصمة إسلامية بل و أصبحت هي مركز الدعوة الى الإسلام ، و مقصد السفارات و الرحلات . و تحولت منذ ذلك الحين الى اسمها الجديد

(المدينة) أو (المدينة المنورة) . و قد ذكر ياقوت الحموي أن للمدينة تسعة و عشرون اسما منها : طيبة ، و المحبة ، و الحوبة ، و الناحية ، و المباركة ، و العاصمة ، و الشرفية ، و يثرب .

أهم أعمال الرسول صلى الله عليه و سلم بالمدينة :

١- المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار : نزل المهاجرون ضيوفا على أخوانهم في الدين من الأنصار و شاركوهم عملهم و رزقهم ، و لقد طلب الرسول من المسلمين أن يتأخوا في الله أي أن يتخذ كل واحد من المهاجرين أخا له من الأنصار و جعل هذا التآخي حقيقيا و اخذ بيد علي بن أبي طالب و قال هذا أخي . و يذكر ابن سيد الناس ، أن المؤاخاة كانت مرتين الأولى بين المهاجرين بعضهم و بعض قبل الهجرة و كانت على الحق و المواساة حيث أخي بينهم رسول الله صلى الله عليه و سلم أما الثانية فكانت حين نزل صلى الله عليه و سلم المدينة فأخي بين المهاجرين و الأنصار على المواساة و الحق في دار أنس بن مالك فكانوا يتوارثون بذلك دون القرابات أي أنه إذا مات الأنصاري ورثه المهاجر والعكس^(١٥٩) ظل التوارث بالمؤاخاة قائما حتى غزوة بدر و الى حين قول الله تعالى " وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله"^(١٦٠) فرجع كل مسلم الى نسبه وورثه قريبا . وعلى هذا النحو من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، توثقت وحدة المسلمين في المدينة بعد أن كان المسلمون فيها قبائل مختلفة

^{١٥٩} ابن سيد الناس ج ١ ص ١٩٩ .

^{١٦٠} الأنفال الآية ٧٥ .

فيما بينهم وأصبح المسلمون المتآخون يشكلون قوة خطيرة يحسب مشركوا مكة لها حسابا كبيرا (١٦١).

٢- العلاقة مع يهود يثرب : كتب الرسول - عليه السلام - كتابا ينظم فيه العلاقة بين المسلمين و غير المسلمين و خاصة اليهود ، و يتضمن الكتاب عدة أمور رئيسية أهمها :

أ - أن جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم و قبائلهم أمة واحدة من دون الناس و ان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

ب - قرر حرية العبادة لليهود " لليهود و للمسلمين دينهم و مواليتهم و أنفسهم ، كما فتح أمامهم باب الدخول في الإسلام و في هذه الحالة لهم ما للمسلمين و عليهم ما عليهم . أنة من تبعنا من يهود فان له النصر و الأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

ج - جعلت الصحيفة من رسول الله صلى الله عليه و سلم - حكما بين كل الأطراف في الخلاف دون رؤساء القبائل من العرب أو زعماء اليهود فقالت الصحيفة : و أنة ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والي محمد رسول الله .

و تعني هذه العبارة من جانب آخر أن الرسول عليه السلام قد وضع اللبنة الأولى في سبيل بناء الدولة الإسلامية ، الدولة التي لا تشتمل على المسلمين فقط لكن يقطن معهم فيها سكان الأديان السماوية الأخرى .

^{١٦١} عبد العزيز سالم: الدولة العربية ج ٢ ص ٨٢ .

د - تضمن الكتاب بعد ذلك نصوصا تبين العلاقة التي يجب ان تكون بينهم وبين قريش على وجه خاص لأنها كانت اكبر أعدائه في ذلك الحين ، وكذلك بينت الصحافة ما يجب ان يتبع في حالة الحرب، وقررت ان على كل جماعة نفقتها فقال : وان على اليهود نفقتهم وان بينهم النصر على ما حارب أهل هذه الصحيفة.

ويقرر الكتاب حرمة المدينة، أي انه يحرم فيها ما يحرم في مكة.

((نص كتاب الرسول عليه السلام))

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، انهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم^(١٦٢) يتعاقلون معاقلهم الأولى. وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، ولا يحالف مؤمن دونه. وان المتقين على من يفي منهم أو ابتغى دسيعة (عطية) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيدهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن. وإن ذمة الله وحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وانه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعض، وإن المؤمنين يبيئ بعضهم (يمنع ويكف على بعض بما نال دماءهم في سبيل

^{١٦٢} انظر تحليل د. سالم للكتاب في المصدر السابق المشار إليه ص ٨٤ .

الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك
مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اغتبط مؤمنا قَتَلَا
عن بينة فإنه قود به إلا ان يرضى ولي المقتول. وإن المؤمنين عليه كافة،
ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة
وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه
فإن عليه لعن' الله وغضبه يوم القيامة ... وإنه لا يخرج منهم أحدا إلا بإذن
محمد - صلى الله عليه وسلم - . وأنه لا يجوز على ثأر جرح، وإنه من
قتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم .. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة
من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده الى الله عز وجل وإلى محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة
وأثره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن من بينهم النصر على من
دهم يثرب. وإذا دعوا الى صلح يصلحونهم ويلبسونه فإنهم يصلحونه
ويلبسونهم، وإنهم إذا دعوا الى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين الا من
حارب في الدين الى أناس حصنهم من جانبهم الذي قبلهم.

٣ - بناء المسجد : بعد أن نزل الرسول عليه السلام في دار أبي أيوب
شرع في تأسيس مسجده وعمل فيه الأنصار والمهاجرون كما عمل فيه
الرسول بيديه الكريمتين.

وكان ذلك إشارة واضحة الى أهمية المسجد في الإسلام، وما من شك
ان المسجد كمؤسسة إسلامية قد لعب دورا هاما في حياة المسلمين وفي
التاريخ الإسلامي لان المسجد أصبح الى جانب كونه مخصصا للعبادة، مركز
للاجتماعات، ولل قضاء وللتعليم .. الخ. وكان المسلمون يجتمعون في المسجد
للصلاة لا ينادى بها أحد فيهم، فتكلموا مرة في ذلك الأمر لعلمهم يصلون الى

وسيلة ينادى بها للصلاة فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم اتخذوا قرنا "بوقا" مثل قرن اليهود. فقال عمر: أولا تتبعون رجلا ينادى للصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بلال - قم فنلدي بالصلاة، فكان إذا جاء وقت الصلاة يقول بلال: الصلاة جامعة، وكان من المنادين عبد الله من زيد من ثعلبه الأنصاري، فبينما هو بين النائم واليقظان يرى شخصا يلقيه الأذان - فحضر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقص عليه ما رأى فقال له: إنها لرؤيا حق، لقن ذلك بلالا فإنه أندى صوتا، ولما أذن بلال، حضر عمر، يجر رداءه فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله. وهناك آراء أخرى لبعض الفقهاء في قضية إثبات الأذان ولكن هذا هو أرجح الأقوال.

جهاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلال الطور المدني:

"تبينا من هذه الدراسة مدى الأذى الذي لقيه الرسول والمسلمون من القرشيين والذي تصاعد إلى حد إجبار المسلمين على الهجرة أولا إلى الحبشة وثانيا إلى يثرب وخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب وحيدا إلا من عون الله وصحبه وصديقه أبي بكر بن قحافة. ومع كل ذلك لم يواجه الرسول هذا العنف بالمثل بل تلمس طريق دعوته بالحسنى والقول الطيب وتحمل الأذى والصبر على المكروه ولقد ظل على ذلك ما يقرب من ثلاث عشرة سنة يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة. وحثه الله تعالى على التذرع بالصبر بما أنزله عليه من الآيات مثل قوله تعالى "فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم" (١٦٣).

^{١٦٣} الأحقاف الآية ٣٥.

وبعد ان وصل المسلمون الى درجة معقولة من المنعة وتفاقم أذى قريش سمح الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم والجهاد في سبيل دينهم وذلك في آيات نزل بعضها في مكة أواخر الفترة المكية وبعضها في المدينة وقد لخص الدكتور حسن إبراهيم حسن الأسباب التي يرى ان الله قد شرع من أجلها الجهاد فيما يلي: -

١ - الدفاع عن النفس، وفي ذلك يقول الله تعالى "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله" (سورة الحج: ٢٩: ٢٢-٤٠).

وقوله تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث تقفتموهم و أخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلكم فاقتلوهم كذلك جزاء للكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين" (سورة البقرة ١٩: ٢-١٩٣). (وما لكم لا تقتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) (سورة النساء ٤ : ٧٥). من ذلك نرى ان القتال لم يشرع إلا دفاعا عن النفس وما الى ذلك حفاظا على العرض والمال.

٢ - تأمين الدعوة والدفاع عنها أمام من يقف في سبيلها، حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام الفتنة عن دينه، كما حدث لعمار بن ياسر وبلال وغيرهما من المستضعفين من المسلمين.

ولما تمألا أهل مكة مع غيرهم من العرب على قتال الرسول، أمره الله بقتال المشركين كافة (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) (سورة التوبة ٩ : ٣٦).

ولما نقض يهود المدينة العهد الذي أخذه الرسول عليهم وانضموا إلى مشركي قريش لقتاله، نزل قوله تعالى "و إما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين" (سورة الأنفال ٩ : ٥٨).

وقد وعد الله المسلمين النصر أعدائهم وبشرهم بالنعيم في الآخرة فقال "قليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا والآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما" (سورة النساء ٤ : ٧٤)، وقوله تعالى "ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فإنهم يآلمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون" (سورة النساء ٤ : ١٠٤)، وقوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا، فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة بآء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير" (سورة الأنفال ٨ : ١٥ - ١٦).

بدأ الرسول عليه السلام بعد ذلك إرسال سرايا والبعوث والخروج في الغزوات للتصدي لقوافل قريش المارة بالقرب من المدينة وكان أول لواء عقده في الإسلام كما يقول ابن هشام سرية أرسلها بقيادة عبيده بن الحارث

بن عبد المطلب وتتكون من ٦٠ الى ٨٠ مهاجرا ليس فيهم من الأنصار أحد. فسارت السرية حتى بلغت مكانا يسمى ماء الحجاز فلقى هناك جمعا من قريش فلم يكن بينهم قتال^(١٦٤) أما الطبري فانه ينقل عن الواقدي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لحمزة بن عبد المطلب لواء ابيض في ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض عير قريش وانه لقي أبا جهل في ثلثمائة رجل فحجز بينهم عدى بن عمرو الجهني فافترقوا ولم يكن بينهم قتال^(١٦٥).

واصل رسول الله عليه الصلاة والسلام إرسال السرايا والبعوث وخوج بنفسه لأول مرة الى منطقة ودان يريد قريشا فوادع بني ضمير وعرفت هذه الغزوة بالأبواء^(١٦٦) وتكررت هذه الغزوات من رسول الله وإرساله السرايا مما سبب لقريش قلقا شديدا وبدأت ترى بعينها ما كانت تخشاه من قبل. ولذلك نجد ان التوتر يسود مكة وبرزت فكرة ضرورة تسوية الحساب مع المسلمين بالقوة لكي تبقى لقريش هيبتها ومكانتها بين العرب وترتب الى ذلك وقوع عدة محارك هامة بين المسلمين والمشركين نشير إليها باختصار فيما يلي:-

١- غزوة بدر الكبرى:

وتعرف بهذا الاسم تميزا لها عن غزوة بدر الأولى والتي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة العشيرة بعدة ليالي وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية من الهجرة، لكي يلحق بكرز بن جابر

^{١٦٤} ابن سيد الناس ج ١ ص ١٧١.

^{١٦٥} الطبري ج ٢ ص ٤٥٢.

^{١٦٦} المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠٤.

الفهري والذي أغار على المدينة ولكن الرسول لم يلحق به. وهناك من جعل بدرا الأولى في ربيع الأول من السنة الأولى الهجرة (١٦٧).

علم رسول الله عليه السلام بمقدم أبي سفيان بن حرب على رأس عير لقريش تحتوي على معظم ما لها وتجارتها و أراد الرسول عليه السلام الاستيلاء على القافلة تعويضا للمهاجرين عما تركوه من الأموال في مكة أو ما استولى عليه القرشيون ولهذا تدب أصحابه للخروج معه قائلا لهم: "هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ان ينفلكموها" فانتدب الناس فحف بعضهم وتقل بعضهم وذلك انهم لم يظنوا ان رسول الله عليه السلام يلقى حربا" (١٦٨). وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلا من المهاجرين والأنصار.

أحس أبو سفيان بالخطر المتربص بالقافلة فأرسل يستغيث بقريش فخرج المشركون من أهل مكة سراعا ومعهم القيان والدفوف ووصل عددهم الى حوالي تسعمائة وخمسين فردا أما أبو سفيان فقد انحاز الى طريق آخر وتمكن من النجاة بالقافلة وأرسل الى قريش يعلمها بنجاة القافلة ويطلب منها العودة الى مكة. لكن العنجهية والحرص على مكانة قريش بين القبائل جعل القرشيين يصرون على إظهار مكانتهم ولذلك حينما أرسل لهم أبو سفيان قائلا: "إنما خرجتم لئمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا" قال أبو جهل بن هشام: "والله لا نرجع حتى نرد بدرا. فنقيم ثلاثا فنحرق الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان. وتسمع بنا العرب

١٦٧ الطبري ج ٢ ص ٤٠٧، ابن سيد الناس ج ١ ص ٢٧٢.

١٦٨ ابن سيد الناس ج ١ ص ٢٤٢.

وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها". ولكن فريقا من المشركين عاد إلى مكة وخاصة بنو زهرة وبنو عدي وعاد طالب بن أبو طالب وسار باقي القوم حتى أتوا بالقرب من بدر. أما رسول الله عليه السلام فقد سار في أصحابه وعدتهم حوالي الثلاثمائة رجل حتى وصل إلى أدنى ماء من بدر فنزله فأشهر عليه حباب من المنذر أن يسير حتى يصل إلى أدنى ماء من القوم. حتى يستطيع أن يمنع المشركين من استغلال الماء بينما يكون ميسرا للمسلمين. واستجاب رسول الله للرأي والمشورة فنزل أدنى ماء من القوم ثم غور غيره وبنى له رسول الله حوضا على القليب الذي نزل عليه. وكذلك اقترح سعد بن معاذ أن يبنى للرسول عليه السلام عريشا يكون فيه خلف الناس يشجعهم ويأمن فيه على نفسه "لأنك يا رسول الله. إن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على زكائك فلجقت بمن ورائنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك". فأثنى عليه رسول الله عليه السلام ودعا له بالخير ثم بنى له عرشا فكان فيه (١٦٩) استشهاده عليه السلام المهاجرين والأنصار في القتال فوجد عندهم الثقة والتأييد والإصرار على الجهاد في سبيل الله وكانت هذه المشورة حين علم بخروج قريش للقتال. فتكلم عمر وأبا بكر فاحسنا، وقال له المقداد بن عمرو: "امض يا رسول الله لما أمرك به الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجا لدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا. ثم قال أشيروا علي أيها الناس، و إنما كان يريد

^{١٦٩} ابن هشام ج ٢ ص ١٩٠.

الأنصار لان العدد فيهم وللشروط التي كانت بينه وبينهم فلم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونه مادام في ديارهم. فكان صلى الله عليه وسلم يتخوف انهم لا يرون نصرته إلا على من دهمه في المدينة من عدوه، وليس من حقه عليهم ان يسير بهم الى عدو لهم خارج مدينتهم. ولكن رد عليهم سعد بن معاذ رضي الله عنه والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال: اجل : فقال له سعد : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل وما نكره ان تلقى بنا العدو غدا، انما لصبر في الحرب صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله فسر عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال سيروا وابشروا فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني انظر الى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى وصل قريبا من بدر.

التقى الجمعان عند ماء بدر في السابح عشر من شهر رمضان في العام الثاني لهجرته صلى الله عليه وسلم وكاد الأمر ينتهي دون قتال حيث جرت بين القريشيين دعوة الى السلم تزعمها حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة الذي قام في الناس خطيبا وقال: " يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا عليه السلام و أصحابه شيئا والله لان أصبتموه لا يزال الرجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله ورجلا من عشيرته فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب فان أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضوا منه مما تريدون" (١٧٠) لكن أبا جهل رفض الفكرة وعير

^{١٧٠} ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦.

عتبة بالخوف أثار مسألة الثأر لعمر بن الحزرمي الذي سبق ان قتله
سرية مسلمة بقيادة عبد الله من جحش. وكان أمر الله بالمعركة.

تراءى الجيشان: فلم يكن بد من الحرب صبيحة يوم الثلاثاء ١٧
رمضان (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة - حسب القواعد
العربية - فخرج من صفوف المشركين ثلاثة: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس
وابنه الوليد و أخوه شيبه فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار
فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفانا مني بني عمناء فخرج لهم
حمزة بن عبد المطلب وعبيده بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبي طالب
فكان عبيده بازاء عتبة وحمزة بازاء شيبه وعلى بازاء الوليد فأما حمزة
وعلى فلم يمهلأ صاحبيهما ان قتلاهما -وأما عبيده وشيبه فاختلفا ضربتين
كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فتغلبا عليه واحتملا
عبيده وهو جريح الى صفوف المسلمين، ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم
تطل الحرب في ذلك النهار، فان الهزيمة قد حلت بصفوف قريش، بعد ان
قتل جمع صناديد هم فيهم أبو جهل بن هشام رأس هذه الفتن كلها واسر من
قريش نحو السبعين وهرب الباقيون لما انتهت الموقعة أمر عليه السلام بدفن
الموتى من قريش والمسلمين، وكانت هذه عادته في حروبه، ثم أمر بجمع
الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين الى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما -
وهو عبد الله بن رواحه - الى أهل العالية، والآخر - يزيد بن حارثة - الى
أهل السافلة ثم عاد عليه السلام الى المدينة، وفي عودته قتل رجلين من
الأسرى أحدهما النضر بن الحارث، لأنه كان ضاريا في عداوة المسلمين
بمكة يكثر آذاهم ويعلم القيان الشعر الذي يهجو به المسلمون ليغنيين به،
والثاني عقبة بن أبي معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من
الأسرى غيرهما.

ولما أقبل بالأسرى فرقهم بين أصحابه، وقال استوصوا بهم خيرا قال أبو عزيز بن عمير: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدم غداؤهم أو عشاؤهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها قال فاستحي فأرادها على أحدهم فيردها على ما يمسه وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر.

ثم استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه على قبول الفداء من قريش في الأسرى، وكان بعض الصحابة ومنهم عمر وسعد بن معاذ - يريدون قتلهم، وكان رأى أبي بكر وأكثر الصحابة لا يريدون ذلك، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضى عليه السلام رأى أبي بكر، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصا انه لم يسبق لنبي أن أكل شيئا من الغنائم، فإن موسى عليه السلام كان يحرقها ولا يبقى شيئا منها لذلك كان هذا القرار سببا لعتاب الله سبحانه وتعالى بقوله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد عرض الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم) وكان رأى سعد حين القتال ان المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله ان يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ان يعلم الله في قبولكم خيرا مما اخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم).

علمت قريش بما كان فأرسلت في فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسله ومنهم من بغير فداء منهم أبو عزة الجمحي الشاعر بعد ان تعهد ان لا يكون

ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذي يكتبون ان يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة.

وكان لهذه الغزوة أثرها القوي في رفع مكانة المسلمين بين العرب كما إنها كانت أول صدام جدي بين القوتين الإيمان والشرك نصر الله خلالها الإيمان وخذل الشرك والمشركين وبلغ من اعتزاز المسلمين بها ان أسموها غزوة الفرقان لان الله سبحانه فرق بها بين الحق والباطل^(١٧١).

كان لغزوة بدر وقع الصاعقة على قريش خاصة والمكيين عامة لأنها ضربتها في صميمها وأضاعت هيبتها بين العرب. وليس أدل على ذلك من ان قريش منعت البكاء على القتلى حتى تتأثر لهم وحتى لا يشمت المسلمين فيهم^(١٧٢) كما أنها رصدت جميع أموال القافلة التي نجت لحرب رسول الله والقضاء عليه. وكان لابد من واقعة أخرى تسعى لها قريش وتستعد من أجلها.

(٢) غزوة أحد :

خرجت قريش في العام التالي لقتال المسلمين بقيادة أبي سفيان بن حرب على رأس جيش يضم حوالي ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وممن خرج لمساعدتهم على إدراك ثأرها من نقيف وكنانة وتهامة والأحابيش. كما اخرجوا معهم نساءهم لتحميمهم في المعركة وعلى رأسهن هند زوجة أبي

^{١٧١} اليعقوبي ج ٢ ص ٣٤.

^{١٧٢} حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ١ ص ١٠٩.

سفيان واخرج جبير من مطعم غلامه وحشي الحبشي خصيصا لقتل حمزة من عبد المطلب.

ويصف ان هشام خروج قريش على النحو التالي:-
خروج قريش :

فخرجت قريش بحدها وحديدها واحابيشها ومن تابعها من بنى كنانة، وأهل تهامة وخرجوا بالظعن - أي بالنساء - التماس الحفيظة، وألا يفروا فخرج أبو سفيان بن حرب، وهو قائد الناس، بهند بنت عتبة وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمر لين عمير الثقفية، وهي أم عبد الله بن صفوان بن أمية.

قال ابن هشام : ويقال : رقية.

قال ابن إسحاق : وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج وهي أم عبد الله بن عمرو، وخرج طلحة بن أبي طلحة وأبو طلحة عبد الله بن عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية وهي أم بني طلحة: مسافع والجلال وكلاب، قتلوا يومئذ هم وأبوه، وخرجت خنلس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بني مالك بن حسل مع ابنها أبي عزيز بن عمير وهي أم مصعب بن عمير، وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نساء بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة. وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشي أو مر بها قالت : ويها أبا دسمة أشف، واستشف وكان وحشي يكنى بأبي دسمة، فاقبلوا حتى نزلوا بعينين، بجبل ببطن السبخة قناة شفير الوادي، مقابل المدينة.

رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشاورته القوم :

قال فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين : أتى رأيت والله خيرا، رأيت بقرأ ورأيت في ذباب سيفي ثلما، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة.

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رأيت بقرأ لي تذبح ؟ قال: فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي، فهو رجل من أهل بيتي يقتل.

قال ابن إسحاق: فان رأيت ان تقيموا ان تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فان أقاموا أقاموا بشر مقام، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان رأى عبد الله ابن أبي سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى رأيه في ذلك، وألا يخرج إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين ممن اكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره، ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا الى أعدائنا، لا يرون أنا جنبنا عنهم وضعفنا؟ فقال عبد الله بن أبي سلول: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فو الله ما أخرجنا منها الى عدو لنا قط إلا أصحاب منسا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فان أقاموا أقاموا بشر محبس وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا. فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس لامته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو، أحد بني النجار فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج عليهم،

وقد ندم الناس، وقالوا: استكر هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لنا ذلك.

فلما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا يا رسول الله: استكر هنالك ولم يكن ذلك لنا، فان شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته ان يضعها حتى يقاتل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه. قال ابن هشام: واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس.

انخذال المنافقين:

قال ابن إسحاق: حتى إذا كانوا بالشروط بين المدينة واحدا، انخزل عنه عبد الله بن أبي سلول بثلاث الناس، وقال أطاعهم وعصاني، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرى انه يكون قتال. قال: فلما استعصوا عليه وأبوا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغنى الله عنكم نبيه.

التقى الجمعان وعسكر المسلمون بجوار جبل أحد ناحية سفحه المواجه للمدينة والمنحدر الى بطن الوادي الذي عسكرت فيه قريش، و أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحرم المشركين من قوة فرسانهم والتي كانت تقدر بحوالي مائتي فارس فجعل على الجبل عددا من رماة المسلمين يقدر عددهم بخمسين راميا و أمر عليهم عبد الله ابن جبير وقال له: انضح

عنا الخيل بالنبل لا يأتون من خلفنا ان كانت لنا أو علينا. وأثبت مكانك لا نؤتين من قبلك (١٧٣).

كانت حماسة المسلمين في أوجها ورغبتهم صادقة في إحراز النصر كما حدث يوم بدر وكان لشدة هجمتهم ان أوقع الله الهزيمة في صفوف المشركين فتقهقروا وهربوا وبدا المسلمون في جمع الغنائم فلما رأى الرماة ذلك أسرعوا لمشاركة المسلمين جمع الغنائم مخالفين بذلك أوامر الرسول وكانت فرصة اغتتمها خالد بن الوليد قائد خيالة قريش فدار من خلف المسلمين وهاجمهم من حيث لا ينتظرون.

اضطرب المسلمون لهذه المفاجأة واختل نظامهم وكثرت القتلى بين صفوفهم، وقتل مصعب بن عمير بين يدي الرسول وصاح قاتله: " ألا ان محمدا قد قتل " وسقط رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حفرة، وكسرت له سنتان، وجرح في شذقيه جرحا شديدا، وقتل وحشي حمزة بن عبد المطلب ومثلت بجنته هند بنت عتبة، واستشهد من المسلمين اكثر من سبعين شهيدا ويصف الطبري الموقف بقوله: " وكان المسلمين لما أصابهم من البلاء أثلاثا: ثلث قتل وثلث جريح وثلث منهزم، وقد أجهده الحرب حتى ما يدرى ما يصنع .. (١٧٤) .

كان خبر وفاة النبي الذي انتشر بين القرشيين أحد الأسباب التي جعلت القرشيين ينفون عن القتال على أساس انهم تأروا لأنفسهم مما وقع

^{١٧٣} ابن هشام ج ٣ ص ١٨ ابن كثير ج ٢ ص ١٠٥.

^{١٧٤} الطبري ج ٢ ص ٥١٤.

يوم بدر فكفوا عن القتال و بدءوا يستعدون للعودة الى مكة، وتأكد أبو سفيان من ان النبي - عليه السلام - مازال حيا و أدرك انه إنما تمكن فقط من الثلث ليوم بدر دون ان يعنى ذلك عودة مكانة قريش الى ما كانت عليه قبل بدر وان كفة المسلمين مازالت تعادل كفة المشركين. ومن هنا كان لابد من يوم ثالث تحسم فيه الأمور لصالح المكيين حتى تعود لقريش مكانتها بين العرب. لذلك قال أبو سفيان للمسلمين قبل قفوله الى مكة: " ان موعدكم بدر للعام المقبل "، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه: قل نعم هي بيننا وبينك موعد " (١٧٥).

استشهاد حمزة رضى الله عنه :

دعا جبير بن مطعم غلاما حبشيا يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها فقال له: اخرج مع الناس، فان أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمه بن عدى، فأنت عتيق، وهناك آراء أخرى بان التي استأجرته لقتل حمزة رضى الله عنه هي هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب.

كان حمزة فارسا لا يشق عليه غبار، أوقع في صفوف المشركين رعبا هائلا، وانتصر على كل من تصدى له، وتربص به وحشي حتى إذا وجد فرصة اهتبلها وسدد إليه طعنة رمح قاتله لم ينج منها أسد الله حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ولخظورة هذا الحادث، وتأثيره على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يجدر بنا ان نورد رواية ابن هشام عن حبشي وقتله لحمزة وما جرى لحبشي بعد ذلك قال ابن هشام نقلا عن ابن اسحق:

١٧٥ الطبري ج ٢ ص ٥٢٧.

قال: عبد الله بن الفضل خرجت وزميلا لي في عمل فلما قفلنا مررنا بحمص - وكان وحشى، مولى جبير بن مطعم، قد سكنها و أقام بها فلما قدمناها، قل لي عبيد الله بن عدى: هل لك في ان تأتي وحشا فنسأله عن قتل حمزة كيف قتله ؟ قال: قلت له: ان شئت. فخرجنا نسأل عنه بحمص، فقال لنا رجل ونحن نسأل عنه: إنكما ستجدانه بفناء داره، وهو رجل غلبت عليه الخمر، فان تجداه صاحيا تجدان رجلا عربيا، وتجدان عنده بعض ما تريدان، وتصيبا عنده ما شئتما من حديث تسألانه عنه، وان تجداه وبه بعض ما يكون به، فانصرفا عنه ودعاه، قال فخرجنا نمشي حتى جئناه، فإذا هو بفناء داره على طنفسة له فإذا شيخ كبير مثل البغات.

قال ابن هشام: البغات ضرب من الطير الى السواد.

فإذا هو صاح لا باس به. فلما انتهينا إليه سلمنا عليه، فرفع رأسه الى عبيد الله بن عدى، فقال: ابن لعدى بن الخيار أنت ؟ قال نعم: أما والله ما رايتك منذ ناولتك أمك السعدية التي أرضعتك بذي طوى، فأني ناولتك وهى على بغيرها فأخذتك بعرضيك فلمعت لي قدماك حين رفعتك إليها، فو الله ما هو إلا ان وقفت على فعرفتهما. قال: فجلسنا إليه، فقلنا له: جئناك لتحدثنا عن قتلك حمزة، كيف قتله ؟ فقال: إما إني سأحدثكما كما حدثت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألني عن ذلك، كنت غلاما لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش الى حد قال لي جبير. ان قتلت حمزة عم محمد بعمرى فأنت عتيق قال: فخرجت مع الناس وكنت رجلا حبشيا لقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئا ! فلما التقى الناس خرجت انظر حمزة واتبصره، حتى رايت في عوض الناس مثل الجمل الأوراق، يهد الناس بسيفه هذا، ما يقوم له شيء، فو الله أنسى لا تهيا له، أريده واستتر منه بشجرة أو حجر لأدنو منه إذ تقدمني إليه سباع

بن عبد العزي، فلما رآه حمزة قال له: هلم الى يا ابن مقطعة البظور، قال، فضربه ضربة كأن ما اخطأ رأسه. قال: وهزرت حربتي حتى إذا رضيت منها. دفعتها إليه، فوقعت في ثنيته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيت فأخذت حربتي، ثم رجعت الى العسكر، فقعدت فيه ولم يكن لي بغيره حاجة، و إنما قتلته لأعتق. فلما قدمت مكة أعتقت ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هربت الى الطائف فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعيت علي المذاهب فقلت: الحج بالشام واليمن، أو ببعض البلاد: فو الله أني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك و الله ما يقتل أحد من الناس دخل في دينه، وتشهد شهادته.

فلما قال لي ذلك، خرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فلم يرعه إلا بي قائما على رأسه أشهد بشهادة الحق، فلما رأيته قال: أوحشي؟ قلت يا رسول الله قال: أقعد فحدثني كيف قتلت حمزة، قال فحدثته كما حدثتكما، فلما فرغت من حديثي قال: ويحك! غيب عني وجهك. فلا أرينك، قال: فكنت أتكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان لئلا يراني، حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحشي يقتل مسيلمة :

فلما خرج المسلمون الى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم، و أخذت حربتي التي قتلت بها حمزة ! فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائما في يده السيف وما اعرفه، فتهيأت له، وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريد فهزت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وشد عليه الأنصاري فضربه بالسيف، فربك

اعلم أننا قتله فان كنت قتلتَه: فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قتلت شر الناس.

قام - رسول الله صلى الله عليه وسلم - بدفن شهداء يوم أحد بعد ان صلى عليهم ثم انصرف عائدا الى المدينة، وفي اليوم التالي أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بالاستعداد للقتال وخرج من شهد معه أحد حتى وصل الى حمراء الأسد خشية ان يكر القرشيون على المدينة وبلغ ذلك القرشيين فعادوا الى مكة.

وعند انصراف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حمراء الأسد ظفر بأبي عزة الجمحي الذي من عليه بعد بدر، فقال له أقلني يا محمد فقال صلى الله عليه وسلم، والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمدا مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ثم أمر بضرب عنقه. والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلا أربعة من المهاجرين وباقيهم من الأنصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلا.

انزل الله في هذا اليوم ستين آية من القرآن في سورة آل عمران، وهي السورة الثالثة من أول قوله تعالى " وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مآعذ القتال و الله سميع عليم " الى قوله " فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم " .

وقد جمعت هذه الآيات أمورا : (١) اجمل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحد . (٢) ان صفة الصبر وعلو النفس ليتبين أثرهما إلا عند النكبات. (٣) توبيخ لهم بالطف إشارة على ما كان من ضعفهم حينما أشيع ان محمدا

قتل. (٤) بيان الأسباب الحقيقية لما كان يوم أحد "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحثونه بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم و الله ذو فضل على المؤمنين". وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام والروح التي بها يستحق الظفر، وهي الفشل والتنازع والعصيان. (٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوه إلى الثبات والصبر. (٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين اكثروا من غمز المسلمين والشماتة بهم. (٧) إعلان العفو عن المنهزمين "ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استذلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حلیم" الثناء على شهداء الموقعة والأخبار انهم "أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعم من الله وفضل وان الله لا يضيع اجر المؤمنين" وأخيرا أشار إلى ما كان من خروجهم ثاني يوم أحد بعد ان أصابهم القرع ووعدهم الذين احسنوا منهم واتقوا أجرا عظيما.

وقد قيل في هذه الموقعة كثيرا من الشعر العربي، قالتها قريش والمسلمون: نقله ابن هشام في سيرته.

ولقد كانت غزوة أحد درسا لا ينسى علمهم الطاعة والاتحاد، ومحص قلوبهم وزادهم أيمانا على أيمانهم وكانت من ناحية أخرى فرحة لغير المسلمين من اليهود والمشركين حتى انهم استهزءوا بالمسلمين، ونظروا إليهم بشماتة واستخفاف مما ترتب عليه قيام المسلمين بحرب ليهود بنى النضير وإجلاتهم عن المدينة، وقد سبق لهم إجلاء بنى قوينقاع بعد غزوة

بدر، ولم يتبقى في المدينة من اليهود إلا بنو قريظة الذين قاتلهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الأحزاب، وسنيين موقف المسلمين من اليهود فسي الصفحات التالية.

٣ - غزوة الأحزاب:

كان لقريش ان تستعد لهذه الغزوة استعدادا يكفل لها النصر النهائي على المسلمين بعد ان ثارت يوم أحد ليوم بدر ولذلك لم تذهب في العام التالي كما قال أبي سفيان، وخرجت في العام الخامس من هجرة الرسول في جيوش. لم ترها شبه الجزيرة العربية من قبل بقيادة أبي سفيان بن حرب وصل عددها الى اكثر من عشرة آلاف مقاتل تضم قريشا وحلفائهم و من اليهود ومن غطفان. سمع الرسول عليه السلام بهذه الأخبار فشاور أصحابه، وكان الرأي هذه المرة متفقا على الدفاع عن المدينة من داخلها، وأشار سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة من شمالها حيث قامت الجبال بحمايتها من الجهات الأخرى.

قام الرسول - عليه السلام - والمسلمون بحفر الخندق وفرغوا منه قبل وصول القرشيين، الذين قاموا بحصار المدينة من الخارج بينما وقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون يدافعون عنها من داخلها.

في تلك اللحظات العصيبة تمكن حي ابن اخطب زعيم يهود بنى النضير من إقناع كعب بن أسد زعيم بني قريظة بنقد عهده مع الرسول والاشتراك مع قريش في القضاء على الإسلام والمسلمين. ورغم تردد كعب في بداية الأمر إلا انه رأى في ذلك فرصة سانحة لشفاء ما في قلوب اليهود من غل على المسلمين، وحين شاهد ضخامة جيش قريش ومن معها و تأكد

من انتصارهم على المسلمين. نقض عهده مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - واتحاز الى المشركين وكان هذا موقفا صعبا يصفه ابن الأسير بقوله " فعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف وآتاهم عدوهم من فوقهم ومن اسفل منهم ونجم النفاق من بعض المنافقين ^(١٧٦) " كان الموقف حرجا، وحاول الرسول - صلى الله عليه وسلم - تفتيت وحدة الأحزاب فأرسل الى غطفان يعرض عليها ثلث ثمار المدينة على ان ترجع، ولكن رفض الأنصار وفضلوا الجهاد. وظل حصار المشركين للرسول ومن معه حوالي شهر كان طعمه بالنسبة للمسلمين مر المذاق، صعبا، لكن الله سبحانه وتعالى شملهم برعايته حين جاء نعيم بن مسعود الأشجعي الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلن إسلامه فطلب إليه الرسول ان يغزل عنه لان الحرب خدعة وكان سيدا في قومه ومعروف بين القرشيين واليهود فذهب الى بنى قريظة وحظرهم من خطاهم في تعاونهم مع قريش دون ضمان في أيديهم من جانب القرشيين، وقال له "قد ظاهرتم قريشا وغطفان على حرب محمد، وليسوا كأنتم، البلد بلدكم به أموالكم ونساءكم لا تقدرون ان تتحركوا عنهم ٠٠ وليس الأمر كذلك بالنسبة لقريش" ^(١٧٧) ونصحهم بان يطلبوا من قريش وغطفان رهائن تكون عندهم حتى يضمنوا ما بينهم من تحالف، فرأى اليهود ان ذلك رأى سديد وعملوا به.

أما نعيم فقد حذر قريشا وغطفان من ان اليهود قد ندموا على نقضهم عهدهم مع محمد وانهم سيطلبون منكم عددا من الرهائن سيقومون بتسليمها

^{١٧٦} ابن الأثير ج ٢ ص ١٢٣.

^{١٧٧} نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٢.

إليه حتى يثبتوا له بقاءهم على حلفهم معه فان طلبوا منكم رهائن فلا تعطوهم.

وكانت تلك إرادة الله، فقد أرسل أبو سفيان الى بنى قريظة يطلب منهم القتال فرفضوا إلا ان يعطوهم رهائن من بينهم فرفضت ذلك قريشا وغطفان. وتبدد الحلف الذي كان بين الفريقين.

يئس القريشيون من الحصار، و أرسل الله الرياح تغلب قذورهم وتتزع خيامهم، فرفعوا الحصار، وعادوا الى مكة دون تحقيق غرضهم أدرك رسول الله روعة هذا النصر الإلهي، وان قريشا لن تتمكن مرة أخرى من العودة إليه بمثل هذه الإعداد فقال: اليوم نغزوهم ولا يغزونا^(١٧٨).

موقف الرسول عليه الصلاة والسلام من اليهود:

سبق ان أشرنا الى قيام المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بوضع كتاب يحدد فيه العلاقة بين المسلمين و اليهود، وارتضى الجميع ذلك بل ودخل بعضهم في الإسلام ومنهم عبد الله ابن سلام رضي الله عنه، وكان حبرا عالما من سادة اليهود، واسلم بإسلامه أهل بيته ثم لم يلبث اليهود ان نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وافصحوا عن عدائهم له، وبدءوا يحاربونه بسلاح الدس والخديعة، وخاصة عندما رأوه ينجح في توثيق الصلة بين الأوس والخزرج ويذيل ما كان بينهم من عداوة وشقاء، كما أشعرهم بالعجز ما توصل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من مؤاخاة بين

^{١٧٨} ابن الأثير ج ٢ ص ١٢٦.

المسلمين المهاجرين وإخوانهم من الأنصار، وهي المؤاخاة التي جعلت من المسلمين قوة كبيرة تعجز عن مواجهتها أي قوة أخرى في المدينة، فدخل بعضهم في الإسلام نفاقا وخاصة بعض أهل بني قوينقاع، واخذوا يشجعون المنافقين من الأوس والخزرج على تكذيب النبي عليه السلام، والسخرية به وبدينه وجاء القرآن الكريم كاشفا للكثير من زيفهم ونفاقهم وخداعهم. و أحاط الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بما تتطوي عليه قلوب هؤلاء المنافقين فأخذ في الاحتراز منهم والجذر من كيدهم.

وجاء أمر الله سبحانه وتعالى الى نبيه بان يتحول بالقبلة الى البيت الحرام في مكة المحرمة بعد ان كان يصلى الى بيت المقدس ليكون بمثابة الشرارة التي أشعلت غضب اليهود، وجعلتهم يفصحون علانية عن كراهيتهم لرسول صلى الله عليه وسلم وحاولوا ان يثتوا رسول الله عن تغيير القبلة، ودعوه الى عودته الى قبلة بيت المقدس لعلهم يصدقونه ويتبعونه فنزل قول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى سراط مستقيم * وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم ان الله بالناس لرعوف رحيم * قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون * ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما

تبعوا قبلك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك إذا لمن الظالمين " (١٧٩).

اندفع اليهود بعد ذلك يثيرون بزور الشقاق بين المسلمين ويشككونهم في عطيتهم، ويسخرون من مبادئهم كما عمدوا الى إثارة الخلافات القديمة والحزابات التي كانت قائمة بين الاوس و الخزرج حتى كاد الفريقان ان يقعوا في الفخ ووصل الأمر بهما الى الالتجاء الى السلاح والمناداة بالقتال لولا ان تداركهما الله برحمته وحنكة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بصرهم باخوة الدين وفرقة الجاهلية فأدركوا عمق الهوة التي كانوا سيقعون فيها، وبكوا، وتعانقوا.

وكانت نتيجة معركة بدر سببا آخر لا يغار صدور اليهود على المسلمين فعمدوا الى الطعن في محمد - صلى الله عليه وسلم - وفي المسلمين، وبغوا، وقطعوا ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود حتى وصل بهم الأمر الى القول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - "يا محمد لا يغرنك ما لقيت، انك قهرت قوما أغمارا. وانا و الله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن انك لن تقا تل مثلهم. وهكذا ارتفع هدير الصدام بين الفريقين. ومضت الأمور على النحو التالي:

يهود بنى قوينقاع :

قصدت امرأة من المسلمين سوق بنى قوينقاع لحاجة لها عند صائغ منهم، وكان هؤلاء القوم من اشد قبائل اليهود بغيا على المسلمين، وجلست

١٧٩ البقرة : الآيات ١٤٢ - ١٤٥.

المرأة تنتظر انتهاء الصائغ من إصلاح حليها، فجاء يهودي من بني قوينقاع وجلس من خلفها وعبث بثيابها دون أن تظن وظهرت بعض عروتها عند قيامها، وضحك عليها من رآها فأخذت الحمية رجلا مسلما كان شاهدا فهجم على اليهود على المسلم فقتلوه، ونبذوا عهد النبي بعد ذلك فنادى رسول الله في المسلمين، وخرج لحصارهم فتحصنوا داخل ديارهم فأقام عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لمدة خمسة يوما حتى أرغمهم على الاستسلام والنزول على حكمه وقضائه، فأمر فربطوا من أكتافهم، ولكنه صلى الله عليه وسلم أمر بفك وثاقهم بعد أن توسط فيهم عبد الله بن سلول على شرط أن يخرجوا من المدينة بأموالهم فتوجهوا شمال الحجاز ونزلوا بمنطقة أذرعاء.

بنو النضير :

بعد حادث بئر معونة المشنومة في السنة الرابعة من الهجرة ومقتل عدد من المسلمين هناك، ونجاة عمرو بن أمية الضميري والذي حاول الرجوع الى المدينة فلقى رجلين من بني عامر عقدا من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا، ممن أنتما؟ فقالا من بني عامر، فأملهما حتى إذا ناما، عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثارا من بني عامر انتقاما لأصحابه، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد قتلت قتيلتين لأدينيهما.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بني النضير يستعينهم في دية زينك القتيلين من بني عامر الذين قتل عمرو بن أمية الضميري للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما: وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد و حلف، فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم يستعينهم في دية القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم الى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم - الى جنب جدار أحد بيوتهم ينتظر ردهم ... فما من رجل منا يعلو هذا البيت، فيلقى عليه صخرة، فيرحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحش بن كعب، أحدهما، فقال: انا لذلك، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم.

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم - الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا الى المدينة، ثم ما لبس أصحابه ان لحقوا به هناك، وأمر الرسول بالاستعداد لحرب بنى النضير.

شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحصار على بنى النضير، وتخلى عنهم من كان وعدهم بالمساعدة من المنافقين من أهل المدينة. حتى اضطر بنو النضير الى الاستسلام، وسألوا الرسول عليه السلام ان يجلبهم، ويكف عن دمائهم، على انهم ما حملت الإبل من أموالهم، وان يتركوا سلاحهم للمسلمين فقبل منهم رسول الله ذلك، وسمح لهم بالخروج بأموالهم والجلء عن المدينة فخرج غالبيتهم الى خيبر وسار بعضهم الى الشام. وتركوا للمسلمين غنائم كثيرة، لكن اليهود لن ينسوا ذلك للمسلمين وحاولوا الانتقام بعد ذلك.

بنو قريظة:

عمد يهود بنو النضير الى قريش وغطفان وغيرها من قبائل العرب يحرضونهم ضد المسلمين في المدينة، ويبذلون لهم الوعود والأموال حتى

نجحت خطتهم في توحيد الأحزاب وخروجهم لحصار المدينة في السنة الخامسة للهجرة، وكان يوما صعبا جدا على المسلمين حيث اضطروا الى حفر خندق من ناحيتهم للدفاع عن أنفسهم مطمئنين الى العهد الذي بينهم وبين بني قريظة في الدفاع عن ناحيتهم.

نجح يهود بني النضير في إغراء زعماء بني قريظة في نقد عهدهم مع المسلمين والانضمام الى جانب الأحزاب مما زاد الأمر سوءا بالنسبة للمسلمين واصبح موقفهم محفوفا بالمخاطر الشديدة لأنهم اصبحوا بين عدوين خطيرين.

لكن يوم الأحزاب انتهى بفشل ذريع - كما بينا - سواء بالنسبة لقريش وحلفائها أو لليهود ايا كانت قبيلتهم، ولذلك عندما رحلت قريش عائده، خرج الرسول عليه السلام و أصحابه لحصار بني قريظة فلما طال عليهم الحصار اضطروا الى الاستسلام وخاطبوا الرسول عليه السلام في النزول على حكمه على ان يحكم فيهم سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه، فحكم فيهم بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أن تقتل الرجال، وتقس الأموال، وتسبى الذراري والنساء. وتم تنفيذ الحكم فيهم جزاء لما كانوا يدبرونه و يكيدونه لرسول الله والمسلمين.

وهكذا تخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود المدينة، ولم يبق منهم إلا من كان في أماكن بعيدة عنها.

كان لعودة قريش فاشلة من غزوة الخندق وانتصار الرسول على بني قريظة أثره الواضح في رفع معنويات المسلمين وهيبته بين العرب ولذلك

صمم الرسول عليه السلام ان يخرج لأول مرة لزيارة مكة و أداء العمرة في بيت الله الحرام.

صلح الحديبية:

في نهاية العام السادس من الهجرة خرج رسول الله في أصحابه لأداء العمرة، واستتفر الناس للخروج معه لزيارة مكة وحينما اقترب من مكة أرسل زعماء قريش يخبرهم برغبته في العمرة وزيارة البيت الحرام وليس في نيته قتال أو حرب، وحمل رسالته الى القوم عثمان بن عفان رضى الله عنه.

هاجت قريش و أصرت على ان لا يدخل محمد عليهم مكة لبدا و أرسلوا الرسل الواحد بعد الآخر ليصدوه عن القيام بهذه الزيارة، وكان آخر رسلهم سهيل بن عمرو الذي كلفوه بالتفاوض مع النبي على أية شروط إلا دخوله عليهم مكة هذا العام. فإنها رفضت ذلك حتى ولو أدى الأمر الى قيام الحرب. وحينما تأخر عثمان بن عفان في العودة و أشيع انه قد قتل دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - الناس الى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فبايعه كل من معه. وتبين بعد ذلك كذب الإشاعة الخاصة بعثمان رضى الله عنه. وكان الأمر شاقا على المسلمين من ناحية وعلى القرشيين من ناحية أخرى لذلك تداعا الفريقان الى الصلح.

الصلح :

أرسلت قريش سهيل بن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
- ليصلحه وقالوا له "ايت محمدا فصالحه ولا يكن في صلحه إلا ان يرجع
عنا عامة هذا فو الله لا تحدث العرب عنا انه دخلها علينا عنوة أبدا (١٨٠)
كان - رسول الله صلى الله عليه وسلم - يدرك نفسية قريش وبواعثها في
صدده عن البيت الحرام . و في الوقت الذي كان يسعى فيه للحفاظ على
سلامة رجاله والمسلمين فانه كان يحاول أيضا ان يتألف قلوب الناس كافة
لانه - عليه السلام - بعث للناس رحمة، ولذلك فانه تفاوض مع قريش ووقع
معه صلح الحديبية على الشروط التالية: -

١ - وضع الحرب بين الناس لمدة عشر سنوات يأمن فيها الناس
ويكف بعضهم عن بعض.

٢ - من يأتي من المشركين الى النبي - عليه السلام - دون إذن وليه
فإنه يرده عليهم، أما من يأتي قريشا فلا يرد عليهم.

٣ - من احب ان يدخل في عقد قريش وعهدا فله ذلك، ومن احب
ان يدخل في عقد محمد وعهده فله ذلك.

٤ - أن يعود الرسول هذا العام دون أن يدخل مكة، على ان يعود في
العام القادم ليدخلها بسلاح المسافرين فقط لمدة ثلاثة أيام (١٨١).

^{١٨٠} ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٢.

^{١٨١} ابن الاثير ج ٢ ص ١٣٨.

تضايق بعض المسنمين من شروط الصلح - وخاصة حين جاء أبو جندل بن سهيل مسلما وطلبه والده فردده الرسول احتراما لقواعد الصلح حينما رأوا أن النبي - عليه السلام - قد قام بحلق شعره ونحر هديه قام المسلمون بذلك أيضا، وعاد الجميع الى المدينة: وكان لتلك الهدنة أثر كبير في انتشار الإسلام، يقول ابن هشام " فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتعارضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ولقد دخل تينك السنين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر.

ودلت الحوادث التي تلت ذلك على بعد نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي أثناء العودة الى المدينة نزلت عليه الآيات البيّنات: " انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك الى صراط مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا ". قال عمر بن الخطاب وكان من اشد المعارضين لصلح الحديبية، أهو فتح يا رسول الله ؟ قال: نعم. وأثبتت الأيام أن كل ما قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم من شروط اشترطتها قريش حتى ظننت إنها حققت مكاسب كبيرة ضد المسلمين، وأن كل ما شعر المسلمون بأنه ظلم لهم، ما لبث الجميع ان تبينوا ان ذلك كان فتحا جديدا لانتصار الإسلام وانتشاره في جزيرة العرب بسوعة لم يسبق لها مثيل، وكانت بابا الى فتح مكة ودعوة ملوك العالم ومنهم قيصر وكسرى والنجاشي والمقوقس وامراء العرب، وصدق الله إذ قال: " وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون ".

كان من مكاسب هذا الصلح اعتراف قريش بمكانة المسلمين ،
وتسليمهم لهم كقريتين قري كريم، تبرم معه المعاهدات، ويتفق معه على
مفاوضات، ثم كان من افضل ثمار هذه الهدنة ان استراح المسلمون من
الحروب، وتفرغوا للدعوة في جو من السكينة والهدوء مما جعل الكثيرين
يقبلون على الإسلام، وليس أدل على ذلك من ان الرسول عليه السلام خرج
الى الحديبية في ألف وأربعمائة من أصحابه ثم خرج بعد ذلك بعامين فقط
لفتح مكة ومعه عشرة آلاف من أصحابه^(١٨٢). ومن ابرز من اسلم في تلك
الفترة خالد بن الوليد رضى الله عنه قائد فرسان قريش، وعمر بن العاص
سفير قريش لإرجاع المهاجرين من الحبشة، وقد قدما المدينة بعد صلح
الحديبية وأسلما وحسن إسلامها وغدا من كبار الفاتحين الإسلاميين، وسجلت
أسمائهما رضى الله عنهما في سجل الخالدين.

مكاتبة الملوك والأمراء :

بعد هذه الانتصارات الواضحة للرسول - عليه الصلاة والسلام -
وللإسلام على المشركين واليهود، بدأ رسول الله في مكاتبة الملوك والأمراء
على عصره ليدعوهم الى الإسلام، فكتب الى كسرى فارس والى قيصر
الروم والى المقوقس حاكم مصر - والى نجاشي الحبشة. فمنهم من رد ردا
جميلا ومنهم من رد غير ذلك مثل كسرى فارس، أما مقوقس مصر فقد
أهدى الرسول عليه السلام، جارية هي مارية القبطية و التي منح الله للرسول
منها ولده إبراهيم^(١٨٣) فكان رسوله الى قيصر ملك الروم هو دحية الكلبي
وعبد الله من حذافة السهمي الى كسرى فارس وعمر بن أمية الضمري الى

^{١٨٢} ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٦ والطبري ج ٢ ص ٦٣٨.

^{١٨٣} ابن سيد الناس ج ٢ ص ١٤٧.

نجاشي الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعة الى مقوقس مصر، وعمر بن العاص الى أمراء عمان، و العلاء الحضرمي الى المنذر بن معاوية و شجاع بن وهب الأسدي - الى الحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة وغيرهم.

غزوة خيبر :

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم - في أول العام السابع للهجرة لقتال يهود خيبر وتمكن عليه السلام بعد حصارهم من اجبارهم على التسليم على ان يحقن دماءهم ويحوز اموالهم وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم - أهل فدك على نفس الشروط، ثم انصرف الرسول بعد ذلك الى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم انصرف راجعا الى المدينة^(١٨٤).

عمرة القضاء :

في العام السابع من الهجرة خرج المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمين الى مكة لاداء العمرة، وكانت هذه هي أول مرة يؤدي فيها الناس العمرة بعد الهجرة، وقامت قريش باخلاء مكة، واقفلوا بيوتهم و صعدوا الى الجبال لمدة ثلاثة ايام ، قام خلالها الرسول و من معه بأداء العمرة في سكينه و هدوء و دون أية مضايقة من القريشين اعتمادا على ما وقعوه من عهد في العام الفائت اى في صلح الحديبية. ونزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات بينات تثبت قلبه وقلب من معه على الايمان ومنها:

^{١٨٤} ابن الأثير ج ٢ ص ١٤٧.

" لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا "

غزوة مؤتة:

في هذه الغزوة بعث رسول الله زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة على رأس جيش من المسلمين تبلغ عدته ٣ آلاف مقاتل للأخذ بثأر من قتل من المسلمين عند بئر معونة والتقى هنا الجيش بقوات الروم ومن معها من العرب المنتصرة. فاستشهد القادة الثلاثة الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتكمن خالد بن الوليد وكان قد اسلم وانضم الى المسلمين. من تولى زمام القيادة والانسحاب بالجيش دون خسائر تذكر. وعاد الجيش الى المدينة، فلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - والمسلمون ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله صلى الله عليه وسلم على دابة فقال: خذوا الصبيان واحملوهم، واعطوني ابن جعفر فاتى له بعبد الله فاخذه وحمله بين يديه.

وجعل الناس يحثون التراب على الجيش، ويقولون: يا فرار ! فررتم في سبيل الله، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار ان شاء الله تعالى. وكان الناس قد اشتد عليهم عودة هؤلاء دون قتال.

فتح مكة :

بعد توقيع صلح الحديبية، دخلت بنوا خزاعة في عهد النبي - عليه السلام - ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكان بينهما صراع سابق وبعد ان مضى ما يقرب من العامين على الصلح هاجمت بنو بكر خزاعة وقتلت

بعض افرادها وأجبرتهم على الاحتماء بالحرم. وقامت قريش بامداد بكر
بالسلاح وبعض الرجال وكان ذلك نقضا صريحا لشروط الصلح، واستغاثت
خزاعة بالرسول فوعدهم خيرا.

أدركت قريش مغبة عملها فأرسلت أبا سفيان الى المدينة لتجديد
الصلح وتوسيع مدته، ولكنه فشل في ذلك وعاد دون ان يحقق شيئا (١٨٥).

بدا الرسول الاستعداد للخروج الى مكة سرا، ثم تحرك في شهر
رمضان من السنة الثامنة من هجرته وكان جنده حوالي عشرة آلاف رجل
وفي الطريق الى مكة لقيه عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرا مسلما
وبعض القرشيين، وبالقرب من مكة لقي العباس أبا سفيان ابن حرب فحمله
الى رسول الله حيث اسلم وعاد الى مكة يحمل لها أخبار قوة رسول الله
صلى الله عليه وسلم - ويطلب اليهم ألا يقاتل أحد وسار نداء رسول الله الى
مكة: من دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن (١٨٦).

ومع ثقة الرسول عليه السلام في موقفه و عدم وجود أية مقاومة من
قبل المكيين إلا أنه أراد أن يحسم الموقف فجهز جيشه تجهيزا قويا و قسمه
الى أربعة أقسام أمر عليها أبو عبيده بن الوليد و الزبير بن العوام وقاد القلب
بنفسه، ودخلت الجيوش سلما ماعدا خالد بن الوليد فانه التقى بعكرمة بن أبي
جهل ومعه عدد من القرشيين فتصادما قليلا، وانتهى الأمر بدخول المسلمين
مكة من جميع جبهتها.

^{١٨٥} ابن هشام ج ٤ ص ٢٧.

^{١٨٦} نفس المصدر ج ٤ ص ٣٣.

ونزل صلى الله عليه وسلم - واغتسل في بيت أم هانئ بنت أبي طالب عم النبي - وصلى ثمان ركعات، وخرج الى البيت فطاف به، ودعا بالمفتاح فدخل البيت وامر بالقاء الصور ومحوها منه، وأذن بلال يومئذ على ظهر الكعبة، ثم رد مفتاح البيت الى عثمان بن طلحة واقرهم على سدانة البيت .

اجتمعت قريش عند البيت وظلوا ينتظرون ماذا يصنع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ عليه السلام بعضادتي البيت والجميع من تحته، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

يا معشر قريش ! ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية:

" يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير ."

نبي المحبة ورسول الرحمة:

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش! ما ترون أني فاعلا بكم !

قالوا ! خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم !
قال: فاني أقول لكم كما قال يوسف لإخواته: " لا تريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء ."

وامر بلالا ان يصعد، فيؤذن على الكعبة، ورؤساء قريش وأشرافهم يسمعون كلمة الله تعلوا، ومكة ترج بالأذان.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل، وصلى ثمان ركعات صلاة شكرا لله تعالى.

عفو عن الأعداء الألداء :

ولما استقر الفتح، وآمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس كلهم، إلا تسعة نفر، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم من ارتد عن دينه ومنهم من قتل مسلما غيلة، ومنهم كان يشتغل ويتسلى بهجائه ويذيعه بين الناس وكان منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد ارتد.

ومنهم عكرمة بن أبي جهل، وكان قد خرج الى اليمن كارها لدولة الإسلام وخائفا على نفسه ، فاستأمنت له امرأته بعد ان فر ، فأمنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن أعدى عدو له في الدنيا - وثب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عليه رداء ، فرحا به ، وترحيبا، واسلم عكرمة، فسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم سرورا عظيما، وحسن اسلامه، وكان له مواقف عظيمة في حروب الردة وحروب الشام. ومنهم وحشي مولى جبير بن مطعم، وقاتل عم الرسول واسد الله ورسوله حمزة ابن عبد المطلب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه - فاسلم وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسلامه - ومنهم هبار بين الأسود ، وكان قد عرض لزينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، و أسقطت جنينها ، ففر ثم اسلم، وحسن اسلامه، واستؤمن لسارة ولاحدى القينتين التين كانتا تغنيان بهجائه، فأمنهما فأسلمتا.

بيعة هند بنت عتبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام فجلى لهم، على الصفا واخذ على الناس السمع والطاعة لله. ولرسوله فيما استطاعوا. ولما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان منتقبة متكررة لما كان من صنعها بحمزة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهن : بايعنني على ألا تشركن بالله شيئا، فقالت هند و الله انك لتأخذ علينا ما لا تأخذ من الرجال.

" ولا تسرقن " ، فقالت : والله اني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدري ان كان ذلك حلالا أم لا ؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهدا لما تقول أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - " وانك لهند بنت عتبة ؟" قالت نعم فاعف عن ما سلف، عفا الله عنك.

ثم قال : " ولا تزنيين " فقالت : يا رسول الله ؟ وهل تزنى الحرة؟
ثم قال : " ولا تقتلن أولادكن " قالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا، فأنت وهم اعلم، فضحك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حتى استغرق.
ثم قال : " ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن و أرجلهن " فقالت : والله ان اتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز امثل.
ثم قال : " ولا يعصينني " فقالت : في معروف.
المحيا محياكم والممات مماتكم.

ولما فتح الله مكة على رسوله - وهى بلده ووطنه ومولده - تحدث الأنصار فيما بينهم، فقالوا : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح الله عليه أرضه وبلده، فهو مقيم بها ، لا يعود الى المدينة.

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار عن حديثهم، ولا يعرف غيرهم، فاستحيوا ثم اقرؤا به، فقال : معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم.

إزالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية :

وبث رسول الله صلى الله عليه وسلم سراياه الى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها، منها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونادى مناديه بمكة.

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنما إلا كسره"، وبعث رجالا من أصحابه الى القبائل، فهدموا أصنامها، قال جابر كان بين في الجاهلية يقال له " ذو الخلصة " ، والكعبة اليمانية والكعبة الشامية، فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم: ألا تريحنى من " ذى الخلصة " ؟ يقول جابر: فنفرت في مائة وخمسين راكبا من أحمس، " وكانوا أصحاب خيل" فكسروناه وقتلنا من وجدنا عنده، فأتييت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فدعا لنا ولأحمس.

اثر فتح مكة :

وكان لفتح مكة اثر عميق في نفوس العرب ، فشرح الله صدر كثير منهم للإسلام، وساروا يدخلون فيه أرسالا ، وكانت عدة قبائل بينها وبين قريش حلف، وكانت ممتعة عن الدخول في الاسلام لمكانة هذا الحلف ، وكانت قبائل ترهب قريشا وتجلها ، فلما رأتهم استسلموا للإسلام ورجعوا فيه ذال الحاجز ، وكانت قبائل تعتبر مكة لا يفتحها ولا يدخلها ملك جبار أو من يريد فيقولون: اتركوه وقومه. فانه وان ظهر عليهم فهو نبي صادق.

فلما فتح الله لنبيه مكة ، خضعت قريش للإسلام طوعا أو كرها، اقبل العرب على الاسلام اقبالا لم يعرف قبل ذلك ، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجا: " إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا".

أمير شاب حديث السن :

و أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يغادر مكة عتاب بن أسيد، يدبر أمورها، ويقيم الموسم والحج بالمسلمين، وهو دون العشرين سنة، أو فوقها قليلا ، وذلك بمحضر من أهل الأسنان والفضل ، فدل على ان الناصب على الجدارة والقوة ، واقره أبو بكر في خلافته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فتح مكة

ذكر الأسباب الموجبة للسير الى مكة

وذكر فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمان

القتال بين بكر وخزاعة :

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد بعثته الى مؤتة جماد الآخرة ورجبا . ثم أن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت الى خزاعة ، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوثير ، وكان الذي هاج ما بين بنى بكر وخزاعة أن رجلا من بنى الحضرمي واسمه مالك بن عباد - وحلف الحضرمي يومئذ الى الأسود بن رزن - خرج تاجرا ، فلما توسط ارض خزاعة ، عدوا عليه فقتلوه واخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بنى الأسود بن رزن الديلى - وهم منخر بنى كنانة وأشرافهم - سلمى كلثوم وذؤيب - فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم .

قال ابن إسحاق : وحدثني رجلا من بنى الديل ، قال : كان بنو الأسود بن رزن يودون في الجاهلية ديتين ديتين . ونؤدي دية دية ، لنفضلهم فينا .

قال ابن إسحاق : فبينما بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام ، وتشاغل الناس به : فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين قريش ، كان فيما شرطوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -

عليه وسلم - وشرط لهم ، كما حدثني الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم . وغيرهم من علمائنا : انه من احب ان يدخل في عقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعهده فليدخل فيه ، ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعهده.

قال ابن إسحاق : فلما كانت الهدنة التي اغتتمها بنو الدئل من بنى بكر وخزاعة ، أرادوا ان يصيبوا منهم ثارا بأولئك النفر الذين أصابوا منهم ببني الأسود بن رزن ، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في بنى الدئل ، وهو يومئذ قائدهم ، وليس كل بنى بكر تابعه حتى بيت خزاعة وهم على الوتير ، ماء لهم ، فأصابوا منهم رجلا ، وتجاوزوا واقتتلوا ، ووفدت بنى بكر قريش بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيا . حتى حازوا خزاعة الى الحرم ، فلما انتهوا إليه ، قالت بنو بكر : يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك ، فقال : كلمة عظيمة ، لا اله له اليوم ، يا بنى بكر أصيبوا تأركم فلعمري أنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون تأركم فيه ؟ وقد أصابوا منهم ليلة بيوتهم بالوتير رجلا يقال له منبه رجلا مقتودا خرج هو ورجلا من قومه يقال له تميم بن أسد وقال له منبه : يا تميم ، انج بنفسك فأما أنا فوالله أني لميت قتلوني أو تركوني ، قلد انيت فؤادي ، وانطلق تميم فافلت ، و أدركوا منبه فقتلوه ، فلما دخلت خزاعة مكة ، لجئوا الى دار بديل بن ورقاء ، ودار مولى لهم يقال له رافع.

خزاعة تستنجد بالرسول صلى الله عليه وسلم :

قال ابن إسحاق : فلما تظاهرت بنو بكر وقريش خزاعة و أصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانوا في عقده وعهده ، خرج عمرو بن سالم الخزاعي ، ثم أحد بنى كعب ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة ، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهرائى الناس ، فقال:

ذهاب ابن ورقاء الى الرسول شاكيا :

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فاخبروه بما أصيب منهم ، بمظاهرة قريش بن بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين مكة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنأي : كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد في المدة . ومضى بديل بن ورقاء و أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب ، بعسفان قد بعثه قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشد العقد ، ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذي صنعوا : فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء ، قال : من أين أقبلت يا بديل ؟ وظن انه قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: تسيرت في خزاعة في هذا الساحل ، وفي بطن هذا الوادي ، قال أو ما جئت محمدا ؟ قال : لا ، فلما راح بديل مكة قال أبو سفيان : لئن جاء بديل المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها فغتسه ، فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا .

ذهاب أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم طالبا الصلح :

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدخل ابنته أم حبيبه بنت أبي سفيان ، فلما ذهب ليجلس فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته ، فقال يابنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس ولم احب ان تجلس فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والله لقد اصابك يابنية بعدى شر . ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، ثم ذهب أبي بكر ، فكلمه أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما انا بفعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشق لك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فو الله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل بن أبي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها، وعندها حس ابن غلام يدب بين يديها، فقال : يا انك أمس القوم بي رحما، وأني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائبا، فاشفع لي إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا ابا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه : فالتفت الى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك ان تامرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بنى ذلك أن يجير بين الناس وما يجير احدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أبا الحسن ، أنى ارى الامور قد اشتدت ، فانصحنى قال : والله ما اعلم لك شيئا ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟ قال : لا والله ما اظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك فقام ابي سفيان في المسجد ، فقال : ايها الناس ، أنى أجرت بين الناس . ثم ركب بغيره فانطلق ، فلما قدم إلى قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمدا

فكلمته ، فو الله ما رد شيئا ، ثم جئت ابن ابي قحافة ، فلم أجد فيه خيرا ،
ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو .

قال ابن هشام : أعدى العدو .

قال ابن إسحاق : ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بشي
صنعتة ، فو الله ما أدري هل يغني ذلك شيئا أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك؟ قال :
أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمدا ؟ قال :
لا ، قالوا . ويلك !

والله ان زاد الرجل على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت ، قال :
لا والله ما وجدت غير ذلك .

الاستعداد لفتح مكة :

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاز ، وأمر أهله ان
يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضى الله عنها ، وهى تحرك بعض
جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أي بنية ، أأمركم رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - أن تجهزوه؟ قالت : نعم ، فتجهز ، قال : فأين ترينه
يريد؟ قالت : لا والله ما أدري . ثم أن رسول الله أعلم الناس انه سائر الى مكة
وأمرهم بالجد والتهيؤ ، وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى
نبغتها في بلادها ، فتجهز الناس .

تحريض حسان للصحابية :

فقال حسان بن ثابت يحرض الناس ، ويذكر مصاب رجال خزاعة :

عناني ولم أشهد ببطحاء مكة	رجال بني كعب تحز رقابها
بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم	وقتل كثير لم تجن ثيابها
ألا ليت شعري هل تتالن نصرتي	سهيل بن عمرو وخزها وعقابها
وصفوان عود حن من شفر إسته	فهذا أوان الحرب شد عصابها
فلا تأمننا يابن أم مجالد	إذا أحتلين صرفا وأعصل نابها
ولا تجزعوا منا فان سيوفنا	لها وقعه بالموت يفتح بابها

قال ابن هشام : قول حسن : " بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم " يعنى قريشا ، " وأبن أم مجالد " يعنى عكرمة بن أبي جهل .

رسالة حاطب الى قريش :

قال ابن إسحاق . وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا ، قالوا : لما اجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن ابي بلتعة كتابا الى قريش يخبرهم بالذي اجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمر في السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، زعم محمد بن جعفر انها من مزينة ، وزعم لى غيره انها سارة ، مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وجعل لها جعلا على ان تبلغه قريشا، فجعلته في رأسها ، ثم قفلت عليها قرونها ، ثم خرجت به : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن ابي طالب والزبير بن العوام رضى الله عنهما ، فقال : ادركا امرأة

قد كتب معها حاطب بن ابي بلتعة بكتاب الى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنا له في امرهم فخرجوا حتى ادركا بالخليقة ، خليفة بنى ابي أحمد ، فاستزلاها ، فالتمسا في رحلها ، فلم يجدا شيئا ، فقال لها على بن ابي طالب: أخي أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك .

فلما رأت الجد منه ، قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا ، فقال : يا حاطب ، ما حملك على هذا ؟ فقال رسول الله ، أما والله اني مؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكني كنت امرءا ليس لي في القوم من اصل ولا عشوة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم : فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، دعني فلاضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع الى أصحاب بدر يوم بدر ، اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم فأنزل الله تعالى في حاطب : " يأيتها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة " ، الى قوله . " قد كنت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم انا براء منكم وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده " الى آخر القصة .

خروج الرسول الى مكة :

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن عبد الله بن عباس ، قال ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره ، واستخلف على المدينة ابا

رهم ، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري ، وخرج لعشر مضيئ
من رمضان ، فصام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصام الناس معه ،
حتى إذا كان بالكديد ، بين عسفان وأمج أفطر .

قال ابن إسحاق : ثم مضى حتى نزل من الظهران في عشرة آلاف
من المسلمين ، أسبعت سليم وبعضهم يقول ألفت سليم ، وألفت مزينة ، وفي
كل القبائل عدد وإسلام ، وأوعب . مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
المهاجرون والأنصار ، فلم يتخلف عنه منهم احدا ، فلما نزل رسول الله
صلى الله عليه وسلم مرت الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش فلم ياتهم
خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدرون ما هو فاعل ، وخرج
في تلك الليالي أبو سفيان ابن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ،
يتحسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به ، وقد كان
العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق .

قال ابن هشام : لقيه بالجحفة مهاجرا بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيما
بمكة على سقايته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض ، فيما ذكر
ابن شهاب الزهري .

إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية :

قال ابن إسحاق : وقد كان أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب
وعبد الله ابن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم
أيضا بنيق العقاب ، فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه ، فكلمته أم
سلمة فيهما ، فقالت : يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمك وصهرك ، قال لا
حاجة لي بهما ، أما ابن عمي فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهري فهو

الذي قال لى بمكة ما قال . قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبى سفيان بنى له فقال : والله ليأذن لى أو لأخذن بيدي هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا ، فلما بلغ ذلك رسول الله رق لهما ، ثم أذن لهما : فدخلا عليه ، فأسلما .

قصة إسلام أبى سفيان :

فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الظهران ، قال العباس بن عبد المطلب : فقلت : وا صباح قريش . الله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم " مكة عنوة قبل أن يأتوا فيستأمنوه انه لهلاك قريش الى آخر الدهر . قال : فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء . فخرجت عليها . قال ، حتى جئت لأراك ، فقلت : لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل ان يدخلها عليها عنوة ، قال : فو الله أنى لأسير عليها ، وألتمس ما خرجت له ، إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا ، قال . يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب . قال : يقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتي فقال : أبو الفضل؟ قال : قلت : نعم ، قال : مالك ؟ فذاك أبى و أمي ، قال : قلت : ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ، واصباح قريش والله . قال : فما الحيلة ؟ فذاك أبى و أمي ، قال قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فأركب فى عجز هذه البغلة حتى أتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك ، قال : فركب خلفي ورجع صاحبا ، قال : فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من هذا ؟ وقام الى .

فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء قال : فافتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر ، فقال يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني فلاضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ، انى قد أجرته ، ثم جلست الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا ينجيه اليوم دوني رجل ، فلما اكثرت عمر في شأنه ، قال : قلت : مهلا يا عمر ، فو الله ان لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت انه من رجال بنى عبد مناف، فقال : مهلا يا عباس ، فو الله لاسلامك يوم أسلمت كان احب الى من إسلام الخطاب لو اسلم ، وما بى الا انى عرفت ان إسلامك كان احب الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من إسلام الخطاب لو اسلم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : اذهب به يا عباس الى رحلك ، فإذا أصبحت فأتي به، قال فذهبت به الى رحلي فبات عندي فلما أصبح غدوت به الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، ويحك يا أبا سفيان . ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ؟ قال بأبي وأمي ، ما أحلمك وأكرهك وأوصلك، والله قد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد ، قال : ويحك يا ابا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال العباس : ويحك ! أسلم وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله

قبل أن تضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق ، فأسلم ، قال العباس : قلت : يا رسول الله ، ان أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر . فاجعل له شيئاً قال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن ، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا عباس ، احسبه بمضيق الوادي عند خطم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها . قال . فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي ، حيث أمرني رسول الله أن صلى الله عليه وسلم أحسبه .

عرض الجيش على أبي سفيان:

قال : ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس ، ما هذه ؟ فأقول سليم ، فيقول : مالي ولسليم ، ثم تمر القبيلة فيقول يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ، حتى نفدت القبائل ، ما تمر بي قبيلة الا يسألني عنها ، فإذا أخبرته بهم ، قال مالي ولبنى فلان ، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء .

قال ابن هشام : و إنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها:

قال الحارث بن حازة إلى شكري :

ثم حجرا أعنى ابن أم قطام وله فارسية خضراء

يعنى الكتيبة وهذا البيت في قصيدة له ، وقال حسان بن ثابت

الأنصاري :

بكتيبة خضراء من الخزرج

لما رأى بدرا تسيل هلاجه

وهذا البيت في أبيات له كتبناها في أشعار يوم بدر .

قال ابن إسحاق : فيها المهاجرون و الأنصار ، رضى الله عنهم ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لاحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا ابا الفضل ، لقد اصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال : قلت : يا ابا سفيان ، أنها النبوة قال : فنعمة أنن .

تحذير أبو سفيان لاهل مكة :

قال : قلت : النجاء الى قومك ، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبح من طليعة قوم قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فانه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، قالوا قاتلك الله ، وما تغنى عنك دارك ، قال : ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ففرق الناس الى دورهم والى المسجد .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن ابي بكر : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجرا بشقة برد حبرة حمراء وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله من الفتح ، حتى ان عشوته ليكاد يمس واسطة الرحل .

إسلام أبي قحافة :

قال ابن إسحاق : وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، من جدته أسماء بنت أبي بكر ، قالت ، لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى طوى قال أبو قحافة لابنه من اصغر ولده : أي بنيه ، أظهري بي على أبي قبيس قالت : وقد كف بصره ، قالت : فأشرفت به عليه ، فقال أي بنيه ماذا تريد ؟ قالت : أرى سوادا مجتمعاً ، قال : ذلك الخيل ، قالت ، وارى رجلاً يسعى بين يدي ذلك مقبلاً ومدبراً ، قال : لى بنية ، ذلك الوازع يعنى الذي يأمر الخيل ، ويتقدم إليها ، ثم قالت : قد والله انتشر السواد ، قالت : فقال : قد والله أذن دفعت الخيل ، فأسرعي بي إلى بيتي ، فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل الى بيته ، قالت : وفى عنق الجارية طوق من ورق ، فتلقاها رجل فيقتطعه من عنقها ، قالت : فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ودخل المسجد ، أتى أبو بكر بابيه يقوده ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه ؟ قال أبو بكر ، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت ، . قال : قلت : فأجلسه بين يديه ، ثم مسح صدره ثم قال له اسلم ، فاسلم ، قالت : فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غيروا هذا من شعره ، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته ، وقال : أنشد الله والإسلام طوق أختي ، فلم يجبه أحد ، قالت : فقال : أي أخيه ، احتسبي طوقك ، فو الله ان الأمانة في الناس اليوم لقليل .

دخول جيوش المسلمين مكة :

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي نجيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرق جيشه من ذي طوى ، أمر الزبير بن العوام ان يدخل في بعض الناس من كدي ، وكان الزبير على المجنبه اليسرى ، وأمر سعد بن عبادة ان يدخل في بعض الناس من كداء .

غزوة حنين :

كانت هذه الغزوة بعد فتح مكة، وذلك ان قبائل هوازن حينما سمعت بانتصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على القرشيين تجمعت مع القبائل الاخرى ممن بينها ثقيف سكان الطائف، فخرج إليهم رسول الله في اثني عشر ألف مقاتل وحين انحدر جيوش رسول الله في الوادي انقضت عليهم هوازن ومن معها فجأة، فأوقعوا الهزيمة في صفوف المسلمين و أجبروهم على الفرار وثبت الرسول في مجموعة من أصحابه وأل بيته، ونادى العباس يا معشر الأنصار، فعاد الناس إلى رسول الله وقتلوا حتى انتصروا وتتبعوا الفارين قتلا وأسرا، ثم ذهب عليه السلام في اثر الهاربين إلى الطائف فتحصنوا بها وحاصرها رسول الله حوالي خمسة عشر يوما ثم تركهم إلى حيث يوزع أموال هوازن التي غنمها بعد انتصاره عليهم يوم حنين.

ولقد وزع الرسول أموال هوازن على قریش والمؤلفة قلوبهم مما اثار في قلوب بعض الأنصار الريبة من ان الرسول قد عاد إلى اهله نسيهم ولما بلغه ذلك جمعهم وقال لهم : الا ترضون يا معشر الأنصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رجالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده لو لا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الناس شعبا وسالكت الانصار شعبا الأنصار اللهم ارحم الأنصار وابناء الأنصار. قال فبكى القوم

حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا (١٨٧). اسلمت هوازن بعد ذلك ورد عليهم سول الله نساءهم وأولادهم اما أهل الطائف فقد شعروا بعد ذلك بعزتهم وسط بحر المسلمين الذي اتسع حتى يكاد يطبق على كل شبه الجزيرة كلها ولهذا جاءت وفودهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تعلن اسلامها وذلك في العام التاسع الهجرية.

غزوة تبوك :

وهي في العام التاسع من الهجرة حيث خرج الرسول عليه الصلاة والسلام الى حرب الروم انتقاما لمقتل أصحابه الثلاثة في غزوة مؤتة، فلما وصل الى تبوك أقام فيها اياما فصالحه اهلها، وجاءت الوفود من ايلة وغيرها وصالحوه على دفع الجزية كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجند فاسر صاحبها واستولى عليها، ثم عاد الرسول الى المدينة وكانت غزوة تبوك آخر غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام.

عام الوفود :

هو العام التاسع من الهجرة وفي هذا العام قدمت وفود القبائل العربية من كل جانب لتعلن اسلامها ولذلك يسمى العام التاسع عام الوفود ويعلن الدكتور احمد شلبي قائلا: وهكذا يلاحظ الباحث امرا عجبا. ففي عشر سنوات - وما أقصرها في عمر الدول - ترى الرجل الذي كان يعرض نفسه على القبائل قد أصبح يجلس في داره تغد له وفود القبائل التي تقطن قريبا من المدينة أو بعيدا عنها ٠٠٠ الى ان يصل الى القول. وهكذا عمت الدعوة

١٨٧ ابن كثير الفصول ص ١٨.

الاسلامية شبه الجزيرة العربية، ونعم محمد عليه الصلاة والسلام بأن رأى زرعهُ يثمر ودين الله ينتشر على يديه.

حجة الوداع :

وفي العام التاسع من الهجرة أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام أباً بكر الصديق أمير على الحج ليقم للمسلمين حجهم وفي هذا العام نزلت سورة براءة التي حرمت على المشركين الاقتراب من الكعبة منذ ذلك الحين. وفي العام التالي خرج الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه على رأس مائة ألف مسلم أو يزيد ليؤدي بهم فريضة الحج والقي فيهم رسول الله خطبة الوداع التي تعد أساساً من أسس الدستور الإسلامي لما بين فيها صلوات الله عليه من أحكام وآراء، ومما جاء في خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

خطبة الرسول في حجة الوداع :

قال ابن إسحاق : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حجه فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس، اسمعوا قولي : فأني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وأنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رعوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله. وأن كل دم في الجاهلية موضوع. وإن أول دمائكم أضاع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً في بني ليث. فقتلته هذيل فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية أما بعد أيها

قد يؤس من أن يعبد بأرضكم هذه ابداء، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، ايها الناس (أن النسي زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا. يحلونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله. ويحرموا ما أحل الله. وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، اما بعد ايها الناس، فان لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن ان لا يأتين بفاحشة مبينة، فان فعلن فان الله قد أذن لكم ان تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا. فانهن عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا. وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاعقلوا ايها الناس قولي. كأني بلغت وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابداء. كتاب الله وسنة نبيه. ايها الناس. اسمعوا قولي واعقلوه تعلمون ان كل مسلم أخ للمسلم. وان المسلمين اخوة. فلا يحل لامرئ من أخيه الا ما اعطاه من طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت ؟

فذكر الناس قالوا : اللهم نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
اللهم أشهد.

اسم الصارخ :

قال ابن إسحاق: وحدثني يحي بن عباد عبد الله بن الزبير. عن أبيه عباد قال كان الرجل الذي يصرخ في الناس يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة. ربيعة بن أمية ابن خلف قال: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا ايها الناس، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هلا

تدرون أي شهر هذا ؟ فيقول لهم: فيقولون : الشهر الحرام : فيقول قل لهم : ان الله قد حرم عليكم دماءكم واموالكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا. ثم يقول قل يا ايها الناس. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هل تدرون أي بلد هذا، قال : فيصرخ به. قال: فيقولون البلد الحرام: قال: فيقول. قل لهم: ان الله قد حرم عليكم دماءكم واموالكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا.

قال: ثم يقول: قل يا ايها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هل تدرون أي يوم هذا؟ قال: فيقولوا: يوم الحج الأكبر، قال: فيقولوا: قل لهم: ان الله قد حرم عليكم دماءكم واموالكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا.

قال ابن إسحاق: حدثني ليث بن ابي سليم عن شهر بن حوشب الاشعري، عن عمرو بن خارجة قال: بعثني عتاب بن أسيد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفه، فبلغته، ثم وقفت تحت ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لغامها ليقع على رأسي، فسمعتة وهو يقول: ايها الناس، ان الله قد ادى الى كل ذي حق حقه وانه لا تجوز وصية لوارث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ومن ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين. لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

بعض تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم للحاج :

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله ابن أبي نجيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف بعرفة. قال: هذا الموقف، للجبل الذي هو عليه وكل عرفة موقف وقال حين وقف على قرح صبيحة المزدلفة: هذا الموقف: وكل المزدلفة موقف. ثم لما نحر بالمنحر بمنى قال هذا المنحر. وكل منى منحرا، ففضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج وقد أراهم مناسكهم. وعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم: من الموقف ورمي الجمار وطواف البيت، وما أحل من حجهم، وما حرم عليهم، فكانت حجة البلاغ، وحجة الوداع، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها.

عاد الرسول عليه الصلاة والسلام الى المدينة وما لبث ان أدركه المرض حتى لم يقو على الصلاة فندب أبا بكر ليؤم الناس في الصلاة ثم توفاه الله سبحانه وتعالى في يوم الاثنين الثالث عشر ربيع الأول فسي العام الحادي عشر لهجرته وعمره ٦٣ عاما بعد ان أدى رسالة ربه. وبلغ الأمانة ورضى الله عنه وأرضاه.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا للانسان الكامل والمعلم العظيم والزوج النادر والصديق الصادق والأخ الودود. والمبشر الهادي والمنذر الرحيم والمبلغ الصادق وكم في سيرته من عظة وعبرة تضيئ حيلة البشر منذ الحين وستظل الى ما شاء الله وإذا كان عملنا لا يسمح بتناول هذه الجوانب في هذا الكتاب فالعزاء أن كتب السيرة والتاريخ حافلة بأخباره صلى الله عليه وسلم لكل من يرغب في الاطلاع والقراءة.

وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم صدمة واجهها بعضهم بإيمان
وصبر وبعضهم بشك وعدم رضا وآخرون لم يدروا ما يفعلون.

وتبدأ بعد ذلك فترة جديدة من تاريخ المسلمين وهي فترة ما بعد
رسول الله وأول هذه الفترة ما يعرف بعهد الخلفاء الراشدين فلنتناول ذلك
باختصار.

الباب الثالث

الخلفاء الراشدون

- عصر الخليفة أبي بكر الصديق ((رضى الله عنه))
- عصر الخليفة عمر بن الخطاب ((رضى الله عنه))
- عصر الخليفة عثمان بن عفان ((رضى الله عنه))
- عصر الخليفة علي بن أبي طالب ((رضى الله عنه))

الخلفاء الراشدون

صلى الله عليه وسلم :

تحدث أبو بكر بن العربي رحمه الله في كتابه العواصم من القواصم عن قاصمة الظهر التي أَلَمَت بالمسلمين بوفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الشهر الثالث من العام الحادي عشر لهجرته عليه السلام.

ورغم فترة مرضه والتي أعقبت عودته من حجة الوداع، وتهيئ النلس لاستقبال ذلك الحدث الجلل إلا أنه يبدو أن الوفاة كانت مفاجأة للمسلمين لم تتهيأ لها عقولهم وصدورهم بالدرجة الكافية، ومن ثم رفضت تلك العقول أن تتقبل هذه القضية ولو حتى بمجرد التفكير فيها لدرجة أن رجلا صحابيا جليلا مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو من هو قريبا من رسول الله، وشدة إيمان، ومصاهرة للنبي، وغير ذلك من الصفات التي تؤهله ليكون أول المصدقين، وأول الثابتين عند سماع الخبر اليقين إلا أننا نجده على العكس من كل ذلك يقول: بأن رجلا من المنافقين يزعمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد توفى. وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قوميه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما رجع موسى، والله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد مات. واضطرب الناس، وذهبت بهم الظنون، وتدارك الله برحمته الناس بمجيء أبي بكر الصديق رضى الله عنه حتى نزل بباب المسجد حين بلغه خبر الوفاة، وكان عمر في ذلك الوقت يتكلم مع الناس، فلم يلتفت أبو بكر لشيء مما يقوله عمر أو يقوله

الناس حتى دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مسجي في بيت عائشة رضي الله عنها في ركن من المنزل وعليه بردة من ثياب اليمن، فأقبل أبو بكر وكشف عن وجهه عليه الصلاة والسلام، ثم مال على جبينه فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله. أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا ثم رد البردة على وجهه. وفي رواية أخرى أنه قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، طببت حيا وميتا. ثم قرأ قوله سبحانه وتعالى: "يا أيها النفس المطمئنة، أرجعي إلى ربك راضية مرضية، فأدخلي في عبادي وأدخلي جنتي".

خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس فقال له: على رسلك يا عمر، أنصت. فأبى عمر أن ينصت وظل يتحدث مع الناس، فلما رآه أبو بكر لا يستجيب لكلامه ولا ينصت لما يريد أن يقوله أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه قبلوا عليه وتركوا عمرا، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، انه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم أردف تاليا قول الله سبحانه وتعالى: "وما محمدا إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسنجزى الله الشاكرين". (آل عمران الآية ١٤٤).

نزلت هذه الكلمات على الناس نزلة شديدة وكأنهم لم يسمعوا بها من قبل أثابتهم إلى رشدهم، ويقول ابن هشام: فو الله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، قال: وأخذها الناس على أبو بكر فإنما هي في أفواههم. قال: فقال أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت

أبا بكر يتلوها فعقرت - أي دهشت - حتى وقعت إلى الأرض ما تحمّلني رجلاي، وعرفت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد مات.

كان هذا هو الموقف في المدينة، أما في مكة فحينما وصلها خبر وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد اضطرب الناس اضطرابا شديدا حتى اضطرب عامل رسول الله عليه السلام، وهو عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية إلى الاختفاء، وكان أهلها يرتدون عن الإسلام حتى قام فيهم سهيل بن عمرو على باب الكعبة وخطبهم قائلا: يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من أرتد " وأخبرهم بوعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتم الله هذا الأمر، فامتتع الناس عن الردة.

أما باقي أجزاء شبه الجزيرة العربية فإن أهلها وكانوا حديثي عهد بالإسلام تعرضوا لشدة قاسية، فقد كانت درجة اقتناعهم بمبادئ الإسلام غير كافية لعصمتهم أو لتهيئتهم لمواجهة مثل هذا الموقف.

وليس بعيدا أن نشير إلى أنهم في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - قد نازعتهم أنفسهم إلى مشاركة الرسول عليه السلام في دعوته، وأن يكون لهم ما كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - من الشأن والمنزلة، فادعوا النبوة واستعانوا على ذلك بضروب من الحيل والعبقريّة الشخصية، وآزرتهم العصبية العربية، وأفادتهم النعرة القبلية، فشدت من أزهرهم وزادت من اتباعهم، فوجد طلحة بن خويلد أنصار من بني أسد، واستجاب لسجاح كثير من بني تميم، واستطاع مسيلمة أن يجد من بني حنيفة اتباعا يتحمسون له لرفع دعوته. وأما الأسود العنسي فاستولى على اليمن كلها، وطرد منها

عمال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ودانت له البوادي والحوضر ما بين مغارة حزموت إلى الطائف ومن البحرين إلى الاحساء وعدن.

وجاءت وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لتزيد الأوضاع تردياً، فزادت مكانة المتبئين في قومهم، وارْتَدَ أقوام آخرون عن الإسلام ارتداداً تاماً وسعى بعضهم إلى التغيير في قواعد الدين وأسسها فامتنعوا عن دفع الزكاة وتلقى عبارات ابن هشام التي ينقلها عن السيدة عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنهما لتصف لنا الحالة بعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم:-

" ولما توفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ارتد العرب، واشربت اليهود والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الثانية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم، حتى جمعهم الله على أبي بكر " (١٨٨).

موقف المسلمين بعد وفاة الرسول عليه السلام : -
ثاب الناس إلى رشدهم بعد تأكدهم من وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - ولكنهم انقسموا فيما يجب عليهم عمله من بعده وخاصة في اختيار من يخلفه وكانوا في ذلك ثلاث شعب: الأنصار وقد اجتمعوا في شعيقة بن ساعدة يبايعون سعد بن عبادة الأنصاري رضى الله عنه. وغالبية المهاجرين انحازوا إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه ممثلاً لحق المهاجرين في خلافة النبي - صلى الله عليه وسلم - والمجموعة الثالثة ضمت بعض آل

^{١٨٨} ابن هشام ج ٤ ص ١٧٩.

بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم على والعباس ومن شايعهما.
وكان كل فريق يرى له الحق خاصة أنه لم يعهد عن الرسول عليه السلام أنه
أوصى صراحة لأحد بالخلافة بعد موته.

شقيقة بني ساعدة :

يعتبر يوم شقيقة بن ساعدة من الأيام البارزة في التاريخ الإسلامي،
وهو علامة مضيئة في تاريخ المسلمين، لأنهم على الرغم من الظروف
القاسية التي كانت تمر بالمسلمين بسبب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم،
إلا أنهم اجتمعوا في هذا المكان وهذا اليوم لاختيار خليفة رسول الله، وأنهم
في هذا المكان قد تجادلوا بالحسنى والرأي والحجة حتى حدث الإقناع
بشخصي ما فبايعوا من اقتنعوا به.

اجتمعوا الأنصار في تلك السقيفة يقبلون الأمر على وجوهه، وكان
سعد ابن عباد زعيم الخزرج مريضا في بيته فأخرجوه إليهم ليكون صاحب
الرأي فيهم فتكلم بينهم وشرح لهم سابقته في الإسلام فقال بعد أن حمد الله
أثنى عليه: " يا معشر الأنصار أن لكم لسابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام
ليست لقبيلة من العرب، وأن محمدا عليه السلام للبت في قومه بضع عشرة
سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه
إلا قليل . . . " .

كانت خطبة سعد بن عباد طويلة تحاول ان تبين فضل الأنصار
وتدعوهم إلى المسارعة إلى مبايعته باعتباره زعيما لهم، ولكن المقالة لم
تؤت ثمارها كما كان متوقعا، فقد ردوا عليه بكلمات طيبة، ثم راجعوا أنفسهم
فيما ينبغي أن يكون لو دار الجدل بينهم وبين إخوانه من المهاجرين حتى

توصلوا إلى ان أبت مهاجرة قریش أن يتركوا لهم الخلافة، وأن رفعوا في مواجهتهم حجة القول بأننا نحن المهاجرون، وصحابة رسول الله الأولون فعلام تنازعونا هذا الأمر بعده ؟ وتوصل الأنصار إلى أن أقصى ما يمكن أن يردوا على المهاجرين هو الاقتراح بأن يكون من المهاجرين أمير وممن الأنصار أمير، ولن يرضى الأنصار بدون هذا الأمر أبدا. وتعجب سعد بن عباد من هذا الموقف وأعتبره أول الوهن في صفوف الأنصار.

علم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بما جرى في شقيفة بن ساعدة فذهبا إلى هناك وفي الطريق قابلهما أبو عبيدة بن الجراح فرافقهم إلى هناك حيث وجدوا القوم مازالوا يتجادلون ولم يصلوا إلى قرار بعد.

تحدث أبو بكر فأبان فضل المهاجرين والأنصار، وأكد على أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون إلا لهذا الحي من قریش لأنهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله ورسوله، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا بتنازعهم في ذلك إلا ظالم.

ثم بين فضل الأنصار ومكانتهم عند المسلمين وعند رسول الله ثم ختم قوله: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة، ولا تقضى دونكم الأمور.

تجادل الناس كثيرا، وتدخلت عدة عوامل أدت في النهاية إلى قيام القوم بمبايعة أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

البيعة الخاصة :

هي تلك البيعة التي تمت لأبي بكر رضى الله عنه في شقيفة بني ساعده حيث تقدم لبيعة بشير بن سعد من الخزرج ثم عمر وأبو عبيدة ثم جميع الأنصار المجتمعين في السقيفة في ذلك اليوم. ويقول الأستاذ الدكتور حسين مؤنس - رحمة الله عليه - أن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي اجتمع المسلمون فيها اجتماعا حرا لاختيار حاكمهم.

البيعة العامة :

تمت هذه البيعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين أتى أبو بكر وعمر إلى المسجد وأقام عمر بن الخطاب يعتذر إلى الناس عما فرط منه بالأمس من إنكار موت رسول الله عليه السلام، ثم قال: ان الله قد أبقي فيكم كتابه الذي هدى به رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم كما هداه به وان الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وثاني اثنين إذ هما بالغار فقوموا فبايعوا.

بايع الحاضرون جميعا أبا بكر بالخلافة، وأصبح منذ ذلك الحين خليفة المسلمين دون منازع. وهناك عدد من الآراء حول موقف بعض الصحابة من أمثال علي والعباس والزيير وأبي سفيان بن حرب من البيعة لأبي بكر، لكن الخلاصة التي لا يختلف حولها اثنان هو عدم وجود معارضة حقيقية لأبي بكر رضى الله عنه وأن الجميع سرعان ما أنضوا تحت لوائه، وصفت له الأمور تماما.

ما معنى الخلافة :

هي نظام للحكم اختاره المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعني النيابة عن صاحب الشرع - صلى الله عليه وسلم - في حفظ الدين وسياسة الدنيا كما يقول المارودي، وهي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا كما يقول ابن خلدون^(١٨٩). واشترط أيضا في الخليفة خمس شروط هي: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء، مما يؤثر في الرأس والعمل، وأخيرا النسب لقريش^(١٩٠) وحينما ظهرت الفرق الإسلامية بعد ذلك كان لكل منها فكره عن الخلافة وشروطها وما يشترط في الخليفة.

شروط الخلافة :

لابد لمن يتولى هذا المنصب الخطير أن يكون جامعا لشروط أربعة:

- ١ - العلم : لأنه منفذ لأحكام الله تعالى ولا يقوم بها جاهل.
- ٢ - العدالة : لأن الإمامة منصب وبني ينظر صاحبها في الأحكام التي يشترط فيها العدالة فكانت أولى باشتراطها.

^{١٨٩} عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ج ٢ ص ١٥١.

^{١٩٠} نفس المصدر ص ١٥٢.

٣ - الكفاية : أي يكون قادرا على إقامة الحدود، واقتحام الحروب بصيرا بأساليب السياسة وغير ذلك من المؤهلات التي تمكن من حماية الدين، وجهاد العدو، وإقامة الأحكام وتديير المصالح.

٤ - أن يكون سليم الحواس والأعضاء مما يؤثر فقْدانه في الرأي والعمل، ويلحق بذلك العجز عن التصرف، وصغر السن أو غير ذلك.

٥ - وهناك من اشترط أن يكون قرشيا لقول الرسول عليه السلام الأئمة من قریش.

ولكل فرقة من فرق المسلمين آراء واشترائط لمن يتولى الخلافة. يبين ابن خلدون في مقدمته حقيقة الملك بأنه اجتماع ضروري للبشر. وحتمية وجود قوانين سياسية مفروضة يسلم بها كافة وينقادون إلى حكمها، وبين الفرق بين السياسة التي يضعها العقلاء والحكماء أو السياسة التي يفرضها الله سبحانه وتعالى إلى أن يصل إلى القول: ان الملك الطبيعي هو حمل كافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل كافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة هي حمل كافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا.

ثم يواصل شرحه قائلا : -

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب، وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإمام،

فأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله، وأختلف في تسميته خليفة الله (١٩١).

وجوب إقامة الخليفة :

وقد أجمعت الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول عليه السلام على وجوب إقامة هذا الخليفة، ولم يشذ عن هذا الإجماع أحد من المسلمين إلا قلة من الخوارج وأصحاب الهوى.

كما أجمعت الأمة على أنه لا يصح أن يكون لهم في عصر واحد خليفتان لما يجره ذلك من التنافس والتباغض، وإن كانت الأحوال والظروف قد أجبرت الناس على تغيير رأيهم في هذا المعتقد بعد ذلك، فأصبح هناك خليفتان ثم ثلاثة ثم أكثر من ذلك.

وكان من الطبيعي أن يختلف المسلمون حول من يتولى هذا المنصب الخطير، وليس هذا مجال شرح مواقف كل فئة من المسلمين ووجهة نظرهم في ذلك.

خلافة أبي بكر الصديق :

هو عبد الله بن عثمان وهو أبو قحافة بن عامر بن كعب بن سعد ابن تيم بم مرة بن كعب لؤي، وأمه هي أم الخير سلمى بنت صخر، وكان والده أبو قحافة من سادات قريش في الجاهلية وكذلك نشأ ابنه أبو بكر حيث تمتع بمكانة كبيرة في قريش قبل إسلامه.

^{١٩١} المقدمة : ص ١٥٠ - ١٥١.

ولد أبو بكر بعد عامين من مولد الرسول - عليه السلام - وكان صديقا له وهناك يقول بأنهما تزاملا في التجارة.

كان الصديق أول من آمن من الرجال، وأعلن إسلامه ودعا إليه وكان مؤلفا لقومه سهلا، وكان أنسب قریش لقریش، وأعلم قریش بها وبمسا كان منها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يخشاه ويجلس إليه فأسلم على يديه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله حين استجابوا له فأسلموا، وكان هؤلاء مع علي وزيد وأبو بكر النفر الثمانية الذين بقوا بالإسلام وصدقوا رسول الله (١٩٢).

لأسباب عديدة مال المسلمون إلى أبي بكر الصديق نذكر منها :-

- ١ - تكليفه الصلاة حينما مرض الرسول عليه السلام.
- ٢ - ندبه للقيام بالحج في العام التاسع من الهجرة.
- ٣ - جاءت امرأة إلى النبي - عليه السلام - في حاجة لها فطلب منها النبي أن ترجع إليه في العام القادم فقالت: " أرأيت إن جئت فلم أجِدك " فقال لها: "إن لم تجدني فأت أبا بكر".

تولى أبو بكر الخلافة منذ اليوم الأول لوفاة الرسول عليه السلام وألقى خطبة قصيرة بين فيها سياسته التي سيسير عليها وتعد نبأها للنهج

^{١٩٢} محمد أسعد طلي: الخلفاء الراشدون ص ٨.

السياسي الذي اختطه الصديق وهو الالتزام بخطى رسول الله عليه السلام ومما قاله في الخطبة: "أما بعد. أيها الناس فإني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني. وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم" (١٩٣).

ومن هذا المنطلق كان على أبي بكر الصديق أن يواجه المشاكل التي نجمت عن وفاة رسول الله وهي :

- ١ - إنفاذ بعث أسامة بن زيد.
- ٢ - مواجهة المرتدين والمتبئين.
- ٣ - مواصلة رسالة رسول الله عليه السلام في دعوة الناس إلى الإسلام ولنتناول هذه النقاط باختصار فيما يلي : -

١ - إنفاذ بعث أسامة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعد الجيش قبل وفاته لإرساله إلى أطراف الشام وجعل فيه كبار الصحابة، وأمر عليه السلام أسامة بن زيد بن حارثة وكان هدف الجيش فتح أطراف الشام والانتقام لقتلى غزوة مؤتة ومنهم زيد بن حارثة والد أسامة لكن الرسول عليه السلام مرض مرضه الأخير، ولم يكن الجيش قد بارح المدينة وانتظر أسامة بالناس حتى أدركت

^{١٩٣} ابن هشام ج ٤ ص ٢٢٨.

الوفاء الرسول عليه السلام. وكان أمام بكر مشكلتين في جيش أسامة: أن يمضي الجيش أو لا يمضي في تلك الظروف الصعبة وخاصة وأن أنباء ارتداد القبائل كانت قد بدأت تنثر على المدينة، والثانية إمارة أسامة نفسه، وكان صغيرا بالنسبة لكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، لكن أبا بكر الصديق كما عرف عنه من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباع لسياسته أصر على أن يخرج جيش أسامة، وأن يخرج بأمره الذي أمره الرسول عليه السلام، ولذلك نادى مناديه من بعد الغد من وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لیتم بعث أسامة. "ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف" (١٩٤) وقام بعد ذلك في الناس خطيبا يحثهم على التمسك بما كانوا عليه على عهد الرسول، ويعظمهم ويحذرهم، وقال ردا على المتخوفين من إرسال البعث: "والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته" (١٩٥). وحين كلمه عمر أن الناس تطالبه أن يؤمر عليهم من هو أقدم سنا من أسامة قال أبو بكر: "لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أردد قضاء قضى به رسول الله"، وحين جادلته عمر أخذ أبو بكر بلحيته وقال له: "تكلتك أمك وعمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه" (١٩٦).

وخرج أبو بكر ماشيا يودع الجيش وأميره راكبا ووقف يوصي الجنود: "لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا طفلا صغيرا ولا شيخا

^{١٩٤} الطبري ج ٣ ص ٣٢٥.

^{١٩٥} نفس المصدر ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

^{١٩٦} نفس المصدر ص ٣٢٦.

كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا من أنفسهم له، وسوف تقومون على قوم يأتونكم بآتية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه" (١٩٧). ثم استأذن أسامة في أن يترك له ابن الخطاب في المدينة ليساعده، وعاد معه عمر، أما أسامة فمضى مغذاً في السير. وانتهى إلى ما أمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بث الخيول في قبائل قضاة والغارة على آيل فسلم وغنم وكان فراغه في أربعين يوماً سوى مقامه ومنقلبه (١٩٨).

يجمع المؤرخون على أن رأي أبي بكر كان صائباً في إنفاذ هذا الجيش لأن خروجه من المدينة للقتال أوهم المرتدين من العرب بوجود قوة في المدينة كافية للدفاع عنها، كما أنه أثار الخوف لدى القبائل فلم تقبل على مهاجمة المدينة، وكان ذلك منة عظيمة من من الله، وحسن رأي ونفاذ بصيرة من الخليفة رضى الله عنه.

٢ - الموقف من المرتدين :

لم يشهد الإسلام إقبالا واسعا من القبائل العربية إلا بعد فتح مكة حتى أن العام التاسع من الهجرة يسمى عام الوفود لكثرة الوفود التي قدمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تعلن اعتناقها للإسلام ومعنى ذلك أن وفاة الرسول - عليه السلام - قد فاجأت هذه القبائل ولم تكن قد تعودت بعد على النظم الإسلامية. وخاصة فكرة التنظيم الذي يجعل من المسلمين جميعاً

^{١٩٧} نفس المصدر ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

^{١٩٨} الطبري ج ٣ ص ٣٢٧.

صفا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. وإنما مازالت جنوبهم تغلي بما طبعوا عليها آجالا طويلة من عصبية قبلية. لذلك ما ان انتشر خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتشرت الردة في شبه الجزيرة العربية، وأخذت هذه الردة ثلاث صور: -

ارتداد كامل عن الإسلام - اتساع حركة المتبئين - الامتناع عن أداء الزكاة.

وكان أبو بكر الصديق مواجهة هذا الموقف العصيب، فحاول بعض الصحابة التفرقة بين من أرتد عن الإسلام، وبين ما بقي من الزكاة لكن الصديق قال: "والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعوني عقالا أو عقالا بغير كانوا يؤمنونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها" (١٩٩).

بدأ أبو بكر جهاده ضد هؤلاء جميعا بمحاولة كسب الوقت أملا في أن يعود بعث أسامة ومعه المسلمون فحينما قدمت كتب أمراء النبي صلى الله عليه وسلم من كل مكان بانتفاض العرب عامة أو خاصة، وتسلطهم على المسلمين فحاربهم أبو بكر بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاربهم بالرسول فرد رسلم بأمره وأتبع وسلم رسلا. وانتظر بمصادماتهم قدوم أسامة (٢٠٠).

من ناحية أخرى حاول ان يحصن المدينة بمن بقي معه فيها من الرجال وكانوا قليل. وحينما جاء وفد عبس وذبيان يعرضون الطاعة ويطلبون الإعفاء من الزكاة، رفض الصديق، وقال لهم: "والله لو منعوني

^{١٩٩} محمد سعد طلي: الخلفاء الراشدون ص ٢٠.

^{٢٠٠} ابن الأثير ج ٢ ص ٢٣١.

عقالا لجاهدتم عليه"، فقام الوفد بعد ان أدرك قلة الرجال بالمدينة وضعفهم فاجتمر شرا، وتتبأ بذلك الصديق فجعل عليا والزيير وطلحة وعبد الله بن مسعود على مشارف المدينة ونبه على كل من في المدينة بالاستعداد وفعلا عندما هاجموا أطراف المدينة كان الصديق ومن معه في انتظارهم فناوشوهم حتى ردوهم، وكاد النصر يتم للمسلمين عليهم لولا أنهم لجأوا إلى إزعاج إبل المسلمين مما اضطرهم إلى العودة إلى المدينة. وأستعد أبو بكر طوال الليل وفي الصباح الباكر خرج بنفسه على رأس من معه من المسلمين ففاجئوا المرتدين وأجبروهم على الابتعاد عن المدينة وعاد جيش أسامة فتركهم أبو بكر للراحة في المدينة، وخرج على رأس من كان معه حتى بلغ الربرة فقتل من فيها من المرتدين، وهزمهم وأسر منهم جماعة، وكان الصديق رضى الله عنه مثالا للبطولة والشجاعة.

بعد ذلك بدأ الصديق يعد الجيوش للقضاء على المرتدين والمتبئيين وكانت على الوجه التالي :-

- خالد بن الوليد ووجهته طليحه بن خويلد ثم مالك بن نويرة.
- عكرمه بن أبى جهل وأمره بمسيلة الكذاب باليمامة.
- المهاجر بن أبى أمية ووجهته الأسود العنسي.
- حذيفة بن محصن ووجهته من أهل دبا.
- عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة.
- سويد بن مقرن ووجهته تهامة اليمن.
- طريفة بن حجاز ووجهته إلى بني سليم ومن معهم من هوازن.
- عمر بن العاص ووجهته قضاة.
- خالد بن سعيد بن العاص ووجهته عرب مشارف الشام.
- شرحبيل بن حسنة: ومضى في أثر عكرمة بن أبى جهل.

وزود الصديق هؤلاء الأمراء بكتب يوصيهم فيها ألا يقاتلوا حتى يدعوا إلى الله، وطلب منهم أن يؤذنوا قبل القتال فإن سمعوا أذنا من الجهة الأخرى علموا أنهم باقون على إسلامهم فلا يقاتلوا وأن لم يسمعوا أذنا حاربوهم.

مضت هذه الجيوش إلى حالها، وخاضت عدة معارك حاسمة من أشهرها قتال خالد بن الوليد لطليحة بن خويلد الأسدي وكان طلحة قد تنبأ في حياة الرسول عليه السلام، وزاد جمعه بعد وفاته وبدأ القتال بين قوات خالد وبني أسد وكان على رأسهم عيينه بينما كان طلحة يقيم في بيت من الشعر يتنبأ لهم، وأشدت القتال، وأوقع المسلمون هزيمة قاسية بالمرتدين، وهرب طليحة وزوجته إلى الشام، ثم عاد إلى الإسلام، وحسن إسلامه واشترك في الجهاد في فتح العراق.

أما مسيلمة الكذاب فهو متنبئ به حنيفة، وكان عددهم يصل إلى حوالي ٤٠٠٠٠ مقاتل، وكان المكلف به شرحبيل ابن حسنة وعكرمة بن أبي جهل، ولم يكتب النصر أولا لجيوش المسلمين على بني حنيفة، ومن ثم كلف الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد بعد أن انتهى من بني أسد وبني تميم أن ينضم إلى شرحبيل وعكرمة لمواجهة ردة مسيلمة وقومه خاصة وأن سجاح بقواتها قد انضمت إلى مسيلمة مكونين بذلك جبهة قوية ضد المسلمين.

ولقد افترى هؤلاء المرتدين حين زعموا أنه يوحى إليهم وأنهم ينزل عليهم الوحي الذي كان ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وبينما مسيلمة وسجاح يتنبايان ويشيعان أقوالهما بين الناس ويشجعانهم على قتال المسلمين

فاجأهم خالد بن الوليد بجيوشه وتمكن من قتل مسيلمة أما سجاح فقد أسلمت وحسن إسلامها بعد ذلك. ولم يمض أكثر من عدة أشهر حتى تمكنت جيوش المسلمين من إعادة توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، وطاعة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٠١).

٣ - مواصلة رسالة الرسول عليه السلام فور عودة الناس إلى السلام : -
يتمثل جوهر الدعوة الإسلامية في إيلاغ رسالة الله سبحانه وتعالى إلى الناس كافة بدءاً من الأقربين إلى رسول الله، ومن هنا كان انطلاق رسول الله بعد أن فرغ من شبه جزيرة العرب إلى إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء على عصره، ثم إرساله البعث بعد ذلك حدود الشام، فكانت سرية مؤتة وغزوة تبوك، وتجهيز بعث أسامة بن زيد.

وحيثما تولى أبو بكر الخلافة نهض بإنفاذ جيش أسامة، ثم واجه محنة المرتدين ومن ثم بدأ يستعد لتوجيه العرب إلى الجهاد وإيلاغ رسالة الله إلى الشعوب المجاورة من الفرس والروم، ومنذ هذه اللحظة بدأ ما يعرف بالتاريخ الإسلامي باسم " الفتوحات الإسلامية ".

الجهاد على جبهة العراق وفارس :

بعد انتهاء المسلمين من القضاء على الردة في منطقة البحرين، وجد المسلمون أنفسهم بالقرب من عرب الحيرة وبعض القبائل العربية المقيمة بجنوب العراق وبرز هناك المثنى بن حارثة الشيباني الذي تمكن من إحراز بعض الانتصارات على ساحل الخليج العربي لكنه وجد ألا طاقة له بذلك

^{٢٠١} انظر ابن الأثير ج ٢ ص ٢٦١ وما بعدها.

فأرسل إلى أبي بكر يطلب الأذن له بالقتال في العراق وكان ذلك في أول السنة الثانية عشر من الهجرة.

توجه خالد بن إلى الحيرة حيث دعاهم إلى الإسلام أو الجزية فوافق
اياس بن قبيصة الطائي أمير الحيرة حينذاك على دفع الجزية، ويقول ابن
الأثير أنه أمر خالد أن يذهب إلى الأبله على رأس الخليج بينما أمر عياض
بن غانم أن يقصد العراق، وانه كتب إلى المثنى بأن يلحق بخالد في الأبله،
حيث التفت القوات هناك وكان عددها معا حوالي ١٨ ألف مقاتل وجرت
بينهما وبين الفرس عدة مواقع أهمها معركة المذار والولجة وعين التمر
ودومة الجندل وتم له إلى جانب الحيرة فتح بلاد السواد من أرض العراق
والأنبار، وأماكن أخرى.

وحينما احتاج المسلمون في بلاد الشام إلى النجدة والمدد طلب أبو
بكر الصديق من خالد بن الوليد أن يتجه إلى بلاد الشام، وأن يترك جهة
العراق لقيادة المثنى بن حارثة الذي التقى مع الفرس بقيادة هرمز وانتصر
عليه، ثم شغلت بلاد فارس في مشاكلها الداخلية مما مكن المثنى من فرض
سيطرة المسلمين على غربي الفرات. احتاج المثنى إلى المدد فرحل إلى
المدينة يتشاور مع الخليفة فوجده على فراش الموت لكنه أوصى عمر بن
الخطاب بالمثنى وبجبهة العراق، وتوفي الصديق والمثنى بن حارثة في
المدينة.

الجهاد على جبهة الشام وفلسطين :

كانت بلاد الشام من البلاد المعروفة للمسلمين قبل الإسلام فكثيرا ما وطئوها بتجارتهم ورحلاتهم، وكانت هذه البلاد تحت السيطرة البيزنطية، ولقد حدثت عدة مصادمات بين الروم حكام هذه البلاد وبين المسلمين على أواخر عهد النبي عليه السلام، وأوائل عهد أبي بكر الصديق.

وحين فرغ الصديق من حروب الردة وبدأ للاتجاه لفتح البلاد المجاورة ووجه خالد بن الوليد إلى بلاد العراق بدأ أيضا في توجيه الجيوش لبلاد الشام، وهي شجاعة فريدة تذكر لأبي بكر الصديق حيث تصدى في وقت واحد لأكبر إمبراطوريتين عرفهما التاريخ حينذاك الفرس والروم.

بقول الواقدي متحدثا عن أبي بكر أنه قاتل بني حنيفة وأهل الردة وأطاعته العرب، عزم أن يبعث جيشه إلى الشام، وصرف وجهته لقتال الروم (٢٠٢) فجمع صحابة رسول الله وخطبهم بعزم فأجابوه إلى ذلك فكتب رضى الله عنه إلى القبائل الحميرية يدعوهم إلى الجهاد فقدمت إليه هذه القبائل كلها مع أمرائها، وانضم إليهم من يرغب الجهاد من المسلمين. فقام أبو بكر الصديق بتقسيمها إلى أربعة جيوش أساسية أمر عليها أولا يزيد بن أبي سفيان ومعه ربيعة بن عامر في ألفين من الفرسان. ثم أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وعمر بن العاص، فعقد للجميع وقال لهم: إذا اجتمعتم بأمير الناس أبو عبيدة، ثم أنفذهم جيشا بعد جيش فلما قدمت الجيوش الشام كتب أبو عبيدة إلى أبي بكر يعلمه إقبال ملك الروم فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يسير

٢٠٢ الواقدي: فتوح الشام ص ٥.

إلى الشام فنفذ خالد من أهل القوة ممن كان معه وسار في البرية والمفازة ثمانية أيام حتى وافاهم^(٢٠٣).

ولقد وقعت بين المسلمين والروم ملاحم كثيرة جدا يصعب حصرها أو تنسيقها، وأختلف المؤرخون في تحديد زمانها ومكانها اختلافا بينا، وقد خصص لها الواقدي كتابا ضخما بعنوان فتوح الشام^(٢٠٤) وسنذكر أهم المعارك التي دارت في هذه المنطقة:

معركة أجنادين:

وقعت هذه المعركة الهامة يوم السبت الثاني من جمادى الأولى سنة ثلاثة عشرة من الهجرة، ولقد انقسم المؤرخون قسمين في تسمية المعركة الهامة التي وقعت في هذا التاريخ، فاليعقوبي والواقدي يؤكدان أنها أجنادين^(٢٠٥) أما الطبري وابن الأثير فجعلها معركة اليرموك^(٢٠٦).

^{٢٠٣} اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٢.

^{٢٠٤} الواقدي : فتوح الشام مجلدان. ٦٢٠ صفحة من الحجم المتوسط والخط الصغير نشر دار الجيل.

^{٢٠٥} الواقدي : فتوح الشام ج ١ ص ٦٦ اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٢.

^{٢٠٦} الطبري : ج ٣ ص ٣٩٤ و ص ٤٣٥. ابن الأثير ج ٢ ص ٢٨٠.

وكان الأمر كذلك بالنسبة للمؤرخين المحدثين بعضهم جعلها أجنادين^(٢٠٧) والبعض الآخر جعلها اليرموك^(٢٠٨) ويرجع هذا الالتباس إلى كثرة المعارك والمواقع ومهما كان الأمر فإنه لم يغير من الواقع التاريخي شيئا والذي يثبت أنه في الحام الثالث عشر من الهجرة التقى المسلمون والروم في معركة غير متكافئة حيث حشد الروم كل قواتهم بقيادة تيودوس شقيق الإمبراطور هرقل وكان جيشهم يصل إلى ما يقرب من مائة ألف مقاتل، بينما كانت قوات المسلمين مقسمة بين القادة الأربعة والتي لا تصلفي مجموعها إلى ٤٠ ألفا، ولذلك طلبوا المدد من الخليفة أبي بكر الصديق فأمدهم بخالد بن الوليد وبعض قواته العاملة في العراق، وحينما وصل خالد إلى أرض المعركة ووجد القادة كل منهم بازاء قسم من قوات الروم خطبهم وناشدهم الله توحيد صفوفهم وأقترح عليهم أن يتركوا له القيادة هذا اليوم. على ان يكون كل منهم قائدا عاما يوما آخر. وتمكن خالد بتنظيمه العسكري وبراعته الحربية ان يوقع بالروم هزيمة شديدة جعلت عددا كبيرا من المدن الشامية تسقط في أيدي المسلمين، وجعلت الروم يفكرون في معركة أخرى يستردون بها مكانتهم في هذه البلاد. وفي نهاية هذه المعركة جاء البريد بموت أبي بكر الصديق وتولية عمر بن الخطاب الخلافة وكذلك كذلك عزل خالد عن الولاية وتعيين أبا عبيدة بن الجراح قائدا عاما لجيوش المسلمين بالشام، وكان الروم بأجنادين تسعين ألفا فقتل منهم في ذلك اليوم خمسون ألفا، وتفرق من تبقى منهم فمنهم من انهزم إلى دمشق ومنهم من انهزم إلى

^{٢٠٧} أحمد شلبي : الموسوعة ج ١ ص ٥٨٤ - السيد عبد العزيز سالم: الدولة العربية ج ١١

ص ٢٠٣ محمد أسعد طلس الخلفاء الراشدون ص ٦٣. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ١٧٨.

^{٢٠٨} حسن إبراهيم : التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٢٢٥. فتحية النبراوي : الخلفاء الراشدون

ص ٤٣. الشيخ الخضري - محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ج ٢ ص ٣.

قيسارية، وغنم المسلمون غنيمة لم يغنم مثلها وأخذوا منهم صلبان الذهب والفضة، فجمع خالد ذلك كله مع تاج وردان إلى وقت القسمة، وقال خالد: " لست أقسم عليكم شيئا إلا بعد فتح دمشق إن شاء الله تعالى "، وكانت الوقعة بأجنادين ليلة ست خلت من جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية وذلك قبل وفاة أبي بكر بثلاث وعشرين ليلة^(٢٠٩).

وفاة الصديق :

أصيب أبو بكر بالمرض في السنة الثانية لخلافته لثلاث عشر سنة خلت من هجرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينما اشتد عليه المرض دعا إليه كبار الصحابة واستشارهم في تولية عمر بن الخطاب من بعده بعد أن كان قد أمره على الصلاة فيهم خلال مرضه، كما كان يعهد إليه أيضا بأمر القضاء.

وافق الصحابة الذين شاورهم على ذلك فكتب بذلك عهده وطلب من المسلمين الموافقة على ما في الكتاب، ثم أنه أوصى عمر بن الخطاب بالمسلمين، وجاءه بعض الصحابة بعد علمهم بعهده إلى عمر يشكون إليه شدة عمر لكنه أقنعهم بأن تلك الشدة إنما كان يبيدها عمر لما كان أبو بكر من لين فإذا ما انتهى الأمر إلى عمر زالت تلك الشدة.

ومات أبو بكر رضوان الله عليه وعمره ثلاث وستون سنة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر.

^{٢٠٩} الوافد فتوح الشام ج ١ ص ٦٦.

الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

١٣ هـ - ٢٤ هـ - ٦٣٤ م - ٦٤٤ م

من أبرز الخلفاء الراشدين، بل من أعظم الشخصيات في التاريخ، ويعترف بفضلته ومكانته أعداؤه وأصدقاؤه على السواء، ولا تكف الكلمات هنا مهما كثرت للتعبير عما نحسه من احترام وتقدير لتلك الشخصية الفذة التي أخرجتها مدرسة الإسلام، وصاغتها تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي العدوي القرشي وكنيته أبو حفص، ولقبه الفاروق، لقبه بذلك سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمه حنثمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية القرشية، فهو حسيب أصيل أما وأبا.

ولد بعد عام الفيل بثلاث عشر سنة، أي أنه أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم في حدود اثنتا عشر سنة تقريبا. كان أبوه من أشرف قريش، اعتنى بعمر وأحسن تأديبه فعلمه القراءة والكتابة في وقت ندر فيه من كان يتعلم ذلك، ونشأه على أفضل ما ينشأ عليه أبناء قريش من البراعة في الفروسية، وحفظ أخبار الأوائل وأشعار العرب، ورواية مناقبهم ومفاخرهم حتى غدا في المجال فارسا لا يشق له غبار حتى أن قريشا فوضته سفيرا ينوب عنها في الملحاحات ويدافع عنها في المناقرات والمفاخرات.

يقول ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب: كان عمر من إشراف قريش
واليه كانت السفارة في الجاهلية، وذلك أن قريشا كانت إذا وقعت بينهم حرب
أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرا، وإن نافرهم منافرا، أو فاخرهم مفاخر،
بعثوه منافرا ومفاخرا.

عمل عمر - رضى الله عنه - في شبابه بالتجارة فسافر مع قومه إلى
الشام صيفا وإلى اليمن شتاء.

حين بدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - دعوته إلى الإسلام كان
عمر شابا يافعا، تعترف قريش له بالشجاعة والحمية والإقدام، وكان فتى
قريشيا يغير بعشيرته وتقاليدها. عنيفا في الحفاظ على مكانتها وهيبتها
وتحمس لديه آبائه تحمسا لا يخالطه ريب، ولهذا وقف من رسول الله ودعوته
موقفا شديدا العداء، فانتقد الرسول ودعوته انتقادا حادا وعذب بكل ما استطاع
الذين صباؤا عن دين قومهم، واشترك في الإساءة إلى القوم الذين بدلوا دين
لآبائهم، وكان معاديا عداء شديدا للإسلام والمسلمين.

إسلام عمر :

أسلم عمر بن الخطاب في العام السادس من البعثة، وهناك من يقول
أن إسلامه كان في العام الخامس^(٢١٠) وأكمل بإسلامه أربعين رجلا، ويقول
ابن الجوزي رضى الله عنه عن إسلام عمر: ظهر الإسلام يوم أسلم، وسمى
بالفاروق لذلك، وكان إسلامه فتحا، وهجرته نصرا، وغضبه عزاء، ورضاه
عملا.

^{٢١٠} ابن الجوزي: عيون التاريخ والسير ص ١٠٧.

ولقد تعددت الروايات في سبب إسلام عمر ولكنها تتفق في شيء واحد ألا وهو رغبته في القيام بعمل كبير ولكن إسلام أخته وزوجها أجبراه على إعادة النظر في موقفه من الإسلام، وكان ثبات موقف أخته وعدم رهبتها من بطش أخيه هو العامل الحاسم الذي وقع بعمر بن الخطاب أن يفكر في الإسلام وأن يطلب الصحيفة التي كانوا يقرأون فيها والتي كانت تحمل آيات من كتاب الله، يجمع المؤرخون على أنها سورة طه، فلما قرأها شرح الله صورته للإسلام، وغدا إلى رسول الله في دار الأرقم حيث أسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان إسلام عمر نقطة هامة في تاريخ الدعوة، وسببا من أسباب عزة المسلمين لما كان له من الجاه والنفوذ والسمعة الطيبة بين القرشيين علاوة على شجاعته وفروسيته، ويصف أن مسعود - رضى الله عنه - إسلام عمر بقوله: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال: لقد رأيتنا ولم نستطع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا، وقال أيضا: لما أسلم عمر ظهر الإسلام ودعا إلى الله علانية. وقال على: لما أسلم عمر وأعتز الإسلام والمسلمون به، طلب إلى رسول الله أن يظهر الدعوة، وأن لا يحفل بقلة المسلمين حتى رضى رسول الله، وخرج المسلمون في صفين أحدهما يقوده عمر والآخر حمزة بن عبد المطلب حتى أدوا الصلاة إلى الكعبة.

ودافع عمر عن المسلمين ما استطاع وهو في مكة، ولما أسلم عمر كمل عدد المسلمين أربعين شخصا، ونزل قول الله سبحانه وتعالى: "يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين".

تبوأ عمر رضى الله عنه مكانة عالية في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصبح من أقرب أصحابه والمشيرين عليه، وشهد معه المواقف جميعها، وكانت آراؤه السديدة، ونصائحه الغالية والتي نزل القرآن الكريم مصدقا لها ومؤيدا لوجهة نظرها هي التي جعلت منه - مثل أبي بكر الصديق رضى الله عنه - بمثابة الوزير لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

هاجر عمر إلى المدينة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من الجرأة والشجاعة بحيث أنه رفض أن يهاجر سرا مثل باقي المسلمين فحينما عزم على الهجرة مضى إلى الكعبة والملا من قريش بفنائها، مطاف بالبيت سبعا، ثم أتى المقام فصلى متمكنا، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وصاح بالناس: شامت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطي ومن أراد أن تتكلم أمه ويبتسم ولده، ويرمل زوجه فليقتني خلف هذا الوادي. فلم يتبعه أحد من المشركين، وهكذا خرج مهاجرا في سبيل الله معلنا غضبته على قريش الظالمة.

قدم عمر المدينة وأخذ ينشر الإسلام بها إلى أن قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم - فكان عضده وعودته في تأسيس دولة الإسلام، وشارك معه في جميع غزواته، وكان قريبا وإنما من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تزوج الرسول عليه السلام من السيدة حفصة ابنة عمر وزادت بذلك مكانة عمر عند رسول الله، وكان محبا لرسول الله إلى درجة أن رفض أن يصدق خبر وفاته، وتهدد الناس بالعقاب أن هم قالوا بذلك.

كان عمر أحد الثلاثة الذين ذهبوا إلى سقيفة بن ساعدة و استطاع بحنكته أن يحسم الموقف لصالح أبي بكر رضى الله عنه، وأصبح من أقرب المقربين إلى خليفة رسول الله شارك معه في قتال المرتدين، ويشترك معه في أعداد الجيوش التي ذهبت إلى فارس والشام، ووقف معه ناصحا ومشيرا حتى كان سنده القريب ودعامته القوية يرجع إليه في الملحات ويستشير به في كل الأمور، وينفذ رأيه أحيانا ولو كان مخالفا لرأي الخليفة نفسه.

خلافته :

لما أحس أبو بكر رضى الله عنه بدنو أجله رأى أن خبر من يعهد إليه بخلافته هو عمر بن الخطاب، لما عرف فيه من الإخلاص والإيمان والشرف والقوة، واستشار أبو بكر كبار الصحابة فلم يجد عندهم مانعا من توليته فاستدعى عثمان بن عفان، وأملي عليه كتابا يعهد بالأمر بعده فيه لعمر بن الخطاب هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن بها الكافر، ويتقي الفاجر، أني قد استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن بر وعدل، فذلك علمي به، ورأيي به، وإن جار وبدل، فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما كسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون: فلما مات أبو بكر كان إجماع الصحابة والمسلمين كاملا على أن الخليفة من بعده هو عمر بن الخطاب.

أهم أعمال عمر

استكمال فتح العراق:

ذكرنا أن المثنى بن حارثة الشيباني بعج أن تركه خالد بن الوليد في جبهة العراق وأتجه إلى الشام، قام بمحاربة الفرس لكنه احتاج إلى المدد فعاد إلى المدينة لينشاور مع الصديق فوجده على فراش الموت، ومات رضي الله عنه بعد أن أوصى عمر بن الخطاب بالاهتمام بالمثنى وأن يندب الناس معه.

ويروى الطبري أنه قال له: أني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فلن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى. وأن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وأن عظمت من أمر دينكم (٢١١). وبعد وفاة الصديق - رضي الله عنه - ندب عمر الناس ليقوموا مع المثنى وذلك قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر، وظل يندب الناس ثلاثة أيام دون جدوى يندبهم كل يوم، فلا يندب أحد إلى فارس من أكره الوجود إليهم وأثقلها عليهم وذلك لشدة سلطانهم وشكوكهم وعزتهم وقهرهم الأمم (٢١٢).

وخطب المثنى تشجيعاً لهم وحاول إزالة هيبة الفرس من قلوبهم إلى أن تقدم أبو عبيدة بن مسعود وبعض الناس، ولى عمر القيادة لأبي عبيدة بن مسعود وأرسله في ألف من أهل المدينة وما حولها، وجعل له الإمارة لسبقه إلى الإجابة لنداء الجهاد واستطاع مع المثنى إحراز بعض الانتصارات على

^{٢١١} الطبري ج ٣ ص ٤١٤.

^{٢١٢} نفس المصدر ج ٣ ص ٤٤٤.

الفرس ثم حشد له الفرس حشدا قويا التقى معه في معركة تسمى معركة الجسر وكان يقود الفرس فيها بهمن جاذويه، وفي هذه المعركة سقط أبو عبيدة شهيدا تحت أرجل الفيلة بعد أن كان يحرز النصر على الفرس، ونتيجة لذلك اضطرت صفوف المسلمين، وجرح المثنى جرحا شديدا، وسقط الناس في نهر الفرات وحلت بهم هزيمة شديدة، وتشتت جيش المسلمين، ويقول الطبري: هلك يومئذ أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقي ثلاثة آلاف^(٢١٣)، وكان يمكن أن تكون الهزيمة أشد لولا حدوث بعض الاضطرابات الداخلية في بلاد فارس، وبلغت هذه الأخبار عمر بن الخطاب رضى الله عنه فنهض لرفع الروح المعنوية والهمم وأمد المثنى بجيش يقوده جرير بن عبد الله الذي اجتمع مع المثنى بن حارثه والتقى المسلمون مع الفرس في معركة قاسية أنزلوا فيها بالجيش الفارسي وقتلوا قائده مهران وثأروا بذلك لهزيمة يوم الجسر. وعرفت هذه المعركة باسم معركة البويب.

القادسية :

تنبهت الفرس لخطورة المسلمين، وحشدت كل قواها للدفاع عن نفسها ضد المسلمين فنبذوا خلافتهم الداخلية وولوا أمورهم يزدجرد الثالث الذي ولى قيادة جيوشه لأشهر قائده رستم، وتحرك رستم إلى القادسية في قوات كبيرة، وعلم بذلك جرير بن عبد الله والمثنى بن حارثه فكتبوا إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمدانه ويطلبان المدد.

^{٢١٣} الطبري ص ٤٠٤ - ٤٥٥.

أهتم عمر بن الخطاب بأمر العراق اهتماماً واضحاً، وندب الناس للجهاد فتقاطروا وكان قد ذهب خوفهم من الفرس، وليس أدل على ذلك من قول المثنى الذي ينقله لنا الطبري: قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب، ولمائة من العرب اليوم أشد على من ألف من العجم^(٢١٤). وأسعد عمر بن الخطاب بالسير بنفسه على رأس الناس لقتال الفرس، لكن الصحابة تشاوروا ورأوا أنه من الخير أن يرسل واحداً من صحابة رسول الله وأن يبقى عمر بالمدينة^(٢١٥). وأخيراً استقر الرأي على أن يعهد بالقيادة إلى الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص مع جيش كبير أختلف الناس في عدده.

اشتبك الجيشان في آخر سنة خمس عشرة، ودارت المعركة يومان وليلة وانتهت بهزيمة الفرس، وقتل رستم وولى رجاله هاربين وتعتبر القادسية من المواقع الهامة في تاريخ الفتح الإسلامي للعراق لأنها أدت إلى انتصارات أخرى لاحقة، وفتحت للمسلمين أبواب فارس وسقطت المدائن عاصمة الفرس، وهرب منها يزدجرد إلى حلوان، ودخل المسلمون المدائن، ونزل سعد بن أبي وقاص قصر كسرى ووجد بها كما هائلاً من الغنائم^(٢١٦) ثم أنه التقى بعد ذلك مع الفرس في معركة ثانية عند جلولاء في عام ١٦ هجرية أو ١٧ على ما تقول بعض المصادر وأنتصر فيها انتصاراً كبيراً وقتلت أعداداً ضخمة من القوات الفارسية، ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار

^{٢١٤} نفس المصدر ج ٤ ص ٤٨١ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠٩.

^{٢١٥} نفس المصدر ج ٤ ص ٤٨١ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠٩.

^{٢١٦} أقرأ الوصف المثير لهذه المعركة عند ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها.

من حلوان إلى الري، وقدم القعقاع بن عمر على رأس جيش المسلمين ودخل حلوان، ثم بعد ذلك ارتحل مع سعد بن أبي وقاص إلى الكوفة (٢١٧).

نهاوند أو فتح السجوح :

لم ييأس الفرس رغم هذه الهزائم المتكررة وأرسلوا في جمع الجنود من جميع الجهات، ومن أصبهان تجمعوا في جموع كثيفة وخرجوا إلى نهاوند بقيادة مروان شاه بن هرمز، وكان هدفه طرد المسلمين من الكوفة والبصرة، ويقول ابن الأثير أن الفرس اجتمعت على الفيرزان حوالي ١٥٠ ألفاً، وحينما كتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بذلك استشار الصحابة فأشاروا عليه أن يكتب أيضاً إلى المسلمين في كل مكان لندبهم عن أهل العراق، ثم عاد سعد بن أبى وقاص إلى المدينة للقاء عمر فأبقاه معه واختار النعمان بن مقرن لقيادة المسلمين وكان عدد جيشه في حدود الثلاثين ألفاً، ودارت معركة شديدة استشهد فيها النعمان بن مقرن وتولى بعده حذيفة بن اليمان وفتح الله على المسلمين وانتصروا انتصاراً ساحقاً على الفرس، ودخل المسلمون نهاوند واستولوا على ما بها من الأموال والذخائر.

وكانت هذه المعركة هي آخر المعارك الهامة في فتح فارس ولم يجتمع للفرس بعد ذلك اجتماع، وملك المسلمون بلادهم (٢١٨).

^{٢١٧} ابن الأثير ج ٤ ص ٣٦١.

^{٢١٨} ابن الأثير ج ٣ ص ٢ وما بعدها.

استكمال فتح الشام:

أشرنا إلى موقعة أجنادين الهامة، عام ١٣ هجرية، وكيف حقق المسلمون فيها نصرا كبيرا أوقع الرعب والهلع في أوصال هرقل إمبراطور الروم في الوقت التي زحفت فيه القوات الإسلامية للاستيلاء على فحل وبيلان وبعض المدن الأخرى.

فتح دمشق :

نزلت الجيش الإسلامية حول مدينة دمشق ونزل خالد بقواته على الباب الشرقي ونزل أبو عبيدة على باب الجابية، وأمر خالد بن يزيد بن أبي سفيان وأصحابه أن ينزلوا على الباب الصغير، وشرحيل بن حسنة وجنوده على توما، وأمر عمرو بن العاص أن ينزل على باب الفراديس، وقيس بن هبيرة إلى الباب الفرج، أما ضرار بن الأزور في ألف من أصحابه للطواف حول المدينة (٢١٩).

دارت المناوشات بين المهاجرين والمدافعين، وكانت هناك بطولات عظيمة وخرج المدافعون من باب توما يقاتلون شرحيل بن حسنة، كما أنهم ناوشوا المسلمين على جمع الجهات بعد ذلك إلى دمشق حتى طابوا الصلح، وتفاوضوا مع أبو عبيدة ابن الجراح بينما دخل خالد عنوة من الباب شرقي ووضع السيف في الروم إلى أن وصل إلى كنيسة مريم وهناك التقى الجيشان جيش خالد وأبي عبيدة وكلاهما متمسك بموقفه خالد فتح المدينة قسرا وأبو عبيدة فتحها صلحا وعرضا الأمر على صحابة رسول الله - فأقروا موقف

^{٢١٩} الواقدي: فتوح الشام ج ١ ص ٧٠ الطبري ج ٢ ص ٢٩٣.

أبي عبيدة لئلا يقال بأن المسلمين يغدرون في عهدهم ولأنهم في كل شيء
وبعده دعاة مبادئ وأصحاب رسالة (٢٢٠).

فتح حمص :

بعد دمشق تساقطت مدن الشام الأخرى، وقام خالد بن الوليد بفتح
حمص ندبه إليها أبو عبيدة بن الجراح، كما توجه شخصيا إلى بعابك
وأستأمن بعد ذلك أهل قنسرين.

حاصر خالد حمص وكانت مدينة الأسوار، ووافته هناك الجيوش
الإسلامية ومعها أبو عبيدة بن الجراح، ودارت المفاوضات مع أهلها على أن
يعطوا المسلمين مؤونة خمسة أيام، ويرحل عنها المسلمون إلى مدن غيرها،
وكان أبو عبيدة قد رأى ذلك لكي لا يطول حصار المدينة على أن يعود إليها
بعد أن يكون قد قل زادها، وتفرق أهلها ورحل المسلمون ففتحوا مدينة
الرسطن وعادوا إلى حصار حمص، وقاومت المدينة مقاومة شديدة واستشهد
من المسلمين على أبوابها عكرمة بن أبي جهل، وفي صباح اليوم التالي عمد
المسلمون إلى الحيلة فرأى خالد أن ينهزم المسلمون قليلا ثم إذا خرج الروم
من أسوارهم عاودوهم بالهجوم، ونجحت الخطة والتحم المسلمون والروم في
معركة ضارية أبدى فيها جنود الله بسالة رائعة مكنتهم من الانتصار، ثم
اجتمعت رؤوس المدينة من الرهبان والقساوسة على مصالحة أبي عبيدة،
وقبل أبو عبيدة منهم الصلح، ورفض أن يدخل المدينة إكراما لأهلها لأنه كلن
يعلم باستعدادات هرقل لمعركة كبيرة، وقال لهم: لست ادخل مدينتكم حتى
نرى ما يكون بيننا وبين هرقل. و أراد أهل حمص أن يكرموا المسلمين

^{٢٢٠} انظر المصدر السابق ج ١ ص ٧٩ - ٨٠.

بالإقامة والعلوفة فنهاهم الأمير عبيدة عن ذلك، ولم يدخل المسلمون إلى حمص إلا بعد معركة اليرموك (٢٢١).

معركة اليرموك :

لا شك أن هذه الانتصارات المذهلة التي حققها المسلمون ذهبت بصواب هرقل الروم ودفعته إلى التفكير في معركة فاصلة فعمل على حشد ما أمكن من القوات واستجاب الروم لندائه وبدأت تصله الوفود حتى يقال: أنه لم تمضي عدة أيام حتى صار أول جيشه عنده بإنطاكية وآخرها في رومية الكبرى، وأنه بعث جيشا إلى قيسارية وجيشا آخر إلى بيت المقدس، وأتاه ما هان الأرمني وقد جمع من قومه ما لا يجمعه أحد من أصحاب الملك هرقل وعند ذلك قسم قواته إلى أربعة جيوش وجعل القيادة العليا إلى ما هان ملك الأرمن، أما قادة الجيوش فكانوا: قناطير وجرجير والديرجات قورين وأوصاهم بأن أعمالوا أنه ليس بينكم وبين العرب إلا هذه الواقعة (٢٢٢).

كان أبو عبيدة مقيما بالجابية عندما وصلت الأخبار بتحريك الروم فاستشار أصحابه وقرروا الرحيل إلى اليرموك لمناسبتها للمعركة وقربها من بلاد الحجاز. والتقى الطرفان هناك على نهر اليرموك وظلوا أياما لا يقاتلون ولا يثيرون حربا.

وجدير بالذكر اشتراك العرب المتحصرة من الغساسنة إلى جانب الروم في هذه المعركة وكان على رأسهم جبلة بن الأيهم في ستين ألفا من

^{٢٢١} الواقدي : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٧.

^{٢٢٢} الواقدي : فتوح الشام ج ٢ ص ٢٠٧.

أصحابه وقدمهم ماهان للقاء العرب أولا وجرت مناوشات أولية بين العرب المنتصرة والمسلمين. انتصر فيها المسلمون. وكتب أبو عبيدة إلى عمر يستمده فأمدهم بحوالي سبعة آلاف مقاتل من اليمن وحضر موت ومكة والطائف. وكان عدد المسلمين في المعركة حوالي ٤٠ ألفا.

جرت بعض المفاوضات بين العرب والروم ثم بدأت المباشرة، وأبدى المسلمون شجاعة باهرة، وفقدوا بعض الشهداء، وأخيرا التحم الفريقان في معركة خالدة أبدى فيها كل طرف شجاعة باسلة وهمية عالية، وكان المسلمون أصدق نية وأعظم همة ولذلك رغم قتلهم وكثرة عدوهم إلا أنهم تمكنوا من إيقاع الهزيمة القاسية بالروم وبادوا معظم الجيش البيزنطي، وساعد على الهزيمة أن العرب المنتصرة بعد أن عاينوا صبر العرب المسلمين وجلدهم، تغلبت عليهم عواطف القرابة وروابط الدم بينهم وبين العرب فانحاز جيلة بن الأيهم إلى أبناء عمه من الأنصار.

ولقد كانت تلك الهزيمة القاسية سببا في أن يرحل هرقل إلى القسطنطينية فلما جاوز درب الذي يصل أرض الشام بأرض بيزنطة قال: " عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو " (٢٢٣).

فتح بيت المقدس :

عاد أبو عبيدة إلى دمشق بعد اليرموك وكتب إلى الخليفة بالبشارة والنصر ويسأله النصيحة أين يتوجه فكتب إليه بالتوجه إلى بيت المقدس، فعمد أبو عبيدة إلى جيوش المسلمين يوجهها إلى هناك فعقد خالد بن

٢٢٣ عبد العزيز سالم : تاريخ العرب ج ٢ ص ٢٠٧.

الوليد، وليزيد بن أبي سفيان ثم رحل بن حسنة وباقي القادة المسلمين الذي تقاطروا وحاصروا المدينة وظلوا حولها ثلاثة أيام دون قتال، وأهل بيت المقدس قد حصنوا مدينتهم وأسوارهم حتى قال بعض المسلمين: ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس (٢٢٤).

ظل حصار المسلمين لبيت المقدس أربعة أشهر كاملة دار خلالها قتال شديدا ودافع أهل المدينة عنها دفاعا باسلا، والمسلمون أيضا متحملون قسوة البرد والتلج والمطر، ثم رفض أهل المدينة تسليمها على أن يكون ذلك للأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر فاستشار أصحابه فأشار عليه بن أبي طالب رضى الله عنه بالذهاب لكي يحقن دماء المسلمين ولكي يخفف عنهم مقاومة المدينة فاستخلفه عمر على المدينة وقصد بلاد الشام حتى وصل إلى بيت المقدس، والتقى بالمسلمين هناك، وصلى بهم، وأذن بلال رضى الله عنه للصلاة فشجعت قلوب المسلمين وهاجت بهم ذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد ذلك تقدم عمر ببيت المقدس فصالح أهلها، وظل بالمدينة عشرة أيام ثم عاد بعد ذلك إلى المدينة (٢٢٥).

وبعد بيت المقدس تم للمسلمين فتح سواحل الشام الجنوبية، وأتم عمرو بن العاص فتح باقي فلسطين.

^{٢٢٤} الواقدي : المصدر السابق ج ١ ص ٥٣٠.

^{٢٢٥} الواقدي : نفس المصدر ج ١ ص ٢٤٤. وأقرأ أيضا عن تسليم المدينة عند الطبري ج ٥ ص ٣٤٩.

فتح مصر :

انتهاز عمرو بن العاص مقدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى بلاد الشام للمرة الثالثة في حدود عام ١٨ هجرية.

واستأذنه في التوجه إلى البلاد المصرية لفتحها، وحبب إليه ذلك على أساس إنها ضرورة حتمية للمسلمين في بلاد الشام وانك أن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم^(٢٢٦) فتردد الخليفة أن يدفع بالمسلمين إلى مغبة غير مأمونة لإشفاقه عليهم بعد تعب القتال في بلاد الشام، لكن عمرو مازال به حتى أقنعه فعقد له على أربعة آلاف مقاتل فاتجه إلى مصر، وكانت العريش أول مدينة مصرية افتتحها بعد حصار دام شهرا ونصف الشهر وفتحت في المحرم من عام ٢١٩ (كانون الثاني ٦٤٠)^(٢٢٧).

ويروي المؤرخون أن عمر بن الخطاب ربما قد عدل عن موافقته فكتب إلى عمرو كتابا يأمره فيه بالعودة، وكانت الكتابة إلى عمرو مدعاة لخوفه من أن يكون فيه أمرا بالعودة، فأهمل الرسول فترة حتى بلغ العريش، وحين فتح الكتاب طالع فيه أمر عمر بأن ينصرف إذا لم يكن قد تجاوز حدود مصر^(٢٢٨).

^{٢٢٦} حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٢٣٤.

^{٢٢٧} محمد أسعد طلس : الخلفاء الراشدون ص ١٤٢.

^{٢٢٨} عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج ٢ ص ٢١٣.

حصن بابليون :

كان حصن بابليون من أهم المواقع في الفتح العربي لمصر، ولقد استغرق حصاره ستة أشهر، ثم بدأت المفاوضات، ورضى المقوقس بدفع الجزية للمسلمين رغم اعتراض هرقل قيصر الروم وهناك من المؤرخين من يرى أن الحصن قد فتح قسرا (٢٢٩).

فتح الإسكندرية :

كانت الإسكندرية إحدى مدن الإمبراطورية البيزنطية الهامة، كما أنها كانت عاصمة الديار المصرية، ولذلك شحنها الروم بالجند والأمتعة، وتوجه إليها عمرو بن العاص بعد أن افتتح الحصون التي قابلها في الطريق إلى المدينة، وكان حصن الكربون آخر حلقة في سلسلة الحصون التي تربط ما بين بابليون والإسكندرية ولم يكن في مناعة باقي الحصون الأخرى لكنه كلن بالنسبة للرومان الوقفة الأخيرة قبل الإسكندرية أو خط الدفاع قبل الأخير، ولذلك استبسل الروم في الدفاع عنه، وكانت هناك معركة حامية أصيب فيها كثير من المسلمين ولكنهم صبروا حتى أمكنهم الله رقاب أعدائهم الذين تقهقروا إلى الإسكندرية، وسقط الكثير في يد العرب، ومن ثم فتح الطريق إلى حاضرة البلاد، وكانت مدينة حصينة، لها أسوار محكمة البناء ويحميها

^{٢٢٩} انظر المصدر السابق ص ٢١٦ - ٢١٧ وانظر مقدمه بن عبد الحكم في فتوح أفريقيا والأندلس ص ٧.

البحر من الشمال والترع من الجنوب والغرب وتمتد من أسفلها بحيرة مريوط، أما الجانب البري من الناحية الشرقية فكانت تحرسه أسوار عالية مجهزة، وكانت المدينة موفرة العدد والعدة واتصالها بالبحر يمنحها فرصة التموين، ولذلك رأى عمرو أن حصارها سيطول، وإن الاستيلاء عليها ليس من السهولة بمكان ولذلك ترك فرقة من حبشه لحصارها، ومضى على رأس الباقي يفتح أقاليم الوجه البحري^(٢٣٠)، ويجمع المؤرخون على أن الإسكندرية قد سلمت صلحا بعد أن حاصروها عمرو بن العاص حوالي أربعة عشر شهرا، وإن ذلك الفتح قد تم في أول المحرم من السنة الأولى بعد العشرين من الهجرة، وإن الذي ساعد على ذلك هو موت الإمبراطور هرقل، وقيام المنازعات الدينية في القسطنطينية من أجل العرش مما اضطر البيزنطيين إلى العمل على إنهاء الحرب والتفرغ لمشاكلهم الداخلية وقد قام البطريق قيرس. بمفاوضة عمرو وتم الاتفاق بينهما على شروط صلح الإسكندرية^(٢٣١).

فتح برقة :

اتجه عمرو بن العاص بعد أن اطمأن على فتوحاته في مصر إلى الغرب من الإسكندرية حتى وصل إلى برقة فاستولى عليها وفرض على أهلها الجزية ثم واصل زحفه إلى طرابلس حتى وصلها، في سنة ٢٢ هجرية أو ٢٣، فحاصرها ثم دخلها عنوة فهرب الروم منها في مراكبهم، ثم استولى عمرو بعد ذلك على مدينة سبرت^(٢٣٢) وأرسل قائدة بسر بن أبي أرطاة فافتتح

^{٢٣٠} عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج ٢ ص ٢١٨.

^{٢٣١} نفس المصدر ج ٢ ص ٢١٩ وانظر أيضا إبراهيم على شعوط : عصر الفتوحات الإسلامية ص ١١١.

^{٢٣٢} أيمن عبد الحكم : فتوح إفريقيه والأندلس ص ٣١.

واحة ودان، وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في التوغل على
برقة يدعوا أهلها إلى الإسلام (٢٣٣).

تدوين الدواوين

لم يمض أكثر من ربع قرن من الزمان على هجرة الرسول صلى الله
عليه وسلم من مكة ابتعادا عن إيذاء القريشيين له ولأصحابه من المسلمين،
حتى رفرف علم الإسلام على مساحات من الأرض لم تكن تخطر ببال أكثر
الناس تفاؤلا لأن رايته الكريمة أصبحت تظلل أرض فارس والعراق والشام
ومصر وجزء من أفريقية بالإضافة إلى شبه الجزيرة العربية، وأستلزم ذلك
ولا شك تطورا في نظام الإدارة، وكان لابد من استحداث بعض الأساليب
التي تتواءم وهذه التغيرات الكبيرة، وكان الديوان وإدخاله ضمن النظام
الإداري الإسلامي علامة من العلامات المميزة لعصر الخليفة الراشد عمر
بن الخطاب رضى الله عنه.

والديوان وجمعها دواوين كلمة فارسية كانت تعني في أول الأمر
السجل الذي يكتب فيه ما يختص بشئون الإدارة، ثم أصبحت تدل على المكان
الذي يعمل فيه الكتاب، وهم رجال مدنيون من أرباب الأقلام (٢٣٤).

ولقد لجأ عمر - رضى الله عنه - إلى استعمال هذه الدواوين حينما
كثرت الغنائم وانهالت الأموال على الخليفة بصورة لم تكن متوقعة فأشار

^{٢٣٣} عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج ٢ ص ٢٢٣.

^{٢٣٤} عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص ٣٤.

عليه بعض الناس بما يفعله الأكاسرة والقياصرة من تدوين هذه الأموال في الدواوين^(٢٣٥) وأهم ما ظهر منها على عهد عمر هو :

ديوان العطاء :

وهو الديوان الذي يسجل فيه كل من يستحق العطاء من العرب ومقدار ما يستحقه كل فرد منهم وتم ترتيب الناس في هذا الديوان على أساس قرابتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان بنو هاشم أول الناس في القرابة ثم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا تساوى الناس في القرابة قدم أقربهم إلى الإسلام. ثم فرض لأهل الديوان ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، فبدأ بمن شهد بدار من المهاجرين والأنصار ثم لمن شهد ما بعد بدر حتى الحديبية، ولمن حضر الوقائع بعد ذلك فارس والشام^(٢٣٦).

وكان عمر لا يفرض للصبي حتى يفطم، وحينما أحس بخطورة ذلك فرض لكل مولود في الإسلام.

ديوان الجند :

كان ديوان العطاء ديوانا عاما يشمل أعطيات كل العرب، أما ديوان الجند اختص بالمقاتلة من المسلمين فقط وسار الترتيب فيه على نفس الأسس تتميز كل قبيلة عن غيرها وكل جنس عن غيره، وكان للديوان فروع وأقسام بعضها في المدينة وبعضها في الأمصار.

^{٢٣٥} حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٤٥.

^{٢٣٦} عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج ٢ ص ٢٥٠.

ديوان الخراج :

ويمكن أن نسميه ببيت مال المسلمين حيث كانت تأتيه موارد الدولة الإسلامية وخاصة خراج الأرض الزراعية التي تركت في أيدي أصحابها لزراعتها ودفع خراجها إلى المسلمين ولقد قام عمرُ بن الخطاب بتعيين العمال على الولايات المختلفة ليقوموا بجمع الخراج.

استخدم المسلمون في هذه الدواوين كتبه من أهل البلاد المفتوحة، وسمحوا لهم باستخدام لغتهم ونظمهم وظل الأمر كذلك إلى أن تم تعريب هذه الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان.

القضاء :

يعتبر القضاء من أهم الخطط الإسلامية على الإطلاق كما كان القاضي هو الرجل الثاني بعد الخليفة في معظم فترات العصر الذهبي لتاريخ المسلمين ولقد تولاه رسول الله بنفسه بحكم أنه صاحب الشرع، أما على عهد أبي بكر فإنه كان بنفسه و أحيانا يترك ذلك لعمر بن الخطاب أما على عهد عمر بن الخطاب فإن الدولة قد اتسعت اتساعا كبيرا ولم يعد في وسعه الجمع بين المهمتين فبدأ يعهد بالقضاء إلى كبار الصحابة وجعل القضاة مستقلين عن الأمراء، وينوبون عن الخليفة في الفصل بين الناس في الخصومات فولى أبا الدرداء قضاء المدينة، وولى شريحا قضاء الكوفة، وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة، وقيص بن أبي العاص قضاء مصر، فكان رضى الله عنه أول من ولى قضاة مستقلين في الولايات الإسلامية، وفوضهم فيه (٢٣٧) وكتب

^{٢٣٧} أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٦.

عمر إلى أبي موسى الأشعري كتابا جامعاً في أحكام القضاء يبين فيه الأسس والقواعد التي يجب الالتزام بها، ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر التنظيم القضائي وأصوله.

تأسيس المدن :

مما يذكر لعهد عمر بن الخطاب أيضاً سماحه المسلمين ببناء المدن والإقامة فيها في الأقاليم المفتوحة فقام سعد بن أبي وقاص ببناء البصرة والكوفة وأخذهما أولاً من الحطب والأعشاب وحينما حدث حريق أفاق سمح له عمر بالبناء بالطوب وإذا كانت هذه المدن تعد قواعد عسكرية في بدايتها هدفها أن تكون موطناً للعرب حتى لا يختلطوا في أهل البلاد المفتوحة إلا أن التاريخ الإسلامي يشهد بأن المدن الإسلامية قد لعبت دوراً في تعريب المنطقة التي قامت بها ونشر الإسلام بين أهلها، وليس أدل على هذا الدور مما لعبته الفسطاط في مصر والقيروان وتونس في شمال أفريقية.

وفاة عمر بن الخطاب :

كان عمر - رضى الله عنه - يمثل رمز الأمة الإسلامية الناهضة، والتي كسرت جناح أكبر دولتين في التاريخ وهما الفرس والروم، ولذلك امتلأت قلوب بعض أهلها بالحقده عليه، ومن ثم عملوا على اغتياله والتخلص منه، ولقد قام أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة من أبي شعبة بطن عمر - رضى الله عنه - في صلاة الفجر، وكان سببا في وفاة الخليفة في عام ٢٣ هجرية، ولقد تحدثت كتب التاريخ عن وجود مؤامرة مدبرة لقتل عمر بين غلام الغيرة وبين الهرمزان الفارسي واحد الفرس بفيروز وكان خادما للهرمزان. وهناك من يتهم كغيب الأخبار بالعلم بالمؤامرة أو الاشتراك فيها^(٢٣٨) أما عمر رضى الله عنه فإنه حين أفاق من طعنته سأل عن قاتله فقيل له أنه غلام المغيرة بن شعبة فحمد الله أنه لم يقتله رجل سجد لله سجده يحاجه بها عند الله^(٢٣٩) .

عهد عمر بالخلافة :

رفض عمر ابن الخطاب أن يتحمل أمانة الناس حيا وميتا، ولذلك لم يشأ أن يوصى لأحد بعينه من بعده وكان إمام عمر ما فعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين ترك الناس دون أن يوصي، وما فعله الصديق - رضى الله عنه - حين أوصى بعمر بن الخطاب وأراد ان يتبع طريقا وسطا فعهد إلى ستة من الصحابة هم كبار أصحاب رسول الله وأحق الناس بالأمر من بعده وهم على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص،

^{٢٣٨} انظر في ذلك الشيخ محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الدولة الإسلامية ج ٢

ص ٣١ - ٣٣ . وإبراهيم على شعوط : عصر الفتوحات الإسلامية ص ١٢٧ وما بعدها .

^{٢٣٩} نفس المصدرين السابقين .

وطلحة والزبير، وأوصاهم أن يجتمعوا بعد موته ثلاثة أيام يختارون من بينهم واحدا لخلافة المسلمين. وجعل معهم عبد الله بن عمر للمشورة وليس له من الأمر شيء. فإذا تساوا في الأصوات أخذوا برأي عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بذلك فيأخذون برأي من كان فيهم عبد الرحمن بن عوف.

اجتمع هؤلاء نفر ماعدا طلحة، وضع هؤلاء ثقتهم في عبد الرحمن بن عوف بعد أن استوثقوا أن لا يخص ذا رحم لرحمه، ولا يألوا على المسلمين وبدأ عبد الرحمن في مشاورة الصحابة فوجدهم يجمعون على أحد رجلين. أما علي أو عثمان، فبايع لعثمان رضى الله عنه والذي أصبح ثالث الخلفاء الراشدين.

عثمان بن عفان رضى الله عنه
(٢٤ هـ - ٣٥ هـ) (٦٤٤ م - ٦٥٦ م)

مما لاشك فيه أننا هنا أمام فترة حكم وشخصية تركت أثرها في تاريخ الإسلام والمسلمين إلى يومنا هذا.

نحن أمام إحدى الشخصيات المبشرة بالجنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن أمام فترة حكمت انتهت بأول مأساة كبرى في تاريخ الإسلام والمسلمين عرفت لشدتها بالفتنة الكبرى، وما زالت آثارها في حياة الناس إلى يومنا هذا.

وكما أكدت وما زال هذا رأيي أن المؤرخ ليس حكما ولا قاضيا ومن ثم عليه التزام الحيدة والتقيّد بالأمانة فيما يعرض وفيما يقدم للناس لكن المؤرخ الحق مطالب أيضا بالسعي للوصول إلى الحقيقة والالتزام بها مهما كانت قسوتها ومرارتها.

نحن أمام خليفة أو أن شئت صحابيا جليلا ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجا لابنته روقيه ومن بعدها لابنته أم كلثوم وقال عليه السلام بعد موت أم كلثوم لو كان عندنا ثلاثة لزوجناكها.

ونحن أمام صحابي جليل مدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ومن السابقين الأولين إلى الإسلام. ومن له أياد بيضاء لا تتكر في سبيل الدعوة ونصره المؤمنين.

ونحن أيضا أمام شخصية ثار عليها بعض المسلمين حتى انتهى بهم الأمر إلى قتله وهو بصحن داره يقرأ القرآن، وقام الذين قتلوه باتهامه بالكثير من الأشياء التي تبرر لهم القيام بهذه الفعلة الشنيعة. وليس الأمر هيناً هنا لاستجلاء الحقيقة، ولكنني أحيل طلابي خاصة والقراء عامة إلى ذلك الكتاب القيم الذي ألفه الشيخ أبو بكر بن العربي الأشبيلي وأسماء العواصم من القواصم وهو كتاب ضخم لم يتح لعامة المسلمين الاطلاع عليه اللهم ألا تلك الفصل التي نشرها الشيخ محب الدين الخطيب حول مواقف صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض القضايا التي تعرضوا لها أو عاصروها وأن كنت أنبه الجميع إلى أن الكتاب أكبر بكثير من الجزء الذي نشره الشيخ محب الخطيب رحمة الله عليه.

من هو الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ؟

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس بن أمية بن عبد مناف الأموي القرشي، يلتقي نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند جدهم عبد مناف. وأمه هي أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولد في السنة الخامسة لميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقريبا، وكان أبوه عفان من أثرياء قريش وعقلائها. فنشأ ابنه على الأخلاق الكريمة ، وتعلم القراءة والكتابة، وروى الشعر وحفظ أنساب قومه، وأخبارها وسيرها.

كان عثمان - رضى الله عنه - من أوائل من استجاب إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكاد تجمع الروايات على أن أبو بكر رضى الله عنه هو الذي دعا عثمان إلى الإسلام فاستجاب له. يقول ابن إسحاق: أن عثمان رضى الله عنه أسلم بدعاء أبي بكر إلى الإسلام، وكان أبو بكر رجلا

مؤلفا لقومه محبا سهلا وكان رجال قومه يأتونه وتألفونه، فلما أسلم لأظهر إسلامه، وجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشي مجاله، ويستمع إليه فأسلم بدعائه فيما بلغني عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا فأسلموا وصلوا (٢٣٠).

سرعان ما أصبح عثمان بن عفان مقربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنه زوجه بن ابنته رقية وأصبح بذلك أول الصحابة في مصاهرة النبي عليه السلام.

تعرض عثمان لأذى قريش وسخريتها، وخاصة من قومه بن أمية حتى اضطر عليه السلام إلى الهجرة إلى الحبشة ومعه زوجته السيدة رقية وذلك حينما أشد إذاء قريش للمسلمين. وكان عثمان هو أول المهاجرين وظل هناك في الحبشة ومعه زوجته إلى أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فعادا، وهناك من يجعل عودتهما قبل الهجرة، إلى المدينة وعثمان - رضى الله عنه - بهذا هاجر الهجرتين.

سر الرسول عليه السلام بعودة عثمان وزوجته وهجرتهما إلى المدينة، وكان يدعوهم إلى مجلسه ويسامرهم في ليله، ويهش لهم، وينشرح صدره بمقدمه. وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها كانت هي وحفصه عن رسول الله ذات يوم، فقال رسول الله: لو كان عندنا رجل

٢٣٠ ابن هشام ج ١ ص ٢٦٨.

يحدثنا. فقالت عائشة: أبعث إلى أبو بكر فيجيئ فيحدثنا؟ قالت: فسكت صلى الله عليه وسلم فقالت حفصة: أبعث أبي عمر فيجيئ فيحدثنا. قالت فسكت أيضا، ثم دعا وصيفا بين يديه فساره، فإذا عثمان يستأذن، وأقبل عليه بوجهه، وناجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا^(٢٣١).

وفي غزوة بدر خلفه رسول الله لتمرير زوجته السيدة رقية التي انتقلت إلى جوار ربها وتبشير النصر يوم بدر تثرى على المدينة، وعده الرسول عليه السلام من البدرين، وضرب له بهم في الغنائم، ثم زوجة من ابنته الثانية أم كلثوم، ولذلك سمي بذي النورين وهو الرجل الوحيد الذي تزوج ابنتين لنبي، وقال له النبي عليه السلام بعد أن ماتت زوجته الثانية أم كلثوم، لو كان لنا ثلاثة لزوجناكها^(٢٣٢) وعثمان رضى الله عنه من المبشرين بالجنة ومما يؤثر عن رسول الله قوله لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان^(٢٣٣).

أما عن جهاده في سبيل الإسلام فمثله مثل كبار صحابة رسول الله كان لكل ميزة خاصة به. وميزة عثمان كرمه الزائد وساعده على ذلك ثراؤه أولا وعمله بالتجارة ثانيا، فقد قام بشراء بئر رومه بما يقدر بخمسة وثلاثين ألف درهم ووهبها للمسلمين، وجعل نصيبه منها كنصيب واحد منهم - كما أنه اتباع مربدا كان لبعض الناس إلى جوار مسجد الرسول، و دفع فيه مبلغا كبيرا ثم وهبه لرسول الله لكي يجعله في مسجده.

^{٢٣١} محمد أسعد طلس: الخلفاء الراشدون ص ١٧١.

^{٢٣٢} إبراهيم شعوط: عصر الفتوحات الإسلامية ص ١٤٣.

^{٢٣٣} عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ج ٢ ص ٥٩٨.

ومن أجل أعماله التي قام بها في عهد رسول الله - صلى الله عليه و سلم تجهيزه جيش العسرة يوم غزوة تبول ، يقول عبد الرحمن بن خباب : شهدت النبي - صلى الله عليه و سلم - وهو يحث علي جيش العسرة ، فقام عثمان فقال : يا رسول الله علي مائه بعير بأحلاسها واقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: ما علي عثمان ما عمل بعد هذه (٢٣٤).

ومن أعظم مفاخر عثمان رضي الله عنه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اختيار رسول الله له ليكون سفيره إلى قريش في العام السادس من الهجرة حين خرج معتمرا ورفضت قريش دخوله مكة.

أرسل الرسول عثماننا فتغيب، وأشيع أنه قتل، وحين ذاك بايع النبي أصحابه على قتال قريش حتى الموت، وعلى ألا يفروا، وضرب رسول الله بيده قائلا، هذه يد عثمان، ونزل وحي الله بآيات مازالت تتلى وستظل إلى يوم الدين: " ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما" (٢٣٥).

واستخلف رسول الله على المدينة مرتين، الأولى حينما خرج إلى غزوة ذات الرقاع، والثانية حينما خرج إلى غزوة غطفان بذى أمر بنجد (٢٣٦).

^{٢٣٤} محمد أسعد طلس : المصدر المذكور ص ١٧٢ .

^{٢٣٥} الحج : الآية ٩ .

^{٢٣٦} محمد علي مغربي : عثمان بن عفان ص ٢٣ .

خلافته :

حينما طعن أبو لؤلؤة المجوسي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تلك الطعنة القاتلة تردد عمر في قضية الخلافة بين رأيين:

الأول: ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لم يعهد لأحد من

بعده.

الثاني: ما قام به أبو بكر من اختيار وعهد إلى شخص معين، واجتهد رضى الله عنه فاختار ستة من أكابر القوم بعد المداولات لا يخرج الناس عن واحد منهم، وطلب منهم أن يختاروا من بينهم خليفة على المسلمين، وانتهى رأي القوم بعد المداولات إلى اختيار عثمان بن عفان خليفة على المسلمين بعد عمر بن الخطاب. بويع لعثمان بالخلافة لثلاث خلون من المحرم سنة أربع وعشرين للهجرة، فصلى بالمسلمين العصر، ثم ألقى خطبة بين فيها سياسته التي سيسير عليها، وكتب إلى عماله في الأقاليم وإلى عمال الخراج والصدقة، وأقر عمال عمر بن الخطاب على الأنصار التي كانوا عليها ولم يعزل منهم سوى المغيرة بن أبي شعبة، فإنه عزله عن الكوفة وولاهما سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه.

الفتوح في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه :

كان ما حدث من الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفين أبي بكر وعمر لبلاد الفرس حدثا هائلا. فإنهم ما كان يدور بخلداهم أن عرب الصحراء سيفتحون بلادهم، ولكن ذلك قد كان وفتحت بلادهم، وقدموا الطاعة للمسلمين ولم تكن هذه الطاعة في نظرهم إلا ريثما تواتيهم الفرصة لإرجاع

بلادهم، وإعادة مجدهم وقد ظنوا أن الفرصة مواتية في عهد عثمان. فلانتقض كثيرا من البلاد ومنعوا ما صالحوا المسلمين عليه فعمل عثمان على إخماد حركتهم وردهم إلى الطاعة، ولم يقف عند هذا الحد: بل فتح بلادا جديدة وسارت الفتوحات الإسلامية بنشاط عظيم، واستمرت في سيرها إلى أن كانت الفتنة وقتل الخليفة.

أ - البصرة :

وأول هذا الفتوح ما قام به عبد الله بن عامر، وإلى البصرة: بعد أبي موسى الأشعري. فقد سار بجيوشه إلى مقاطعة فارس المجاورة لحكومته فأخضعها، وبدأ بعدها سلسلة حملات أخرى شرقا وشمالا كللت كلها بالنجاح فأخضع نيسابور، وسرخس ومرو، من خراسان ثم اشتبك في معركة كبرى عند خوارزم (على نهر جيحون) حطم فيها القوات الفارسية، وانتصر انتصارا عظيما، دفعه إلى التوغل في بلاد التركستان حتى مدينة بلخ وأدخلها في حوزة الإسلام، وظل ابن عامر عاما كاملا في جهاده حتى تم إخضاع القسم الشرقي من بلاد فارس للإسلام من جديد ثم رجع يسوق أمامه أربعين ألف أسير من الفرس فيما يقال، وكان ذلك سنة ٣١ هـ الموافق سنة ٦٥٢ م وفي هذه السنة ترك ابن عامر البلاد بغية الحج وأقام الأحنف بن قيس ومجاشع بن مسعود والربيع بن زياد الحارثي نوابا عنه في القيام بالقيادة وهؤلاء أرجعوا سلطة الإسلام في البلاد التي انفجرت فيها الثورة أمثال كرمان وسجستان وطخارستان، فأعادوها إلى سيرتها الأولى، ورجع سلطان الإسلام حتى هراة وكابل وغزنة، وبذلك تم القضاء على قوات الفرس وتسعى الفتوحات السابقة التي تمت في بلاد فارس وخراسان (فتوح أهل البصرة) وفي سنة ٢٢ هـ وهي السنة الثامنة من حكم عثمان " وصل إلى علم المسلمين أن بعض أتباع يزيد جرد ملك الفرس قد اختلفوا معه وطاردوه

" استمروا في مطاردته حتى استقر به النوى في بيت طحان بمور فدخلوا عليه وقتلوه، وبقتله زالت دولة الساسانيين، وبموته انتهى عهد الأكاسرة إلى الأبد.

ب - الكوفة :

وبينما كانت جيوش البصرة قائمة بإخضاع الثورة في ناحيتها، ثارت قبائل الترك والخزر وأرمينيا في شمال العراق. فخرجت أذربيجان عن الطاعة ومنعت ما كانت قد رضيت به من الجزية فغزاها الوليد بن عقبة وإلى الكوفة حتى رضيت أن تؤدي ما كان عليها في عهد عمر وسير حبيب بن مسلمة الفهري إلى أرمينية جيشاً شنت به شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة، ويروى أن الذي سار إليها إنما هو سلمان بن ربيعة الباهلي وأن حبيب بن مسلمة كان مدداً له، وأياً ما كان فقد انتصر المسلمون وتم إخضاع البلدين.

وفي عهد إمارة سعيد بن العاص على الكوفة - بعد الوليد - زحف الترك والخزر يريدون إيقاف المسلمين عن التقدم فسار سعيد بجيش كبير فيه الحسن والحسين والعبادلة الأربعة أبناء العباس، وعمر و عمرو بن العاص والزبير، وحذيفة بن اليمان، وغيرهم من الأعلام لتأديب الخارجين ولكنه انهزم أمام هذه الجموع في بلاد لم يألفها المسلمون، وطلب من الخليفة إمداده بالجيوش فأرسل عثمان نجدات من الشام بقيادة عبد الرحمن بن ربيعة، ونظم المسلمون صفوفهم، ثم التقوا بالعدو في شمال أذربيجان ولكن المسلمين انهزموا أيضاً، وأصيب القائد عبد الرحمن بن ربيعة غير أن أمثال تلك الهزيمة لم تؤثر في معنوية المسلمين ، ولم تدفع العدو إلى مواصلة التقدم لطرده المسلمين من بلادهم، لأن أنباء النصر في الميادين الأخرى كانت ذات

اثر كبير في نفوس المسلمين وأعدائهم، وتسمى الفتوح في أرمينية وأذربيجان وطبرستان (فتوح أهل الكوفة).

ج - الشام :

كانت الإمارة على بلاد الشام قد آلت إلى معاوية بن أبي سفيان. وبينما كان بتنظيم الأمور الداخلية. إذ فاجأهم البيزنطيون بجيش تقدموا به من آسيا الصغرى وكان لك في السنة السادسة والعشرين من الهجرة الموافق ٦٤٧ م.

باغت البيزنطيون معاوية ولم يكن لديه من الجيوش ما يستطيع به الوقوف لدرء هذا الخطر الفجائي بسبب استمرار السلام في الشام طويلا ولذلك طلب من الخليفة النجدة فأنجده بثمانية آلاف فالحق بالعدو هزيمة منكرة، ثم طارده حتى تم له فتح الجزء الشرقي من آسيا الصغرى. ثم أراد أن يصل فتوح الشام بفتوح فارس فأتجه إلى أرمينية ثم إلى طبرستان في جنوب بحر الخزر (قزوين) ثم عرج شمالا حتى وصل تفليس وشواطئ البحر الأسود وأطراف آسيا الصغرى الشمالية. ووقعت بينه وبين البيزنطيين وقائع كثيرة كان ينشعبها في صيف كل سنة حتى دوخ العدو وأجلاه عن كثير من الأراضي، وأصبح معظم آسيا الصغرى تحت سلطانه، وأطل على بحر مرمرة وعلى القسطنطينية فهاجمها، ولكنها استعصت عليه. وكان ذلك في أواخر خلافة عثمان. فقفل راجعا إلى الشام وفي عودتها ضرب كثيرا من المعاقل والحصون مثل عمورية.

لما استولى المسلمون على الإسكندرية بقى كثيرا من الروم بها. فانتهزوا فرصة انشغال المسلمين بالفتوح في المغرب. وكاتبوا هرقل - قيصر الروم - وأخبروه بقلّة من عندهم من المسلمين، وطلبوا منه نجد. فأرسل إليهم أحد قواده في أسطول عظيم. وكان ذلك سنة ٢٥هـ.

ويظهر أن خطة الروم كانت تتطوي على الهجوم من الإسكندرية حيث تتضمن إليها قوات الروم الموجودة في أفريقية. ثم يتجهون شرقا لمقابلة جيشهم الثاني الذي ينقض على المسلمين من آسيا الصغرى بعد ان يتم لهم الاستيلاء على مصر. ولكن عمرو بن العاص افسد عليهم خطتهم. فانه سار إليهم من الفسطاط وعمل على ان يتقدم الروم داخل البلاد. ونجح في خطته ثم التقى بهم في جملة معارك أقنعتهم بتفوق المسلمين البرى. فولوا راجعين إلى الإسكندرية فدخلوها وتحصنوا بها فالح عليهم عمرو حتى دخلها بالسيف عنوة. وقتل قائد الروم وكثيرا منهم، واستولى على كثير من سفن الأسطول. ثم هدم سور الإسكندرية- وكان قد نذر ان فتحها ليفعلن ذلك- ثم رجع إلى مصر. وكان ذلك آخر عمل جليل أداه عمرو للدولة الإسلامية وكانت مكافأته عليه عزله نهائيا عن إمرة مصر. وكان ذلك من عناصر الفتنة ضد عثمان .

هـ - أفريقية:

كان من بين قادة الجيوش العربية في مصر و إفريقية عبد الله بن سعد بن أبي سرح - أخو عثمان لأمه من الرضاع - ولاء عمر بن الخطاب الوجه القبلي على ان يكون تحت رئاسة عمرو بن العاص ففتح النوبة ولما عزل عثمان عمرو عن مصر صارت الولاية والقيادة لعبد الله بن أبي سرح. فأراد ان يثبت وجوده فاتجه إلى الناحية الحربية، وقد تم على يديه فتح

طرابلس، والاستيلاء على قرطاجنة حاضرة ممتلكات الدولة الرومانية في إفريقيا . وتابع الانتصارات حتى وصل إلى المحيط الأطلسي .

وقد بلغ من سرور عثمان بهذا الفتح أنه أعطى خمس ما خص بيت المال من الغنيمة لعبد الله بن سعد . مكافأة له ويقال إن عثمان كان قد نذر ذلك . كما يروى انه باع الأربعة أخماس الباقية لمروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار - وهو ثمن بخس إن صح ذلك - والروايات كثيرة . وأيا ما كان فقد كانت هذه الشائعات عنصرًا من عناصر الفتنة .

الحملة البحرية :

أ - فتح قبرص ورودس :

كانت فكرة القيام بحملة بحرية موجودة منذ خلافة عمر بن الخطاب وكان معاوية يطلب منه السماح له بحملة بحرية لفتح الجزر القريبة من ساحل الشام كقبرص ورودس . وكتب له مرة في شأن قبرص أن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص، وصياح دجاجهم . ولكن عمر بن الخطاب كان يخاف على المسلمين من إخطار البحار فلم يأذن لهم فلما ولي عثمان جدد معاوية الطلب فأذن له الخليفة بشرط ألا يكره أحدا على ركوبه . وأن يقصر الانخراط في بحريته على المتطوعين . فأسرع معاوية بتجهيز حملة بحرية أقلت سنة ٢٨ هـ قاصدة قبرص . وكان أمير البحر فيها أبو قيس الحارثي وجاء إليه ابن أبي سرح - أمير مصر - ببضع سفن وسار الأسطول الإسلامي يخترق العباب، وأشترك مع البيزنطيين سادة البحار في عدة معارك قتل في إحداها أمير البحر مسلم، واستولى المسلمون على قبرص فصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك . وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من

سواهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم. ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم وبعد أن أمضيت المعاهدة. رحل المسلمون من قبرص إلى رودس ففتحوها.

ب - موقعة ذات الصواري :

ظهر للروم أن العرب يحسنون حرب البحر كما يجيدون حرب البر فعملوا على هدم سيادة المسلمين البحرية الناشئة. فجهزوا أسطولا قويا يتراوح عدد سفنه بين ٥٠٠ سفينة و ٦٠٠ سفينة. تحت قيادة قسطنطين بن هرقل.

شعر معاوية والي الشام وعبد الله بن سعد والي مصر بذلك فأعد كلا منهما أسطولا مجهزا واجتمع الأسطولان. وكان عدد سفنهم لا يزيد عن مئتي سفينة وجعلت الإمارة البحرية لابن أبي سرح. واشتبك الأسطولان (الإسلامي والبيزنطي) قرب الإسكندرية وتبادل الفريقان الرمي بالسهام حتى نفدت وحلت محلها قذائف الحجارة. ثم احتال المسلمون حتى ربطوا سفنهم بسفن الروم، وتواثبوا على الروم في السفن يضربون بالسيف ويوجئون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما. وكان المسلمون يقاتلون كأنهم على الأرض ، وكان النصر حليف العرب. واضطر الروم إلى الفرار وجرح أميرهم وفر إلى صقلية. واستولى المسلمون على كثير من سفنهم.

هذا وقد وصف ابن كثير المعركة بعبارات مؤثرة يقول فيها:

قصد الروم المسلمين في جمع لم ير مثله منذ كان الإسلام خرجوا في خمسمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي الصرح وأصحابه من

المسلمين الذين ببلاد المغرب فلما تراءى الجمعان ذات يوم بات الروم يقصقصون ويصلبون ويات المسلمون يقرأون ويصلون فلما أصبحوا، صفا عبد الله بن سعد أصحابه صفوفًا في المراكب وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن. قال بعض من حضر ذلك: فأقبلوا إلينا في أمرا لم يرد مثله من كثرة المراكب وعقدوا صواريخها، وكانت الريح لهم وعلينا فأرسلينا، ثم سكنت الريح علينا فقلنا لهم: إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البر فمات الأعجلون منا ومنكم قال: فنخروا نخرة رجلا واحد وقالوا: الماء الماء.

قال: فدنونا منهم، وربطنا سفننا بسفنهم، ثم اجتلدنا وإياهم بالسيوف، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر، وضربت الأمواج في عيون تلك السفن حتى ألجأتها إلى الساحل وألقت الأمواج جثث الرجال على الساحل حتى صارت مثل الجبل العظيم وغلب الدم على لون الماء، وصبر المسلمون يومئذ صبرا لم يعهد مثله قط، وقتل منهم بشرا كثير، ومن الروم أضعاف ذلك. ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهرب قسطنطين وجيشه وقد قلوا جدا وبه جراحات شديدة مميتة مكث حينًا بداوا منها بعد ذلك، وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري أيامًا ثم رجع منصورًا مظفرًا (٢٣٧). وسميت هذه الموقعة بذات الصواري، لكثرة صواري السفن واجتماعها.

نتيجة المعركة :

١ - من ذلك الوقت صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صلر إليها من مراكب الروم وبما استحدثته معاوية وعبد الله بن سعد من السفن، ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الإسلامية التي كان يشن الروم الإغارة

^{٢٣٧} ابن كثير البداية والنهاية ج ٧ ص ١٧٢.

عليها من وقت إلى آخر. ومع هذا النصر المبين والبحرية العظيمة، فقد كلن في صفوف المسلمين من رأي في تعيين عبد الله بن سعد أمير عاما محاباة أحفظتهم وبقيت في قلوبهم. فكانت عنصرا من عناصر الفتنة ضد عثمان.

٢ - كان هدف الروم من هذه الحملة البحرية استعادة مجدهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ففشلوا في ذلك.

٣ - القضاء على البحرية الإسلامية الناشئة فإنقلابه الآية. وبأوا بالخسران المبين.

٤ - تحقق الروم من أن نجم مجدهم قد أفل، وإن الجيوش الإسلامية التي غلبتهم في البر، قد حطمت عظمتهم على الماء وأنها ستغلبهم وإن ركبوا أطباق السماء.

٥ - أصبح بحر الروم (البحر الأبيض) خاضعا للعرب مما يلي ساحل الشام ومصر وإفريقية إلى الجزر الواقعة بالقرب منها كقبرص.

٦ - أصبحت سواحل الدولة الإسلامية أطول بكثير من سواحل الدولة الرومانية التي كانت إلى عهد قريب سيدة العالم.

٧ - وبانتهاء هذه المعركة، وما سبقها من حروب، صار ملك الدولة الإسلامية يمتد من نهر جيحون شرق فارس إلى المحيط الأطلسي في الساحل الغربي لبلاد المغرب، ومن المحيط الهندي جنوبا إلى بلاد القوقاز وشواطئ

بحر قزوين والبحر الأسود شمالا، واصبح ملكهم ملكا عريضا لم يكن لغيرهم من قبل ولا للروم في عنفوان شبابهم، ومجد قوتهم.

ولم يكن هناك ما يحول بين المسلمين ومتابعة الفتح في كل مكان لولا قتل عثمان بن عفان، واضطراب أمور الدولة وقيام الفتن فقد أوقفت تيار الفتح حينما من الزمن أستمر إلى ان ولى معاوية بن أبي سفيان أمر الدولة الإسلامية، فأعاد تيار الفتح بعد أن صفا له الأمر ودانت له البلاد (٢٣٨).

أهم أعمال عثمان المدنية وآثاره في خلافته :

قام عثمان أثناء خلافته بخدمات جليلة للإسلام، والمسلمين أهمها ما يأتي :

أ - عمارة المسجد الحرام وتوسيع المسجد النبوي، في سنة ٢٦ هـ — زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه، وفي سنة ٢٩ وسع المسجد النبوي وقد بناه بالحجارة، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص، وجعل سقفه من الساج جعل طوله ستين ومئة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه ستة كما كانت في عهد عمر.

ب - رزق المماليك من بيت المال، وزع الأرزاق على المماليك من بيت المال، وهذا لم يكن من قبل، دون ان ينقص شيئا من أرزاق أسيادهم،

^{٢٣٨} من أراد التوسع في الفتوحات فليرجع إلى البلدان للبلاذري من ٢٠٠ - ٢١٠ ، ٢٢٣ - ٢٢٨ ، ومن ٣٠٠ - ٣١١ و ٣٣٠ ومن ٣٨١ - ٣٨٦ ومن ٣٩٥ - ٣٩٨ والكامل لابن الأثير ج ٣ من ٤١ - ٤٩ ومن ٥٨ - ٦٧ ، والفتح الإسلامي من ٣٦٢ - ٣٧٠ والفتوحات الإسلامية لزيني تحلان من ص ١٤٤ - ١٦٠ وأشهر مشاهير الإسلامية ج ٤ من ٦٩٦ - ٧٢٦ والدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم العدوي من ٦٠ - ٦٥.

وهذا عمل يدل على مقدار نمو بيت المال واتساع موارده، وحب عثمان للتوسعة على المسلمين.

ج - إحياء الموات وإصلاح الأراضي، كان عمر رضى الله عنه لا يبيع للعرب الاشتغال بالزراعة في البلاد المفتوحة. وكان يهدف بذلك إلى أن يكونوا دائما جنود حرب مستعدين للقتال، فالعمل في الأرض مفسدة لروح الجندية لان الجندي يركن في هذه الحالة إلى الراحة، وهذا ما يتفق وعصر الفتوح ولكن عثمان رأى كثرة العرب في الأقطار التي فتحت، ورأى في تلك الأقطار مواتا واسعا من الأرض التي جلا عنها أهلها، وتركوها بلا مالك أيام الفتوح.

لما رأى ذلك أشفق من ضياع تلك الموارد للثروة، فأذن للعرب بالعمل فيها وتعميرها.

د - جمع المسلمين على مصحف واحد، وهو أجل الأعمال التي امتاز بها تاريخ عثمان بن عفان، وكان سبب ذلك ان الصحابة تفرقوا في الأمصار وكانت لهجاتهم مختلفة في نطق بعض الكلمات، ونبئت نابتة لم تر الرسول ودخل أقوام جدد من أهل البلاد المفتوحة في الإسلام، فظن أهل كل مصر أن قراءة صاحبهم هي القراءة، ولا يكون قرأنا غيرها، وظهر ذلك بجلاء حينما اختلط الشاميون بالعراقيون في أثناء غزو أرمينية وأنريجان.

وكان الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، يرقب أحوال الناس، وفي أثناء رجوعه قال لسعيد بن العاص: إني قد سمعت في سفري هذا أمرا لئن ترك الناس عليه ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبدا: قال سعيد وما

ذاك؟ قال حذيفة: رأيت أهل الشام حين قدموا علينا فرأيت أناساً من أهل حمص يزعمون لأناس من أهل الكوفة أنهم أصوب قراءة منهم، وأن المقداد بن الأسود، أخذها عن رسول الله، ويقول الكوفيون ذلك وأنهم أخذوا قراءتهم عن ابن مسعود وسمعت قوماً من أهل دمشق يقولون لهم " لا " نحن أصوب قراءة منكم، ويقولون لهم هؤلاء مثل ذلك.

ولما رجع حذيفة إلى الكوفة دخل المسجد فحدث الناس بما سمع وحذرهم بما يخشاه فساعده على ذلك أصحاب رسول الله وعامة التابعين، وتعصب أهل الكوفة لقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة لقراءة أبي موسى الأشعري وأهل حمص لقراءة المقداد، وهكذا فغضب حذيفة وبعض الصحابة والتابعين وقالوا لهم: إنما أنتم أعراب فاسكتوا فأنكم على خطأ، وأغلظ ابن مسعود القول لحذيفة فغضب وغضب سعيد بن العاص ورحل حذيفة إلى الخليفة عثمان بالمدينة فأخبره الخبر. وقال: أنا النذير العريان فأدرکوا هذه الأمة.

وجمع عثمان الصحابة وسمعوا من حذيفة فهاهم الأمر وشق عليهم، فطلب عثمان من أم المؤمنين حفصة بنت عمر ما كان عندها من الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر.

ولما أحضرت الصحف أمر عثمان زيد بن ثابت - كاتب الوحي للرسول - وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها من المصاحف، وقال الخليفة والصحابة لهؤلاء الكتاب: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزلوا بلسانهم ففعلوا. فلما نسخوا ما في الصحف ردها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كل جهة مصحفاً ففرحوا الناس

وعرفوا فضل هذا العمل الجليل إلا أن أتباع ابن مسعود بالكوفة عابوا ذلك على عثمان. وقالوا: كان القرآن كتباً فحرقها إلا واحداً: فصاح فيهم ابن مسعود وقال: ولا كل ذلك فأنكم والله قد سبقتم سبقاً بينا فاربعوا على ظلمكم (أشفقوا على أنفسكم) فعن ملامنا كان ذلك فلو وليت منه ما ولي عثمان لساكت سبيله، وقد تم هذا العمل الجليل سنة ٣٠ هـ.

وبذلك جمع عثمان الشعوب الإسلامية في وحدة قوية لا انفصام لها بجمعهم على مصحف واحد، ولولا ذلك لوقع ما كان يخشاه حذيفة، ولتعدد القرآن كما تعددت التوراة والإنجيل، ولكن الله سلم لسابق وعده (إننا نحن نزلنا الذكر وإننا لحافظون).

هـ - ومن مآثره، ترتيب الطعام في شهر رمضان لأهل المدينة وإقامته دور الضيافات في الكوفة وغيرها.

و - ومن مآثره أيضاً اتخاذ دار للقضاء، فإننا نعرف أن عمر بن الخطاب عين قضاة في مختلف الجهات ورتب لهم الأرزاق، ولكننا لا نعرف أنه اتخذ دار للقضاء، بل كان القضاء في المساجد أو حيث يوجد القاضي، أما في عهد عثمان فيروي ابن عساكر عن أبي صالح مولى العباس. قال: أرسلني العباس إلى عثمان أدعوه فأتيته في دار القضاء، فإذا صح ذلك فيكون عثمان هو أول من اتخذ في الإسلام دار للقضاء، وأوجد المحاكم في الدولة الإسلامية. وليس ذلك بمستبعد فقد كان رضى الله عنه ميالاً للعمارة والتوسعة والتنظيم.

الفترة الأخيرة من حكم عثمان :

مضت عدة سنوات من حكم عثمان بن عفان بذل فيه جهده لصالح الإسلام والمسلمين، ولكن ما لبثت الأمور أن تبدلت وظهرت بوادر فتنة كبرى، وعلاقات شقاق بين المسلمين، وكانت عوامل ذلك كثيرة جدا ولكن أهمها:

أولا : أنه عزل جماعة من الصحابة عن أعمالهم التي ولاهم إياها عمر بن الخطاب وولى مكانهم أناسا ينتمون إلى قرابته وإلى بعض من وجد الناس عليهم الكثير من الطعون.

ثانيا : أنه أسرف في إنفاق بيت أموال المسلمين في جوانب أنكروها عليه.

ثالثا : أنه حبس بعض كبار الصحابة مثل عبد الله بن مسعود الذي نفاه إلى الربرة إلى أن مات وكذلك فعل مع أبي ذر الغفاري.

رابعا : أنه حمى سوق المدينة والبحر، وأقطع أصحابه إقطاعات كثيرة في بلاد الإسلام.

خامسا : بعض مواقفه مع بعض الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وعبادة بن الصامت، وعمار بن ياسر وغيرهم.

ومن الواضح ان ظروفنا كثيرة، وتغيرات هامة قد جعلت من تلك الشائعات وكأنها حقائق أثارت الناس، لكنها ظلت مدونة في كتب التاريخ،

وما زالت إلى يومنا هذا، وهناك آراء رائعة لأبي بكر ب العربي في تفنيد هذه الاتهامات.

التهمة ورد عثمان عليه :

١ - قال عثمان: قالوا: أتم الصلاة وكانت لا تتم ألا وأني قدمت بلدا - يقصد مكة - فيه أهلي فأتيمت: أو كذلك هو قالوا: نعم.

٢ - قالوا حميت الحمى. وإنني والله ما حميت حمى إلا لإبل الصدقة حتى لا يقع بين من يلي أمرها وبين أحد تتازع، ومالي من ثاغية ولا راغية وإنني قد وليت وأنا أكثر العرب بعيرا وشاء. فمالي اليوم غير بعير ين. أو كذلك هو؟ قالوا: نعم.

٣ - قالوا كان القرآن كتباً فحرقها إلا واحدا. ألا وإن القرآن واحد. جاء من عند رب واحد. وإنما أنا في ذلك متبع لا مبتدع. أكذاك هو؟ قالوا: نعم.

٤ - قالوا: استعملت الأحداث، ولم أستعمل إلا محتملا مجتمعا مرضيا وهؤلاء أهل عليهم فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم، ولقد ولي من قبل أحدث منهم وقيل لرسول الله أشد مما قيل لي في استعماله أسامة. أكذاك هو؟ قالوا: نعم.

٥ - وقالوا: إنني رددت الحكم بن العاص، وقد سير رسول الله. والحكم مكى، سيره رسول الله من مكة إلى الطائف، ثم رده رسول الله فرسول الله سيره، ورسول الله رده، أكذاك هو؟ قالوا: نعم.

٦ - وقالوا: إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله. وإني إنما نفلتسه
الخمس من الخمس. وكان مائة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر. فزعم
الجند أنهم يكرهون ذلك، فرددته، وليس ذلك لهم، أكذاك هو؟ قالوا: نعم.

٧ - وقالوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي فإنه لم يمل
معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم، فإني إنما أعطيتهم
من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس ولقد كنت
أعطي العطية الكبيرة الرغبية من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأنا يومئذ حريص شحيح: أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي،
وفنى عمري وودعت الذي في أهلي قال الملحدون ما قالوا؟ وإني والله ما
حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته
عليهم، وما قدم على إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء، فولى المسلمون
وضعها في أهلها دوني، ولا تبلغت من مال الله بفلس فما فوقه، ما أكل من
مالي.

٨ - قالوا: أعطيت الأرض رجالا، وإن هذه الأرض شاركهم فيها
المهاجرون والأنصار أيام فتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة
أهله، ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت فيه الذي
يصيبهم مما أفاء الله به عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد
العرب، فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني (يشير إلى ما اشتراه من
بعض أعلام الصحابة حين أرادوا أن يخرجوا الأمصار).

بهذا الدفاع البليغ أعتقد الخليفة أنه قد وضع الأمر في نصابه وحرك ضمائر الوافدين بالشر عليه، وما كان هذا الدفاع ليؤثر في نفوس مريضة، وقلوب أطفأت فيها الدعاية جذوة الإيمان: وما كان يجدي في هذا الموقف إلا أن يأخذ بنصح المخلصين من الصحابة فيقتلهم، ويجعلهم عبرة لغيرهم وسلفاً ومثلاً لمن وراءهم، أو يحبسهم في المدينة تحت رقابة شديدة حتى لا يمكنهم من الرجوع إلى مواطن الفساد للقيام بدعاية سيئة ضد أعماله. ولكنه رق ولان كما هي عادته فرجعوا إلى أمصارهم مطويين على ضعن يأكل أكبادهم ويحرق أفئدتهم.

أدت هذه الفتنة إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وهو أول خليفة يقتل بيد مسلمة، وهو في الثامنة والثمانين من عمره، وكان مقتله كارثة على الأمة الإسلامية وضربة أصابتها إصابة أليمة، وشقت صفوفها منذ ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا، وتتشعب مسئولية الحادث لتقع على كثير من الأطراف منهم الخليفة المتسامح الطيب والذي فضل عدم الضرب على أيدي الثامرين وأخذهم بالتسامح في وقت تطلب الحزم والقوة بل إن شئت القسوة حتى لا تضيع مصالح المسلمين.

ومنهم عمال الخليفة عثمان على الأمصار والذين كانوا سببا في تمرد الناس عليهم وعلى الخليفة علاوة على عدم قيامهم بالإجراءات اللازمة لمنع الناس من الطعن في الخلافة والخليفة أو الخروج إلى المدينة لمضايقة خليفة المسلمين.

كذلك هناك أطراف مندسة بين المسلمين ساعدت على تأجيج الفتنة ومنهم عبد الله بن سبأ.

وأخيرا نقاس أهل المدينة عن حماية الخليفة وهو موقف يحتاج إلى دراسة وتفسير.

ويمكن القول ان هذه العوامل جميعها قد تشابكت وتفاعلت حتى أدت في النهاية إلى الحادث الجليل الذي يندمل إلى الآن.

الأمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه

٣٥ هـ / ٤٠ هـ - ٦٥٦ م / ٦٦١ م

من الفترات الحرجة جدا في تاريخ الإسلام والمسلمين تلك السنوات الصعبة التي حكم فيها الإمام علي بن أبي طالب الدولة الإسلامية فقد شهدت تحولا خطيرا في سلوك المسلمين آنذاك ومواقفهم التي تمخضت عن استشهاد الخليفة عثمان بن رضي الله عنه لصورة تجافى أبسط مبادئ الإسلام ثم تحول الناس فجأة إلى الصراع فيما بينهما وبين أنفسهم وتركوا الجهاد في سبيل الله بمعناه العظيم الذي عايشوه على أيام الخلفاء السابقين، سول لهم الشيطان جهادا آخر فيما بينهم وبين أنفسهم فوقعة بينهم معارك قاسية حركتها الأخطاء والاجتهادات والأفكار الغريبة وغير ذلك من المؤثرات التي انتهت بأن صبغت فترة خلافة الإمام علي بن أبي طالب بالكثير من المآسي مثل معركة الجمل وصغين والنهروان، وأودت بحياة عشرات الآلاف من خيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من كبارهم طلحة والزبير وعلي بن أبي طالب ذاته.

وتتعدد الروايات حول أسباب أحداث هذه الفترة وحول مجرياتها، ولسنا هنا في موقف القضاء لكي نلقي بالاتهام على هذا الطرف أو ذاك بقدر ما سنحاول أن نقدم صورة مبسطة لوقائع الأمور تاركين لعلام الغيوب ما لم يعد في إمكاننا التوصل إلى حقيقته. كما أننا لن نسمح لأنفسنا، وقد مضت سنوات طويلة بأن نحاسب أحدا، وإن كان ذلك لا يمنعنا من محاولة استخلاص العبرة من ما وقع من خلاف بين المسلمين والآثار المترتبة على ذلك حتى يمكن أن تكون إنذار لما نحن فيه من واقع .

السيرة الذاتية

هو الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي القرشي الهاشمي، وأمه السيدة فاطمة بنت أسد بن هاشم ابن عبد مناف.

تربى علي في بيت النبي الكريم، حيث روى المؤرخون أن أبا طالب كان رقيق الحال ذا عيال، وأن النبي أراد أن يفي عمه أبا طالب ببعض حقه حين كفله وهو صغير، فطلب إلى عمه أن يربي علياً في بيته، فقبل أبو طالب، ونشأ علي في حضانة النبي ورعايته.

كان علي - رضي الله عنه - أول من أسلم من الصبيان، وقد اختلفت الروايات في سن علي وقت إسلامه: وهناك رواية أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن الذي يقول أنه والزبير أسلما وهما أبني ثمانين سنوات ورواية ابن إسحاق القائلة بإسلامه وله عشر سنوات ورواية عبد الله بن عمر وهي أنه أسلم له ثلاث عشرة سنة على روايتين للحسن يقول فيهما بأنه أسلم بين الخامسة عشر والسادسة عشر. وهو بهذا يكون أول من أسلم بعد السيدة خديجة رضي الله عنها، وهناك رواية تروى عن ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب يقول فيها: قال إسماعيل بن إياس بن عفيف الكندي رواية عن أبيه وجده: كنت امرأ تاجراً، فقدمت الحج، فأتيته العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة، وكان امرأ تاجراً، فو الله أنني لعنده بمنى إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى الشمس فلما رآها قد مالت قام يصلي، قال: ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك الخباء، فقام معهما يصلي،

فقال للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: "هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي"، قلت: من هذه المرأة؟ قال: "امرأته خديجة بنت خويلد" قلت من هذا الفتى؟ قال: "علي بن أبي طالب ابن عمه". قلت: ما هذا الذي يصنع؟ قال: "يصلي، وهو يزعم أنه نبي ولم يتبعه فيما ادعى إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنز كسرى وقيصر، وكان عفيف وهو يقول بعد أن أسلم وحسن إسلامه لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثانيا مع علي.

أخذ العلم من النبوة صافيا، واقتدى بالرسول في كل شأن من شئونه وكان النبي يحبه أشد الحب استخلفه حين هاجر إلى المدينة علي ما كان عنده من الودائع ليردها إلى أصحابها، فأقام ثلاثة أيام ثم لحق بالنبي.

ولما هاجر النبي إلى المدينة، وأخى بين المهاجرين، ثم أخى بينهم وبين الأنصار. أخى بين علي وبين نفسه ثم أخى بين علي وسهل بن حنيف ثم زوجه النبي بابنته فاطمة فكان منهما عقبه إلى الآن وكفاه شرفا بذله لنفسه فداء لرسول الله حين نام على فراشه في الليلة التي جعلها كفار قريش موعدا لقتل الرسول، فكان رضى الله عنه آية من آيات الشجاعة. ومثلا للبطولة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله عدا غزوة تبوك حيث استخلفه علي المدينة فكره على ذلك أو خاض فيه المنافقون: فقال النبي لعلي: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي: وقال النبي يوم خيبر: لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، فلما أصبح دفع الراية إلى علي، وكان فوق بلاء في الحروب مدينة علم وورع وتقوى وفضائل يعرفها الخاص والعام. فجاهده مشكور وعلمه غير منكور، وكان عمر يفرع إليه في كل ما يعرض له من مشاكل الحكم ويقول: لولا علي لهلك عمر. إن عليا

أقضانا: وقال حين أوصى بالشورى: لو ولوها ابن أبي طائب لحملهم على الجادة: فكان رضى الله عنه. موضع ثقة الخلفاء جميعا وكثيرا ما استشاروه فأشار عليهم بالذي هو خير وكان أبو بكر وعمر يعملان بنصحه. وكذلك عثمان في أول عهده.

اختيار على خليفة

قتل الثوار الخليفة الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصبحت المدينة في قبضتهم. وكانت الفرقة المصرية في المدينة أقوى الفرق، وتولى زعيمها الغافقي الإمامة في الصلاة بالمسجد النبوي.

وفي اليوم الخامس لمقتل عثمان. أعلن الثوار أنهم لن يتركوا المدينة قبل اختيار خليفة جديد. لأنهم كانوا يعلمون أنه لابد للناس من إمام. ولا بد أن يبايع هذا الإمام في أسرع وقت قبل أن يستبد عمال عثمان بما في أيديهم ويرسل أقواهم (معاوية) جندا إلى المدينة ليخضعها لسلطانه ويعاقب الثوار على ما كان منهم.

وكان الثوار مع اتفاقهم على اختيار خليفة كانت أهواؤهم مختلفة فهوى أهل مصر مع على، وهوى أهل الكوفة مع الزبير، وهوى أهل البصرة مع طلحة، فذهبت كل جماعة إلى من يرغبون حكمه، وعرضوا عليه الخلافة فرفضها الثلاثة. وكان كل واحد منهم يتبرأ من الثوار فلما لم يجد الثوار ممالئا ولا مجيبا قالوا: لا نولي أحد من هؤلاء الثلاثة. فبعثوا إلى سعد ابن أبي وقاص وقالوا له. إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع فاقدم نبايعك فبعث إليهم إني خرجت منها فلا حاجة لي بها على أي حال، ثم أتوا

عبد الله بن عمر فقالوا له، أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر فقال إن لهذا الأمر انتقاما لا أعترض له فالتمسوا غيري فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم بطبيعة الحال، وقالوا إن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم. وكان الثائرين استيقنوا آخر الأمر أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس إماما. وأنه لا بد أن يعينهم المهاجرون والأنصار على ذلك فجمعوا أهل المدينة، وقالوا لهم: يا أهل المدينة أنتم أهل الشورى و أنتم تعتقدون الإمامة وحكمكم جائز على الأمة فانظروا رجلا تتصبونه ونحن لكم تبع، وقد أجلناكم يومكم فو الله لئن لم تفرغوا لنقتلن غدا عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيرين: فذهب أهل المدينة إلى علي يعرضون عليه الإمامة ويلحون عليه في قبولها وحاول أن يمتنع فخوفوه بالفتنة.

ويروى أنه قال لهم: دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمر له وجوه وألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول: فقالوا له: ننشدك الله. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الفتنة؟ فقال: قد أجبتكم وأعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا أنني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه: ثم افترقوا على ذلك وتواعدوا الغد. وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا إن دخل طلحة والزبير استقامت الأمور.

وفي الغد اجتمع المسلمون بالمسجد يوم ٢٣ من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ فقال على لهم: إن كنتم لا تزالون على ما أبرمنا أمس فأنا معكم على ذلك وإلا فلا سبيل لي على أحد. فقالوا له: نحن على ذلك وتداعى الناس للبيعة وبايعه جمهور من كان حاضرا بالمدينة، وامتنع نفر عن البيعة فلم يلح عليهم على في البيعة، ولم يأذن للثائرين في إكراههم عليها. ومن هؤلاء

النفر. سعد ابن أبي وقاص، وقال لعلي ما عليك مني بأس ومنهم عبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبو سعيد الخدري، وأسامة بن زيد، وغيرهم ممن اعتزلوا الفتنة، وكان من الممتنعين عن البيعة طلحة والزبير فأكبرهما الثائرون عليها، ولم يتركهما علي وشأنهما كما ترك غيرهما لأنه كان يعلم من أمرهما ما يعلم الثوار، وكان يعلم أن طلحة كان أشد الناس على الخليفة المقتول، وأنه كان يطمح إلى ولاية الأمر وكان يعلم الزبير لم يأمر ولكنه لم ينفه، ولم يكن أقل من طلحة طموحا للولاية، وكل واحد منهما له أنصار فلراد أن يستوثق منهما ومن أتباعهما حتى تستقيم الأمور.

وبجانب هذه الرواية توجد رواية أخرى مؤداها، أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير وأتوا عليا، وعرضوا عليه الإمامة وذكروا فضائله ومزاياه فأبى إباء شديدا: ولكنهم صمموا على انتخابه وفي رأينا أن الرواية الأولى أرجح لأنها تتماشى مع الحوادث وإكراه طلحة والزبير - إن كانا أكرها - فهو إكراه على لزوم الجماعة.

وقد تمت البيعة لعلي بعد مقتل عثمان بخمسة أيام وظهر أن الأمور قد استقامت لعلي في الحجاز وفي الكوفة وفي البصرة وفي مصر وكان الذي يشغله الشام لأنه لم يشترك في البيعة من جهة، ولأن الذي يحكمه معاوية أقوى العمال، وهو ابن عم عثمان من جهة أخرى، ولكن عليا كان يرى أن بيعته انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي وموطن الصحابة:

ولما تم الأمر لعلي في مسجد الرسول خطب أول خطبة له، حث فيها الناس على أداء الفرائض، وحثهم على التقوى وبين حرمة المسلم: وقال لهم إذا رأيهم الخير فخذوه، وإذا رأيتم الشر فدعوه ٠٠٠ الخ (٢٤١).

منهج علي في الحكم:

يروى أن عليا قال: أن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيء صنعه عمر: فهو قد نهج منهج عمر وصار بسيرته في الزهد وإقامة العدل، والشدة على ذوي الأهواء. فعاش عيشة هي إلى الخشونة والشظف أقرب منها إلى الرقة واللين. فكان أثناء خلافته القصيرة، يلبس خشن الثياب والمرقع منها وكان يحمل عماله على التبليغ بميسور العيش والرفق بالرعية، ويطلب منهم الاستعانة في أعمالهم بالأخيار بقطع النظر عن القرابة أو الصداقة، وأن يكون من أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام. وكان شديد الحرص على مصالح الأمة. شدة كرهت فيه أصحاب المطامع الشخصية وكان بخيلا بمال المسلمين على أقرب الناس إليه مما دفع ابن أبيه وأمه عقيل بن أبي طالب أن يتركه ويخرج إلى معاوية بالشام، وكان يحمل الدرة، ويمشي في الأسواق يعظ الناس ويؤدبهم ومن قوله في هذا الصدد: استتروا بيوتكم والتوبة وراءكم من أبدى صفحته للحق هلك. ان الله أدب هذه الأمة بالسيف والسوط، وليس لأحد عند الإمام هوادة.

^{٢٤١} راجع كتاب الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر الضبي.

عقبات أمام الخليفة:

كان أمام الخليفة علي عقبتان أساسيتان هما:
موقفه من قتلة الخليفة عثمان رضى الله عنه وموقفهم من عمال
عثمان الذين كانت الشكوى منهم سببا من أسباب الفتنة.

أول عقبة في طريق علي:

بعد أن تمت البيعة لعلي وخطب الناس خطبته التي أشرنا إليها فيما
سبق رجع إلى بيته فجاءه طلحة والزبير في عدد من الصحابة وقالوا: يا علي
إنا اشتربنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم (الثوار) قد اشتركوا في قتل هذا
الرجل (عثمان) وأحلوا بأنفسهم: فقال علي: يا إخوانه لست أجهل ما تعلمون،
ولكنني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء. قد ثارت معهم
عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا. فهل ترون
موضعا لقدرة على شئ مما تريدون؟ قالوا. لا. قال: فوالله لا أرى إلا رأيا
ترونه إن شاء الله. إن هذا الأمر أمر جاهلية (يعني الثار) وإن لهؤلاء مادة
فاهدعوا عني حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتتخذ الحقوق.

فتفرق القوم، وبعضهم يقول: نقضي الذي علينا ولا نؤخره. والله إن
عليا لمستغن برأيه عنا ولا نراه إلا سيكون على قریش أشد من غيره: فسمع
ذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم، وأنه ليس
له من سلطانهم إلا ذاك والأجر من الله عليه. ثم نادى: برئت الذمة من عبد
لا يرجع إلى مولاه: فتذامرت السبيئة والأعراب. وقالوا لنا غدا مثلها ولا
نستطيع أن نحتج فيهم بشيء، وقال علي: أيها الناس اخرجوا عنكم الأعراب
فليأخذوا بمياهم فأبَت السبيئة وأطاعهم الأعراب فدخل على بيته ودخل عليه
طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبي، فقال: دونكم ثأركم فاقتلوه. فقالوا:

عتوا عن ذلك: فقال: هم بعد اليوم والله أعتى. فطلب طلحة منه أن يأذن له ليأتي البصرة. ويقدم منها بخيل إلى المدينة كما طلب الزبير أن يأتي الكوفة فيصنع مثل ذلك، فتردد علي في القبول. وقال لهما. حتى أنظر في ذلك.

ولعله حظر أن يحيق بالمدينة خطر كبير من جراء هذا التدبير لو نفذ وربما أضاع عليه هز كل شيء وهكذا صار علي بين مطالبه بالقصاص من الثوار، وبإجلالهم عن المدينة وبين استبداد الثوار أنفسهم، وأصبح مركزه حرجا للغاية.

ويبدو لنا ان الذين أثاروا مسألة القصاص في وقت مبكر أرادوا إخراج الخليفة الجديد فهو لا يجد قوة على طرد قوم قتلوا خليفة وأقاموا خليفة وكما قال علي يملكوننا ولا نملكهم فكان من صائب الرأي تركهم حتى يهدأ الناس، فتؤخذ الحقوق.

وإذا كان هؤلاء قد افسدوا على الخليفة خطته الحكيمة من التريث حتى يتفرق القوم إلى أمصارهم ثم يتخذ معهم ما يمليه الدين والعدل، وحملوه علي التصريح بما كان ينبغي كتمانهم. فإنه كان هناك خطة يمكن الاعتماد عليها وهي مسألة عمال عثمان ولكن ابن أبي طالب قد ضيعها. وإليك بيان ذلك.

عزل عمال عثمان: عقب تولى علي الخلافة اتجه رأيه إلى عزل عمال عثمان، وعلم المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب بذلك فذهب إليه، وخلا به، ونصح له بإقرار عمال عثمان علي ما في أيديهم ليكون له عونهم وإخلاصهم. حتى إذا ما أئتمه بيعتهم واستقامت له الأمور يعزل من يشاء،

فقال للمغيرة: لا أدهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري: فتركه المغيرة ثم عاد في اليوم التالي وقال: إن الرأي أن تعزل عمال عثمان وتستعين بمن تثق بهم، ودخل ابن عباس بعد ذلك على علي فقص عليه أمر المغيرة وأنه جاءه اليوم بما يخالف رأيه بالأمس فقال أبن عباس: لقد نصحك بالأمس وغشك اليوم: فقال علي ولم نصحني؟: لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شوري، وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام والعراق مع أني لا آمن طلحه والزبير أن يكرأ عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية. فان بايع لك فعلي ان اخلعه من منزله. فقال علي: والله لا أعطيه إلا السيف: قال ابن عباس، يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب، وبعد محاورة طويلة قال له ابن عباس: أطعني والحق بمالك بينبع، فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، أما اليوم فان بني أمية يلزمونك شعبة من هذا الأمر، ويشبهون على الناس، ويطلبون مثل ما طلب أهل المدينة، ولا تقدر ما يريدون: فأبى على إياء شديد وسار في طريقه اختيار حسنا فأرسل إلى البصرة عثمان بن حنيف من أعلام الأنصار، وأرسل أخاه سهل بن حنيف إلى الشام، وأرسل قيس بن عباد إلى مصر، وهؤلاء من الأنصار، وهذا أنه أراد أن يرضى الأنصار بهذا الاختيار فقد اختار منهم ثلاثة لهذه الأمصار الخطيرة، والبصرة و الشام ومصر.

وأرسل إلى الكوفة عمارة بن شهاب، وإلى اليمن عبيد الله بن عباس وأختار لولاية مكة خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي ولكن أهل مكة أبوا أن يبايعوه لعلي.

وسار عمال علي إلى أقاليمهم، فأما عثمان بن حنيف فدخل البصرة وقد رحل عنها عامل عثمان عبد الله بن عامر وحمل ما استطاع حمله من المال حتى أتى مكة فأقام بها، وأما قيس بن سعد فدخل مصر وأفترق أهلها جماعة انضموا إليه، وجماعة تحصنوا بخربتا (في محافظة البحيرة) وقالوا: إذا اقتصر علي من قتله بايعناه وجماعة قالوا: نحن مع علي إذا لم يقتصر من إخواننا.

وأما عبيد الله بن عباس فقد دخل اليمن وفر واليها السابق يعلي بن أمية أو منية إلى مكة وحمل ما كان عنده من مال، وأما عمارة بن شهاب وسهل بن حنيف فقد قوبل كل منهما عند الحدود بما ألجأه إلى الفرار.

عند ذلك استدعى علي كلا من طليحة والزبير وطلب رأيهما فقالا: ائذن لنا نخرج من المدينة فإما أن تكاثرنا، وإما أن تدعنا: وكأنهما يشيران عليه بحرب الذين لم يبايعوه فقال علي: سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكلي: ثم أذن لهما فخرجا إلى مكة بحجة العمرة وروى أنهما لم يخرجا إلى مكة إلا بعد ذلك حينما كان علي يتجهز لغزو الشام بحجة اعتزالهما لحرب الشام.

وسواء أكانا قد خرجا في الظرف الأول أو الثاني. بحجة العمرة أو بحجة اعتزال الناس، فانهما كانا على علي لا له كما سيأتي:

رأي علي في الموقف:

وقد رأى الخليفة أن يواجه كتابا إلى كل من أبي موسى الأشعري بالكوفة ومعاوية بن أبي سفيان بالشام يطلب منها تقديم براهين الطاعة إليه،

فأرسل إلى أبي موسى كتابا مع معبد الأسلمي فرد عليه بالطاعة، وبين له الفتنة بالكوفة تغلي غليانا ظاهرا.

وأرسل إلى معاوية سيرة الجهنى يدعو إلى الدخول في طاعته فحجز معاوية الرسول عنده مدة طويلة وكما استتجزه سيرة الجواب لم يلتفت إليه.

وفي صفر ٣٦ رد معاوية رسول الله علي ومعه رسول من عنده يدعى قبيصة العبسي بكتاب كل ما فيه: من معاوية بم أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، وقال لرسوله: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الكتاب، ثم أوصاه بما يقول لعلي، وأقبل العبسي حتى دخل المدينة في غرة ربيع، فرفع الكتاب حتى عرف الناس أنه يحمل رد معاوية، فتفرقوا إلى منازلهم، وقد علموا أن معاوية معترض، ومضى حتى دخل على علي فدفع إليه الكتاب، ففرض خاتمه فلم يجد فيه كتابه، فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال علي نعم فقال: ورائي، إني تركت قوما لا يرضون إلا بالقود، قال ممن؟ قال: من خيط عنقك، وتركت ستين ألف شيخ يكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منير دمشق، فقال علي: مني يطلبون دم عثمان، ألسن موتورا كوترتهم؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، نجا والله قتله عثمان إلا أن يشاء الله: ثم خرج العبسي ولم يفلت من الثائرين الساخطين إلا بعد مشقة وعناء. ومن الغريب أن الإمام علي رضي الله عنه وقف موقفا مختلفا من القضيتين فبينما رأى التريث مع قتله عثمان كان برد الأسرع في إزاحة عمال عثمان على عكس ما قدم له من مشو.

التجهيز لغزو الشام:

علم المدنيون بان معاوية قد خالف عليا وأنه انتقض عليه. فبعثوا إليه زياد بن حنظلة التميمي ليعرفهم ما اعتزم الخليفة فدخل عليه، فقال له علي: تجهز لغزو الشام فقال له زياد. الأناة والرفق أمثل: فقال علي: متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد وأعلم القوم بالتجهز لغزو الشام، ولم يلبث الخليفة أن جمع المسلمين وبين لهم ضرورة إخماد تلك الحركة الانفصالية قبل تفاقمها، وحثهم على الاندماج في الحملة قبل قوات الأوان. ثم دفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية. وجعل قائد الميمنة عبد الله بن عباس، وقائد الميسرة عمرو بن سلمة أو عمرو بن أبي سفيان وجعل أبا ليلى بن عمر بن الجراح على المقدمة، واستخلف على المدينة فثم بن عباس، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر، وإلى أبي موسى الأشعري بالكوفة وإلى عثمان بن حنيف بالبصرة. ان يندبوا الناس للخروج وبينما هو يأخذ أهبطه للشام. إذ جاءه الخبر عن أهل مكة بأنهم قد أجمعوا أمرهم على الخلاف فوجه نظره إليهم.

موقعة الجمل

أ - مقدماتها :

كانت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، قد تركت المدينة وارتحلت إلى مكة أيام اشتداد الحصار على عثمان، ولما أرادت العودة إلى المدينة ثانية لقيها رجل من أخوالها، فقالت له: ما وراءك؟ فقال: قتل عثمان، واجتمع الناس على علي، والأمر أمر غوغاء، فقالت ما أظن ذلك تاما ردوني، فانصرفت راجعة إلى مكة حتى إذا دخلتها أتاها عبد الله بن عامر

الحضرمي - أمير مكة أيام عثمان - فقال: ما رذك يا أم المؤمنين؟ فقالت ردني أن عثمان قتل مظلوماً، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر فاطلبوا بدم عثمان تغزوا الإسلام: فكان أول من أجابها الحضرمي هذا، وذلك أول ما تكلم بنو أمية ورفعوا رؤوسهم وقام معها الوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وسائر بني أمية، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلى بن أمية من اليمن وطلحة والزبير من المدينة. ثم بدأ يتشاورون في الطريقة التي ينفذون بها ما أرادوا. والمصر التي تساعدهم في الحركة، وبعد استعراض البلاد وحالتها لم يجدوا سوى البصرة. فاجتمع رأيهم عليها وفضلوا لكثرة المضرة فيها، ولأن عبد الله بن عامر وإليها السابق زعم لهم أن له بين أهلها صنائع وأن له عند كثير منهم مودة.

وبعد أن استقر رأيهم على البصرة خطبت السيدة عائشة فيهم، فمما قالت: أيها الناس، إن هذا حدث عظيم وأمر منكر فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم لعل الله عز وجل يدرك لعثمان، والمسلمين بئارهم: ثم بينت لهم أنه بعد الثأر يرد أمر المسلمين شورى بينهم. فيختارون لخلافتهم من يريدون عن رضا لا عن عنف واستكراه.

وبعد الاستعداد للرحيل على قدم وساق، وأمدتهم عامر ويعلى بن أمية بكثير من المال والظهر، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل.

ولما عزموا على قصد البصرة، قال الناس، وقد رأوا أثر عائشة وأحاديثها في الناس: يا أم المؤمنين، دعي المدينة وما فيها من أمر الغوغاء، واشخصي معناه إلى البصرة. فان أهلها يحتجون علينا ببينة علي، فتتهضينهم

معنا كما أنهضت أهل مكة، وتقعدين هناك فإن اصلح الله الأمر كان الذي تريدان: وكذلك تحدث معها كل من طلحة والزبير في الصحبة إلى البصرة، فقالت: أأمران بالقتال؟ قالوا: لا، ولكن تعطين الناس وتحرضينهم على الطلب بدم عثمان وإزاء ذلك قبلت الذهاب إلى البصرة.

جاءت الأخبار لعلي بن أبي طالب فتحول عن قتال أهل الشام ليرد هؤلاء الثائرين عما تصدوا إليه فخطب في أهل المدينة، وتكلم في شأن طلحة والزبير، وقال: سأصبر ما لم أخف على جماعتكم وأكف إن كفوا، فأشد الأمر على أهل المدينة، وتناقلوا في الخروج. وكان يظن أنه سيلقي هؤلاء القوم فيناظرهم ويبلغ بهم الرضا، ويردهم إلى الجماعة ويعود دمعهم آخر الأمر إلى المدينة، فيقيم بها، ويدبر أمر المسلمين كما فعل الخلفاء قبله، ولكنه لم يكد يمضي في طريقه ليلقي القوم حتى عرف أنهم فأتوه وأنهم سيبلغون البصرة، وسيفتنون الناس فيها عن بيعتهم وهو مع ذلك لم ييأس من الصلح، ولكنه احتاط للحرب حتى لا يؤخذ على غرة، فمضى في طريقه. وأرسل إلى الكوفة يستفزهم لنصره، وسار بمن معه حتى نزل بذي قار في الطريق إلى البصرة.

وهكذا نجد عليا قد اتسعت عليه الفتوق، وتوالت عليه الخلافات. فهو بين عدو بالشام راصد هناك يجمع عدده وعدته، وعدو بمكة يتجهز لاحتلال البصرة وما حولها، وأهل المدينة وتناقلهم عليه لاعتقادهم أن الأمر فتنة لم يتضح فيها وجه الحق، إذا أخرج الرجل فيها يده لم يكد يراها.

وكان عمل السيدة عائشة وطلحة والزبير وقصدهم الخروج إلى البصرة وخروج علي إلى لقائهم، بدء الأسباب التي أدت إلى موقعة الجمل المشئومة وكان فتحا لحروب الفتنة الدامية.

ب - الموقعة :

خرجت السيدة عائشة بمن معها. قاصدة البصرة، وعلم عثمان بن حنيف - وإلى البصرة - بقدومها، فندب أبا الأسود الدؤلي وعمران بن الحصين ليستطلعا سبب قدومها. فقالت لهما: إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزع القبائل غزوا حرم رسول الله، وأحدثوا فيه الأحداث من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر واستحلوا الدم الحرام فسفكوه. وأقاموا في دار قوم كارهين لمقامهم فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ومما فيه الناس وراعاة، وما ينبغي لهم أن يأتوا بإصلاح في الأمر الخ، وسألا بعد ذلك طلحة والزبير نفس السؤال، فقالا: المطالبة بدم عثمان قالوا: ألم تباعا عليا؟ قال: والسيف على رقابنا، فنصح للجميع عمران وأبو الأسود فلم يسمعوا النصيحة. فرجع الرجلان إلى ابن حنيف فأخبراه بما حدث فاستشار أصحابه، فأشار عليه البعض بمسالة القوم حتى يأتي الخليفة، فأبى وجهر نفسه وتقابل الفريقان، ونشب القتال ودارت معركة حامية انجلت عن قتل جميع من ساهم في التحريض على عثمان بالقول أو الفعل من أهل البصرة. سوى حرقوص بن زهير السعدي فإن عشيرته من بني سعد منعه لما التجأ إليهم بعد هزيمة أصحابه، وقبض على ابن حنيف وضرب بالسياط وأرادوا قتله لولا أن السيدة عائشة أمرت بإخلاء سبيله بعد أن حلق القوم لحيته وحاجبيه، وأشفا عينييه، فمسخوه مسخا لا يقره الإسلام في غير مسلم. فذهب عثمان إلى المدينة، وعسكرت السيدة عائشة ومن معها بالفرصة من

البصرة، ثم كتبت هي وطلحة والزبير إلى الأمويين بالشام، ومن على رأيهم بالكوفة. وبهذا النصر المؤقت، وطلبوا إمدادهم بالجنود والمال.

أما الخليفة: فقد وافته الجنود بذي قار التي نزل بها. على أهبة واستعداد للسير إلى البصرة وبلغ ما اجتمع لعلّي (١٢ ألفاً).

ولما انتظم عقدهم بذي قار دعا علي القعقاع بن عمرو. وكانت له صحبة فقدمه إلى البصرة ليلقي بها أم المؤمنين وطلحة والزبير، ويعرف ما عندهم. فسار إليهم ولقيهم وحذرهم عاقبة الخلاف. وقال لهم فيما قال: لقد قتلتم بئار عثمان ستمائة رجل. فغضب لهم ستة آلاف من قومهم. فماذا أنتم صانعون غدا إذا ناجزوكم وانتصروا عليكم؟ إن الخير كل الخير في أن تفتنوا بما أخذتم من ثار عثمان وترجعوا إلى الجماعة وتبايعوا علياً فإنه أصلح للأمر، وأن أبيتم إلا مكابرة كانت علامة شر. فأثروا العافية ترزقوها. وكونوا مفاتيح خير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فيصر عنا ويصرعكم. فأظهر القوم الاستحسان. وقالوا: ان جاء علي بمثل ما قلت صلح الأمر فرجع القعقاع إلى الخليفة وأخبره فحمد الله وأمر بالرحيل من ذي قار لعقد الصلح مع حزب السيدة عائشة. وأمر بالا يرتحل معهم أحد أغان علي عثمان في شئ. ثم أرسل الخليفة إلى القوم: ان كنتم مقيمين على ما فارقتم عليه القعقاع، فكفوا واقرونا ننزل، وننظر في هذا الأمر: فنزلوا بالزاوية من البصرة، وجميع المسلمين لا يشكون في الصلح وينتظرون الفرج لصالح الأمة. وبات الناس مغتبطين ما عدا فريق السبيئة فيروى أنهم باتوا شر ليلة خوفا عما عساه يحل بهم من العقوبة إذا ما هدأت الفتنة واستقامت الأمور. فباتوا يتشاورون ليلتهم واستقر رأيهم على نشوب القتال في السر فخرجوا مع الغلس، ووضعوا السلاح في حزب عائشة، فقال طلحة والزبير، ما هذا؟ قالوا

طرقنا أهل الكوفة ليلاً، فقالوا: قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرم، وأنه لن يطاوعنا، وسأل الخليفة عما حدث: فقالوا له: يا أمير المؤمنين ما فجئنا إلا وقوم إلا وقوم منهم بيوتنا فرددناهم من حيث جاءوا ووجدنا القوم على قلب رجل واحد فغلبونا، فقال علي: قد علمت أن طلحة والزبير غير منهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرم، وأنهما لن يطاوعانا.

وحينئذ لم يجد الفريقان بداً من القتال.

هذا ما رواه كثير من المؤرخين في سبب نشوب القتال، ولكن الدكتور طه حسين، يرى أن هذه القصة تخالف طبيعة الأشياء ولا يهضمها إلا السذج، وأنها لا تحتاج إلى كثير عناء في ردها ويستبعد أن تدبر الخيانة في معسكر علي، وهو لا يشعر، ويقول: وإنما الوجه الذي يلائم طبيعة الأشياء هو أن القوم التقوا عند البصرة ووقف بعضهم لبعض، فتناظروا فلم تغن المناظر عنهم شيئاً فكان ما لم يكن بد أن يكون، (الفتنة الكبرى ج ٢) (علي وبنوه ٤٦ و ٤٧).

ونحن نرى ان الذي يسير مع طبيعة الثورات والحروب ويشاهد في مختلف العصور أن الحروب تنشب بسبب أشياء صغيرة يقوم بها أفراد لهم أغراض ومآرب، فيلتبس الأمر على القواد فتكون الحرب العامة وهذا في رأينا ما كان فان البصريين والكوفيين الذين اشتركوا في حصار عثمان خافوا على أنفسهم إذا ما تم الصلح، ويبدو لنا أن المؤرخين أطلقوا اسم السبيئة على جميع الثوار لأعلى من تشيع بمبادئ ابن سبأ فقط، وأياً ما كان فقد وقعت الواقعة وقتل في أثائها الزبير وأصيب طلحة بجرح مميت أودى به فيما بعد.

وقد أدت خسارة القائدين إلى هزيمة جيش البصرة، وكانت عائشة في هودجها في مؤخرة الجيش فمر به المتقهقرون وجيش علي يتعقبهم فأحاط البصريون بالجمل حتى لا يصاب بأذى، ودارت موقعة حامية حوله مات فيها الكثير من أعوان علي محاولتهم الوصول إلى لواء عائشة والاستيلاء عليه.

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل أرسل إليه من عقره، فسقط وسقط الهودج، ثم أمر علي بحمله إلى ناحية بعيدة عن ميدان القتال. حتى لا تصاب أم المؤمنين بأذى، وبقيت عائشة في هودجها إلى الليل، ثم جاءها أخوها محمد بن أبي بكر فأدخلها دارا من دور البصرة فأقامت بها أياما. ثم أرادت الارتحال فجهزها علي بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع، وأختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر وحدث بينه وبينها عتاب، وقالت للناس: إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحماها (أقارب زوجها) وأنه علي معتبتي لمن الأخبار: فقال علي: صدقت وبرت وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.

ولما حانت ساعة الرحيل ودعها علي نفسه وسار بجانب الهودج حتى خارج المدينة وسير أولاده معها مسيرة يوم، وشيعها الناس وكان ذلك في غرة رجب سنة ٣٦ هـ. فسارت إلى مكة وأقامت بها إلى موسم الحج ثم توجهت إلى المدينة. ولم تتدخل بعد هذه الحادثة في الشؤون السياسية، بل بقيت بالمدينة مرجع المحدثين حتى ماتت سنة ٥٨ هـ.

ج - ما قام به علي بعد المعركة :

انتهت معركة الجمل وكان عدد القتلى نحو عشرة آلاف وقتل فيها الكثير من خيار المسلمين، وحزن لذلك أشد الحزن. فكان يتعرف القتلى من أصحابه ومن خصومه، ويتوجع لأولئك وهؤلاء، ويترجم عليها جميعا.

وكان يقول: إن من قاتل فقتل وهو لا يريد بقتاله إلا الحق، ولا يبغى إلا رضى الله فهو شهيد.

ولما جئ إليه بسيف الزبير دعا علي من قتله، وذكر مواقف الزبير يوم أحد. وقد اشتد على أصحابه في ألا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا فارا، ولا يدخلوا دارا، ولا يهتكوا سترا، ولم يقسم بين أصحابه غنيمة إلا ما أ جلب به أهل البصرة من خيل أو سلاح لم يكن ملكا لبيت المال، بل تجاوز إلى أبعد من ذلك. فأمر بجمع ما ترك أهل البصرة في الميدان وحمله إلى المسجد، ونادى مناديه في الناس، من عرف منه شيئا فليأخذه.

وصلى على القتلى جميعا من أنصاره ومن خصومه، وأذن للناس في دفن موتاهم، وجمع الأطراف الكثيرة فاحتقر لها قبرا كبيرا ودفنها فيه، وأقام في معسكره خارج البصرة فلم يدخل المدينة إلا بعد ثلاثة أيام وحين دخلها جاء إلى المسجد فصلى فيه، وجلس للناس فبايعوه، ثم عمد بعد ذلك إلى بيت المال فقسم ما وجد فيه بين الناس وأقبل على معاملة الناس جميعا على السواء، فلم يحاول معاقبة زعماء الحرب الذين انضموا إلى عائشة وجيشها وقد أغضب فعله هذا كله شيعته، ولكنه لم يكثرث لهذا ومضى في طريقه، ولا عجب فهو ربيب النبوة.

د - نتائج موقعة الجمل :

كان لهذه الموقعة نتائج بعيدة الأثر في الإسلام والمسلمين، وإليك أهمها:

أولا : كانت موقعة الجمل نكبة للإسلام وأهله فقد قضت على حياة الألو ف من الأعلام، كان الإسلام في حاجة إلى تعاونهم وتناصرهم، وأنقصت عدد المسلمين نقصا عظيما من غير حرب ولا فتح من أجل الإسلام.

ثانيا : حدوثها سهل على المسلمين فيما بعد ان يقف بعضهم قبالة بعض متحاربين يستحل كل دم الآخر، بعد ان كان هذا الموقف مستحيلا. فكانت فاتحة المعارك الكبرى بين الأحزاب الإسلامية، وأكبر دليل على اتساع الفتق وتعاظم الداء، وصدق من قال من أصحاب النبي حين بلغه قتل عثمان: لقد كنتم تحتلبونها لبنا، ولن تحلبوها منذ اليوم. إلا دما.

ثالثا : نظرا لمركز المتحاربين الديني. سوغ ضعاف الإيمان من الفريقين لأنفسهم الطعن في خصومهم، وحملهم ذلك على وضع الأحاديث وتزوير الأخبار، فكانت بداية سيئة لتمكين الفرقة بين المسلمين بمرويات اكتسبت فيما بعد صبغة دينية.

رابعا : وقوع كثير من رجالات قريش صرعى في الميدان. كان خسارة كبرى لأنه أضعف القرشيين وأصحاب أقدمة والسابقة في الإسلام، في حين أنه لم ينقص عدد الأعراب البدو والذين ما فتئوا من أيام أبي بكر

يحاولون إسقاط قريش عن مكانتها وإضعافها. فكانت تلك الخسارة أول تمهيد للحصول على ما يريدون.

خامسا : سخط الكثير من العرب على قريش ورجالها، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم أوردوا أبناءهم موارد الحتوف.

سادسا : كان نصر علي فيها نصرا لعرب البادية على عرب الحجاز والكوفة على البصرة. فكانت بداية للعصية الإقليمية التي نرى أثرها في العلوم والآداب وكل ما يتصل بالحياة.

سابعا : فرقة الكوفة التي قدمت للنجدة أصبح علي يحسب لها حسابا.

ثامنا : انتقلت عاصمة الإسلام إلى الأبد عن مهدها (المدينة).

تاسعا : يرى الدكتور طه حسين أن هذه الموقعة كانت مصدرا خصبا لخيال القصاص والشعراء حتى أسرفوا في القصص وأضافوا من روائع الشعر والرجز إلى المقتولين ما لم يقولوا إلا أقله وهم مع ذلك لم يبلغوا وصف هذه الموقعة البشعة الشنيعة (علي وبنوه ص ٥٥).

عاشرا : وإذا كانت هذه الموقعة انتصارا حريبا لعلّي، فإنها لم تكن كذلك من ناحية السياسة، فقد قويت دعوى معاوية، وأصحاب ثارات عثمان ضد الخليفة في إيوائه قتله عثمان في جيشه، فخرس بذلك عطف كثير من المسلمين في الحجاز والشام ومصر مع اعتقادهم بأهليته للخلافة، وشغلته

الموقعة عن الخصم الأعظم وهو معاوية الذي انفرد بالشام فاستفحل أمره وعظم خطره، لأنه راح يحكم أمره ويدبر شأنه على أحكم وجه وأتم استعداد للصراع الهائل الذي علم أنه سيكون بعد.

وأخيرا مهما يكن من أمر موقعة الجمل فهي مما تلاها من موقعة صفين وغيرها كجرعة من ماء وكقطرة من بحر.

موقعة صفين

بعد استقرار الأمور في البصرة ولى علي أمرها عبد الله بن عباس، وارتحل إلى الكوفة فجعلها مقر حكومته، وفي الكوفة بدأ علي يحول اهتمامه إلى الشام، لأنه بعد الانتصار في موقعة الجمل انحصر النزاع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان الرابض بالشام ومعه قوة عظيمة أطوع له من بنائه، فوجه جرير بن عبد الله البجلي إليه يدعو للبيعة والدخول في طاعته، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته.

وصل جرير إلى معاوية فكلمه ووعظه وألح عليه في الكلام والوعظ ومعاوية لا يلتفت إليه وتركه مدة طويلة بلا جواب وفي هذه المدة كتب إلى عمرو بن العاص كتابا يذكر له. ويطلب منه القدوم عليه ليمده بالرأي فقدم عمرو على معاوية. وأشار عليه أن يلزم عليا دم عثمان. وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى، فوافق علي على ذلك. ورد رسول الخليفة دون أن يعطيه جوابا مكتوبا. وكل ما قاله له إنه مستعد للخضوع إذا قام علي أولا بمعاقبة قتله عثمان، فرجع جرير إلى الخليفة وأخبره بما قال معاوية، وأخبره أن قميص عثمان لازال معلقا على منبر دمشق، وإن أهل الشام قد آلى رجالهم

ألا يناموا على الفراش حتى يقتلوا قتلة عثمان، وكل من ظاهرهم فلم ير علي أمام هذه الحال إلا المسير إلى معاوية وقتاله، وكون جيشا بلغ عدده نحو خمسين ألفا أو تسعين ألفا على اختلاف الروايات. وكان مثله أو قريب منه جيش معاوية وسار علي بجيشه في ذي الحجة من سنة ٣٦، وكانت خطته أن يزحف إلى أعالي العراق ليغزو الشام من شمالها فسار محاذيا دجلة حتى وصل الموصل. ومنها اخترق ما بين النهرين حتى وصل الفرات وعبره الرقة ومنها قصد حلب فقابلته حاميات أطراف الشام في الطريق.

وكان معاوية عند سماعه بمسير علي قد أعد العدة وعين عمرو بن العاص قائدا عاما فوصل عمرو إلى سهل صفين قبل علي فأزل أصحابه أحسن منزل وأرحبه وأقربه إلى شريعة الفرات، وأقبل علي في جيشه فأنزل أصحابه بإيزاء أصحاب معاوية، فطلب علي من معاوية، أن يترك الماء حرا يشرب منه الجيشان فأبى أصحاب معاوية ذلك فذهبت كتيبة من جيش علي أجلتهم عن الماء، ولما أضر العطش رجال معاوية طلبوا الماء فأذن لهم ودارت المفاوضات بين الفريقين دون أن ينتهوا إلى صلح أو شئ يشبه الصلح، وكان القوم جميعا يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفا من الاستئصال والهلاك.

ولما استيأس علي من خصمه عبأ أصحابه على رأيهم فكانت تخرج فرقة من جيش العراق لها مثله من جيش الشام فيقتتلون، وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذي الحجة.

فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعا في الصلح
وسعت بينهم السفراء سعيًا متصلًا، ولم يأت مسعاهم بفائدة، وانتهت
المفاوضات كسابقتها بالفشل:

(١) لأنها لم تقم على أساس معقول من الأخذ والعطاء فإذا كان علي
يطلب من معاوية الكف عن الحرب والولاء للخليفة، فكان لابد من أن يعرف
معاوية وضعه في العهد الجديد، وأن يأخذ شيئًا في نظير ما يطلبه منه
التنازل عنه.

(٢) ولقلة خبرة الرسل بالسياسة وشدة ميلهم للحرب مما أفسد القلوب
وزاد الفرقة.

(٣) ولأن أكثرهم كان من ذوي الغلظة فكان سعيهم إثارة للشر
والخصومة أكثر منه صلحا وإصلاحا، وظهر لأولئك وهؤلاء في غير شك
ولا لبس أن ليس بد من أن يصدم الجمعان، فبات الفريقان ليلة أول صفر
سنة ٣٧ هـ يشتغلان بتعبئة الجيوش، وفي يوم الأربعاء أول صفر ابتدأت
الحرب واستمرت سبعة أيام على الطريقة السابقة. فرقة لفرقة. ثم رأى
الخليفة أن الحرب على هذا المنوال سيطول، فخرج بجميع جيشه في يوم
الأربعاء ٨ صفر وزحف إليه معاوية بجنود الشام فاقتتل الجيشان نهارهم كله
ثم انصرفوا عند المساء دون أن تكون الغلبة لأحد الفريقين. ثم استؤنفت
الحرب في اليوم التالي، فكشف أهل الشام أهل العراق انكشافا بلغ الهزيمة أو
كاد يبلغها ولكن البطل ابن أبي طالب ثبت ومعه جماعة من أصحابه ودعا
الناس إليه وهيج الأشر النعي الناس لخوض الغمرات فتابعوه وحمل بهم
على الجموع المهاجمة فأزالها وألحقها بصفوف معاوية ولم يزل الأشر في

هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية. وكان معاوية يفر من المعركة، وكان يقول بعد ذلك أردت أن انهزم فذكرت قول ابن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي	وأقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي	وأخذ الحمد بالثمن الرياح
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي أو تستريحي

وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر.

ولما أمسى الليل على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديدا طول الليلة، وكانت ليلة مريرة مشئومة. وكانوا يسمونها بليلة الهرير، تشبها لها بليلة القادسية، حتى إذا أصبح الصباح أخذ الأشر قائد الميمنة العراقية يزحف بفرقته إلى الإمام وكان النصر قد بدأ يكون لجيش علي.

طلب التحكيم :

ولما رأى معاوية أن كفة أهل العراق قد رجحت نادى عمرو بن العاص، وقال له هات ما عندك من المكيدة: فأشار عليه برفع المصاحف على أطراف الرماح ونادى منادي معاوية: هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لشغور الشام بعد أهل الشام، ومن لشغور العراق بعد أهل العراق.

ولما فعل أهل الشام ذلك وقع الخلاف في صفوف جيش علي واشتجرت الآراء ففريق يرى أنه ينبغي قبول هذا العرض لأنهم إنما يحاربون لإعلاء كلمة الله وقد دعوا إليها، وكان على رأس هذا الفريق الأشعث بن قيس الكندي وفريق آخر يرى وجوب مواصلة القتال لأنها خدعة حربية لجأ إليها معاوية وأصحابه حينما أحسوا بالهزيمة وكان على رأس هذا

الفريق الخليفة، وكان النصر قاب قوسين أو أدنى لأهل العراق فالأشتر النخعي كان لا يزال يقاتل ولكن الأشعث وحزبه أجبروا الخليفة على استدعائه وقت النصر فاستدعاه، وحدثت مناقشة عنيفة بين أنصار التحكيم وخصومه في نهايتها قبل علي التحكيم مرغما - لأن أغلب جنده كان يرى قبوله - وجاءه الأشعث وقال له: أذهب إلى معاوية فأعلم يريد؟ فقال علي أذهب حيث شئت. ثم انتحى علي ناحية يندب حظه في جنود لا يطيعونه، وذهب الأشعث إلى معاوية وسأل عما يريده برفع المصاحف، فاقترح تحكيم القرآن فيما بينهما، واختيار رجل من كل الفريقين للقيام بذلك التحكيم، فرجع إلى علي وأخبره فقبل علي كره.

ولما جاء وقت اختيار الحكمين اختارت الجنود الشامية عمرو بن العاص واقترحت الجنود العراقية أبا موسى الأشعري وأصرت على اقتراحها رغم عدم رضا علي عنه ورغم اقتراحه هو بأن يكون الحكم عبد الله بن عباس أو الأشتر النخعي. وكان مما قالوه له في شأن ابن عباس، لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء وفي شأن الأشتر، وهل سعر الأرض غير الأشتر؟

وكذلك لم تفجح محاولات الأشتر والأحنف بن قيس في أن يكون أحدهما الحكم أو مساعدا للحكم.

رأى علي عصيانهم واضحا فقال: اصنعوا ما تريدون، فبعثوا إلى الأشعري وكان قد اعتزل للقتال وأخبروه بالصلح وباختياره حكما فأقبل حتى دخل المعسكر.

عقد التحكيم :

ثم كتب عهد التحكيم بين الطرفين المتنازعين ومؤداه أن يتعهد الحكمان بالرجوع إلى القرآن الكريم لإيجاد حل يرضى به الطرفان فإن لم يجدا ما يعملان به رجعا إلى السنة العادلة الجامعة غير المفرقة، وأن يقف القتال، ويأمن الناس على أنفسهم وأهليهم وأموالهم حتى يفصل الحكمان في القضية، وأن يأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة، وأن يجتمع الحكمان في شهر رمضان من نفس السنة، بدومة الجندل أو بأذرح من دومة الجندل - منتصف المسافة بين الشام والعراق - وأن يرسل كل من علي معاوية أربعمائة من الأتباع والأصحاب ليشهدوا ما يتم الاتفاق عليه.

هذه أهم نصوص الاتفاق، فرجعوا عقد التحكيم في الخصري ج ٢ ص ١٠١ و ١٠٢ أو في تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٧٩ و ٣٨٠، وقد شهد عليه جماعة من أنصار معاوية، وجماعة من أنصار علي، ولم يشهد عليه الأشر، وكان تاريخه ١٣ أو ١٥ صفر سنة ٣٧ هـ.

حدث كل ما تقدم في ميدان القتال، وكان ذلك نهاية معركة صفين التي قتل فيها تسعون ألفا من المسلمين.

وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الإسلامية من أوائل أيام الجهاد في عهد الرسول إلى تاريخ صفين، وكانت نتيجتها زيادة الفرقة بين المسلمين وخاصة جند علي، وبعد أن كتب عقد التحكيم عاد علي بجنده إلى الكوفة، وعاد معاوية بجنده إلى الشام.

لما حان أجل اجتماع الحكمين وهو رمضان بعث علي بن أبي طالب أربعمئة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي وعبد الله بن عباس يصلي بهم ويولي أمورهم، وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمئة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل وعسكر الطرفان، وانفرد الحكمان بعيدا عن المعسكرين في أنرح القريبة من دومة الجندل وهي كالضاحية لها، فتشاورا واتفقا ثم ذهبا يعلنان ذلك للمعسكرين في دومة الجندل، وهنا تختلف الرواية فيروى المسعودي ج ٢ ص ٢٧، أن الحكمين كتبا وثيقة اتفقا فيها على خلع علي ومعاوية، وأن يجعل الأمر بعد ذلك شورى، يختار الناس من يريدون.

ويرى الطبري ج ٦ ص ٢٩، أن الحكمين جرت بينهما مناقشات تدل على انهما اتفقا على خلع المتنازعين، واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا على ان يكون الأمر شورى بين المسلمين يولون من رضوا ولم يكتبوا وثيقة وخرجا لإعلام الناس بذلك، وكان عمرو يظهر دائما تقديم أبي موسى وإكباره لسبقه إلى صحبه النبي ولسنه أيضا، فتقدم أبو موسى وخطب فيبين أن رأيهما قد اجتمع على خلع علي ومعاوية، وعلى المسلمين أن يستقبلوا أمرهم من جديد، ثم تلاه عمرو. فقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان، فشتمه أبو موسى، وماج القوم، وأقبل شريح بن هانئ رئيس الوفد من أصحاب علي فضرب عمرا بسوطه، وقام محمد بن عمرو فضرب شريحا بسوطه، وأقبل الناس فحجزوا بينهما، وانطلق أبو موسى فركب راحلته وسار بها إلى مكة، وعاد أهل الشام إلى معاوية، وسلموا عليه بإمرة المؤمنين.

أي الروايتين نرجح ؟

نرى أن رواية المسعودي أقرب إلى المعقول، لأنها تتسجم مع سير الحوادث، وتلائم شخصية الصحابي الجليل (الأشعري)، الذي كان مؤسساً لإحدى مدارس الفقه، ولا يصح رميه بالغفلة وقصور الرأي، ولأن رواية الطبري من أنه حدثت خطبة فقط وأن الخديعة تمت على أبي موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئاً لأن الذي ثبته إنما هو حكمه فقط، وفي أي شيء ثبت؟ والذي يلزم الأمة إنما هي الوثيقة لا مجرد الكلام، ولو حدث ما يقوله الطبري، ورأى القوم غدر عمرو لوقعت ملحمة بين الفريقين، ولما اكتفى أنصار علي بضرب عمرو بالسوط.

نتائج التحكيم :

١ - ربح معاوية هدنة أنقذته من هزيمة محققة، وعاد إلى دمشق بجند موحد الكلمة، وأعطته مدة الهدنة (سنة شهور) فرصة نظم فيها قواته واستعد للنضال من جديد. بينما خسر علي نصراً كان في يده، وخسر طاعة جنده له ووحدتهم، فقد أرغمته الأكثرية على قبول التحكيم أولاً. ثم عاد فريق منهم يقول: لقد كفرنا بقبول التحكيم وتبنا، ودعوه إلى نقض العهد، وكان يوجد فريق آخر يرى خطأ علي لأنه لم يقاتل معاوية بمن أطاعه ويترك من عصاه.

٢ - لا يمكن لوم علي على قبول التحكيم أول الأمر لأن هذا كان رأي الأكثرية من جيشه، ولا على اختيار الأشعري لأن القوم هم الذين اختاروه وكان الزمام قد افلتت من يد علي في الحقيقة، وكل ما استطاعه أن

يعلن أن الأشعري لا يثق به لأنه خذل الناس عنه واعتزل القتال، وأنه ليس ندا لعمر بن العاص.

٣ - كان موضوع النزاع إنما هو ثار عثمان. فقد طلب علي البيعة من معاوية فاشتراط الثار لعثمان أو تسليم القتلة، ومعنى هذا تسليم معاوية لعلّي بالخلافة فكان يجب تعيين اختصاص وقصر حكمهم على ما قام بسببه الخرب. ولكننا رأينا الحكمين تحدثا في الخلافة، فخرجا على أساس النزاع، وطبعي أن هذا ما أثاره عمرو بن العاص، ولا شك أن معاوية كان يرنو إلى الخلافة.

٤ - لم يكن وراء الحكمين قوة تستطيع تنفيذ ما يتفقان عليه فقد اتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية، وإن يستقبل المسلمون أمرهم من جديد، ودونا ذلك في صحيفة. بيد أننا نرى أن الفريقين لم يذعنا لهذا الحكم، مع أن الحكمين قد فوض إليهما الفصل في هذا الخلاف.

٥ - لا شك أن مجرد رد الخلافة إلى الشورى كان من الناحية العملية في صالح معاوية دون علي. فقد رفع الأول إلى مرتبة الثاني، وجعلهما متساويين. وقد استغل معاوية التحكيم ونتيجته استغلالا طيبا، لتحقيق أغراضه، والوصول إلى الخلافة. بينما لم يجن علي من قبول الهدنة ونتيجة التحكيم إلا كل ما أضر بمركزه أبلغ الضرر. فقد انقسم جيشه عليه وانقلب من كانوا بالأمس أنصاره خصوصا ألداء خرجوا عليه وحاربوه وهم من سمو بالخوارج.

كان قبول علي التحكيم سببا في خروج فريق من جيشه عليه، كان يرى ذلك الفريق أن التحكيم خطأ لأنه يتضمن شك كل من الفريقين المتحاربين أيهما المحق، وليس يصح هذا الشك لأنهم وقتلهم إنما حاربوا وهم مؤمنون - بلا شك - أن الحق في جانب علي لأنه إمام بويع بيعة صحيحة وأن معاوية وأصحابه بغاة يحب قتالهم، وقد بين الله حكم البغاة في عبارة واضحة لا يعتورها لبس ولا خفاء فقال "قاتلوا التي تبغي حتى تفي إلى أمر الله" فكان الأجدد بعلي أن يمضي في حرب معاوية وجماعته حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة المسلمين أو يقتلوا عن آخرهم، ولا يصح إغساد السيوف بعد ما شهرت، ولا يجوز تحكيم الرجال في الدماء، والعدول عن حكم الله إلى حكم الرجال، وهذه المعاني صاغها عروة بن أدية - من بني تميم - أو غيره في عبارة "لا حكم إلا لله" وصاح بها في وجه الأشعث حينما جاء يتلو عليهم كتاب التحكيم، وحمل بسيفه على الأشعث فأخطئه وأصاب عجز دابته وكاد الشر يقع لولا أن أسرع عقلاء بني تميم فاعتذروا للأشعث وقومه فكان عروة أول من حكم، أي نطق بهذا القول ولذا سمي هؤلاء بالمحكمة أو "المحكمة الأولى" وسرت عبارة لا حكم إلا لله كما يسري البرق أو كما تسري النار في الهشيم إلى كل من يعتق هذا الرأي.

أن مؤذن علي في أصحابه بالرحيل عن صفين فرجعوا إلى الكوفة شر مرجع، خرجوا منها أشد ما يكونون إفا ومودة وتصافيا، وعادوا إليها أشد ما يكونون مودة وفرقة واختلافا يتشائمون ويتضاربون بالسياط تقول القلة للكثرة خالفتم أمر الدين وانحرفتم عن القرآن وحكمتم الرجال فيما لا حكم فيه إلا لله وتقول الكثرة للقلة خالفتم الإمام، وفارقت الجماعة ثم لم يدخلوا الكوفة جميعا كما خرجوا منها جميعا، وإنما انحازت المحكمة إلى حر وراء

- ضاحية من ضواحي الكوفة تبعد عنها بميلين - وكانوا يبلغون أثني عشر ألفا فنسبوا إليها وقيل لهم حرورية كما عرفوا بالمحكمة، أما لفظ الخوارج فقد أطلق عليهم من خصومهم لخروجهم على علي أو خروجهم إلى المدائن أو لمفارقتهم الجماعة أو أطلقوه هم على أنفسهم لأنهم فيما يعتقدون خرجوا في سبيل الله أخذ من قوله تعالى "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" وقد سموا أنفسهم في العهد الأموي باسم جديد هو الشراة أي الذي شروا أنفسهم أي باعوها في سبيل الله الذي يقول "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله" وأياما كان الاسم فقد نشأ في الإسلام حزب جديد كان له في تاريخه أثر بعيد، ولما نزلوا بحر وراء نادى مناديه: إن أمير القتال شعث بن ربیع، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عز علي أمير المؤمنين على أن ينفصل هؤلاء عن جنده وأراد أن يأخذهم باللين والحسنى حتى لا يزيد أمره اضطرابا، فأرسل إليهم ابن عباس فجادلهم وجادلوه، وفي أثناء مجادلتهم لأبن عباس جاءهم الخليفة بنفسه وناظرهم فأوضح لهم موقفه من الدعوة إلى التحكيم وكرهيته له، ثم قال لهم: اشترطت أن يحكم الحكمان بما في القرآن فان خالفا لم نلتزم بحكمهما، فنحن إنما حكمنا القرآن لا الرجال، والقرآن خط مسطور بين دفتين لا ينطق وإنما ينطق به الرجال ادخلوا مصركم يرحمكم الله. (راجعوا المناظرات في الخصري ج ٢ من ١٠٦ - ١٠٨، وتاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٣٨٦ وكتب الفرق) فأطاعوه ودخلوا الكوفة، ولكن الشقاق كان متمكنا من نفوسهم فقد جاءوا إليه يطالبونه بالرجوع عما أبرمه مع أهل الشام فأبى أن يجيبهم إلى ما طلبوا وفاء بالعهد والميثاق فإله تعالى يقول: (وأوفوا بعهد الله إذا

عاهدتم). فغضبوا وأكثروا من قولهم: لا حكم إلا لله. وبينما هو يخطب بمسجد الكوفة قاطعوه بهذا النداء الذي تجاوزت به جنابات المسجد. فقال علي: "كلمة حق أريد بها باطل إن لكم عندنا ثلاثا: لا نمنعكم من الصلاة في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من الفياء ما كانت أيديكم مع أيدينا ولا نقاتلكم ما لم تقاتلونا".

وهكذا كان نظر علي إلى الخوارج لم يكفرهم لاختلافهم معه في الرأي والسياسة، ولم يجعل هذا الخلاف موجبا للفرقة. وترك لهم حرية اتخاذ الرأي الأخير في تقرير الحرب أو السلم معه. وكان بذلك عادلا في حكمه إلى أبعد غايات العدالة.

أول إمام للخوارج :

وبعد ذلك اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسي فخطبهم وزهدهم في الدنيا ودعاهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنكار البدع والضلالات إيثارا لوجه الله والدار الآخرة، ودعاهم إلى الخروج من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو بعض المدان، وأشار عليه أحدهم أن يولوا أمرهم رجلا منهم فعرضوها على كثيرين فرفضوها وقبلها الراسي وقال: لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت، فبايعوه لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ هـ أي بعدما عرفوا نتيجة التحكيم. ثم اتفقوا على أن يخرجوا وجدانا مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان - والنهروان كورة واسعة بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي - فتسللوا فرادى إلى النهروان وبلغ عددهم ستة آلاف، وبعد هذا الخروج وعلم الإمام بما حدث في التحكيم أراد أن يعيد الكرة على أهل الشام. فكتب إلى الخوارج بالشخص معه إليه أما بعد فانك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن

شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء ان الله لا يحب الخائنين. فلما وصلتته تلك الرسالة قطع الأمل من معاونتهم له وأخذ يستعد للقاء معاوية فجذ في جمع الجيش وخرج حتى عسكر بالنجيلة، وكتب إلى ابن عباس يطلب منه ان يستنصر أهل البصرة فدعاهم فأتوا ولم يخرج منهم سوى ألف وخمسمائة مع الأحنف بن قيس، فوجه الطلب إلى أهل الكوفة وبعد جهد اجتمع له نحو ثمانية وستين ألفاً أو سبعين ألفاً، ولما أراد المسير إلى الشام بلغه أن بعض أتباعه يقول: لو سار بنا إلى هذه الحرورية (الخوارج) فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام. فقام فيهم خطيباً وبين لهم قتال أهل الشام أهم، فنادى الناس: يا أمير المؤمنين سر بنا إلى ما أحببت، وبينما هو قد تهيأ للخروج إلى الشام بلغه أن الخوارج قد جاوزوا حدود الاعتدال. ولم يراعوا في أهل العراق إلا ولا ذمة فسفكوا دماء نفر منهم وقتلوا الصحابي عبد الله بن خباب وزوجه وهي حملت متم لأنه قال: خيراً في الأربعة الراشدين. فوجه إليهم على رسولاً ليعلم جلية الأمر فقتلوه، فجل الخطب بذلك عن أن يسكت عليه، وطالب العراقيون بالحاف ان يبدءوا بالخوارج قبل أهل الشام فأجابهم علي إلى ذلك وسار إليهم، ولما قاربهم طلب منهم أن يدفعوا إليه القتلة على أن يكف عنهم فأبوا وقالوا: كلنا قتلهم وكنا يستحل دماءهم. فأمر الخليفة أبا أيوب الأنصاري أن ينصب راية ثم قال: "من تقدم إلى هذه الراية فهو آمن، ومن دخل الكوفة فهو آمن، ومن رجع إلى المدائن فهو آمن إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتله إخواننا منكم في سفك دمائكم" فأنصرف منهم جمع وخرج إلى علي جمع وبقي مع ابن وهب ٢٨٠٠ صمموا على الخلاف. فدارت رحى الحرب بين الفريقين، وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من كان معه فكانت موقعة النهروان شبه قاضية على الخوارج، وفر من استطاع الفرار منهم إلى البحرين والاحساء حيث كونوا نواة تلك الفئة المتعصبة التي كانت شراً

ووبالا على ابن أبي طالب فعلى صخرتهم تحطمت سفينة أماله، فقد حملوه على أن يبذل من الجهود ما كان في حاجة ملحة إلى صرفه في قتال معاوية.

ولما فرغ على من أمر الخوارج وأراد التوجه إلى الشام تخاذل عنه شيعته وقالوا له: نفذت نبالنا وكنت سيوفنا فارجع إلى مصرنا نستعد. فعسكر هو بالنخيلة، وأمر الناس أن يلزموا عسكرهم، وأن يوطنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلوا من زيارة أهلهم، وأوصاهم بالجد حتى يسيروا إلى عدوهم، فأقاموا بالمعسكر أياما ثم تسللوا منه إلى المدينة فبات المعسكر خاليا إلا من عدد يسير من وجوه الناس لا غناء فيه فلما رأى على ذلك دخل الكوفة وأنكر عليه رأيه في المسير وقام بينهم خطيبا يقرعهم ويندد بهم فلم يجد سميعة، وصار في جند ضعف سلطان إمامهم في أنفسهم، وفضلوا الراحة على حياة الطعن المريرة.

هذه كانت حال أهل العراق مع خليفتهم، أما حال أهل الشام مع معاوية فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة، وازداد معاوية قوة بعد التحكيم، ثم عظمت قوته بعد خروج الخوارج على علي فبايعوه الشاميون بالخلافة وأخذ يستعد لانتزاع ما تحت يد علي من أقاليم.

معاوية ومصر :

وكان أخوف ما يخاف مصر لأنها متاخمة له وهي مورد عظيم للجنود فهو لا يأمن جيش يتحرك منها فيقع بينه وبين ما عساه أن يطرقه من جيوش العراق، ولأن القائم بأمرها من سنة ٣٦ بطل من أبطال الحرب والمكيدة هو قيس بن سعد بن عبادة، فشرع يدير الحيل والمكايد للاستيلاء عليها فبدأ بمكاتبة قيس، وجعل يمنيته تارة ويخوفه أخرى ليعرف ما عنده

فوجده شديدا لا يلين، ولا يميل وجعل يمينه تارة ويخوفه أخرى ليعرف ما عنده فوجده شديدا لا يلين، ولا يميل إليه، فعمد إلى الحيلة لإيقاع الخلاف بين علي وقيس فأشاع في الشام أن قيسا يتابعه وأن كتبه تأتي إليه وليس أدل على ذلك من مسالمته للعثمانية في خربتنا فنقلت العيون إلى الخليفة ما سمعوه عن قيس فاتهم قيسا، وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتنا وهم يومئذ عشرة آلاف فرد عليه ان حربهم ليس برأي وليس من السياسة في شئ فأبى علي ألا يقاتلهم، وكتب إليه إن كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وابعث إليه غيري فعزله وولى على مصر محمد بن أبي بكر فسارع بقتال أهل خربتنا فثارت عليه مصر، واضطرب عليه أمرها فاضطر الخليفة إلى عزله وتولية الأشتر النخعي فرأى معاوية أن الأشتر في مصر يكون شرا من قيس ابن سعد فأرسل له رجلا ترصد له في الطريق عند القلزم ودس له السم في طعامه فمات ولم يدخل مصر. ثم جهز معاوية جيش لغزو مصر وأمر عليه ابن العاص فسار إليها وانضم إليه العثمانية وصنائه فيها وانتزع عمرو مصر من يد محمد بن أبي بكر وقبض عليه وقتل وهو في أشد حالات العطش ويروى أنهم أحرقوا جثته في جيفة حمار وبذلك أصبحت مصر ولاية أموية، وهي أهم ولايات الدولة بعد العراق فخر علي بذلك كثيرا من النواحي السياسية والحربية والاقتصادية وكان ذلك أبرز أحداث سنة ٣٨ هـ.

ومعاوية يضم بلاد أخرى :

لم يقنع معاوية بما احتازه من شذا المغرب (مصر) وإنما أطعمه انتصاره واجتماع أصحابه عليه وطاعتهم له وكيده لعلي في العراق ضم بلاد أخرى فأرسل جيوشا للإغارة على ما بيد علي من الأمصار فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر فاستولى عليها، وأرسل سفيان بن عوف إلى هيت وإلى الأنبار والمدائن. فسار حتى هيت فلم يجد بها أحد فاستولى عليها ثم أتى

الأنبار وبها مسلحة لعلّ يغلبهم علي أمرهم وأخذ ما بها من الأموال وعياد معاوية ووجه الضحّاك بن قيس للإغارة على بوادي البصرة، ووجه بسر بن أرطاة وكان جبارا إلى الحجاز فملك المدينة ومكة وباع أهلها لمعاوية ثم أتى اليمن وعليها عبيدة الله بن عباس فلما علم به عبيدة الله، فر إلى الكوفة فاستولى بسر على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيدة الله. وكان ذلك سنة ٣٩، وهكذا تم لمعاوية الاستيلاء على أكثر الأقطار وأهل العراق في تخيّل، وعلي رضى الله عنه يعمل على إثارة حماسهم بخطبه البليغة التي نجد الكثير منها في نهج البلاغة ولا سميع. فلا عجب إذا رأينا الخليفة صاحب البيعة يطلب الهدنة من معاوية في هذه السنة فيجيبه إليها علي أن يكون كل واحد سيّدا في جبهته، وفي موسم الحج كان لكل منهما نائب عنه يحج بالمسلمين.

مقتل الخليفة الرابع سنة ٤٠ هـ :

وبينما كان علي يجاهد حياته المرة تلك ويجاهد أصحابه ليحملهم على النهوض معه لحرب أهل الشام ويبعث البعث لرد غارات معاوية على أطرافه. ويجاهد الخوارج، ويجاهد عماله ليأخذهم بالأمانة في أعمالهم بينما كان علي في هذا كله، كان نفر من الخوارج يشهدون موسم الحج ويرون اختلاف الحجاج من أصحاب علي ومعاوية فتذكروا أمر الناس وعابوا عمل ولاّتهم، وذكروا مصارع إخوانهم الذين قتلوا في يوم النهروان وفيما تلاه من أيام فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فتعاقد ثلاثة منهم بجوار الكعبة على اغتيال علي ومعاوية وعمرو بن العاص الذين هم في نظرهم أصل الاختلاف، وسبب الحروب، وعلى أن يكون ذلك الاغتيال في يوم واحد هو صباح ١٧ رمضان، وأخذ عبد الرحمن بن ملجم المرادي على عاتقه قتل علي وأخذ البرك بن عبد الله على عاتقه قتل معاوية وتعهد عمرو بن بكر

التميمي بقتل عمرو بن العاص وأقاموا في مكة أشهراً ثم اعتمروا في رجب ثم تفرقوا لتنفيذ الاتفاق.

وفي ليلة الجمعة ١٥ من رمضان تسرع ابن ملجم ومساعدوه وتربصوا لعلهم وهو خارج لصلاة الفجر فضربه ابن ملجم بالسيف في جبهته فبلغ دماغه وهو يقول: لا حكم إلا لله ولا لأصحابك يا علي. ففرع المسلمون بالمسجد إلى خليفتهم وهو يقول: لا يفوتكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب، ودخل الناس على علي فقالوا له: ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن: فقال: ما أمركم ولا أنهاركم أنتم أبصر. ثم أوصى أولاده بتقوى الله، وعدم الاعتماد على من خذلوه، وتوفي يوم الأحد ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ ودفن بالكوفة، وأما البرك فقد ترصد لمعاوية ثم ضربه بالسيف فلم يبلغ منه شيئاً لأنه كان دارعاً فيما يقول بعض المؤرخون أو لأنه لم يصب منه مقتلًا فيما يقول بعضهم الآخر، وشد الناس على البرك فقتلوه، ومن ذلك الوقت اتخذ معاوية الحراس والحجاب والمقصورة في المسجد، وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو فلم يخرج لمرض ألم به وصلى بدله خارجة بن حذافة صاحب شرطته فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو، فلما عرفت الحقيقة قال: أردت عمراً وأراد الله خارجة. وهكذا أخلت مؤامرة الخوارج الطريق نهائياً أمام معاوية وذهب ضحيتها أعلم أهل عصره وأشجعهم وأزهدهم في الدنيا. سيد أبطال المسلمين علي بن أبي طالب، وهكذا لقي أبو السبطين حتفه على يد الذين كان يعتز بتأييدهم له في الماضي القريب ومات المدافع الأخير عن الحياة السياسية الرفيعة التي تخضع السياسة للمثل العليا وهكذا مات غريباً عن القرية التي ولد فيها ودفن في مكان يختلف القدامى في تحديد موضعه أشد الاختلاف فهو لم يأنس للناس في حياته، فلما ودع هذه الحياة لم يأنس جثمانه إلى مكان.

نص للقراءة من كتاب الفتنة ووقعة الحمل

رواية

سيف بن عمر الضبي الأسدي

صفة القتال يوم الجمل:

قال القعقاع: ما رأيت شيئا أشبه من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين، لقد رأيتنا ندافعهم بأسننتنا، ونتكئ على ازجتنا، وهم مثل ذلك حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلت بهم.

إنزال هودج عائشة:

أتى محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر عائشة، وقد عقر الجمل، فقطعا غرضة الرحل واحتملا الهودج، فنحياه حتى أمرهما علي فيه أمره بعد، قال: أدخلها البصرة، فأدخلها دار عبد الله بن خلف الخزاعي.

و أمر علي نفرا بحمل الهودج من بين القتلى، وقد كان القعقاع وزفو ابن الحارث أنزلاه عن ظهر البعير، فوضعا إلى جنب البعير، فأقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه نفر، فأدخل يده فيه، فقالت: من هذا؟ قال: أخوك البر، قالت: عقوق. قال عمار بن ياسر: كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه؟ قالت: من أنت؟ قال: أنا ابنك البار عمار، قالت: لست لك بأم، قال: بلى، وإن كرهت. قالت: فخرتم إن ظفرتم، وأتيتم مثل ما نقمتم، هيهات، والله لن يظفر من كان هذا دأبه. وأبرزوها من القتلى، ووضعوها ليس قريبها أحد، وكان هودجها فرخ مقصب مما فيه من النبل، وجاء أعين بن ضبيعه المجاشعي حتى أطلعها في الهودج، فقالت: إليك لعنك الله! فقال: والله ما أرى إلا حميراء، فقالت: هتك الله سترك، وقطع يدك، وأبدا عورتك. فقتل بالبصرة

وصلب، وقطعت يده، ورمى به عريانا في خربة من خربات الأزد، فانتـهـى إليها علي، فقال: أي أمة، يغفر الله لنا ولكم، قالت: غفر الله لنا ولكم. " وفي رواية أخرى "

انتهى محمد بن أبي بكر ومعه عمار، فقطع الأنساع عن اليهودج، واحتملاه، فلما وضعاه أدخل محمد يده وقال: أخوك محمد، فقالت: مزمم، قال: يا أخية، هل أصابك شيء؟ قالت: ما أنت ممن ذاك؟ قال: فمن أذن؟ الضلال؟ قالت: بل الهداه، وانتهى إليه علي، فقال: كيف أنت يا أمة؟ قالت بخير قال: يغفر الله لك. قالت: ولك.

ولما كان من آخر الليل خرج محمد بعائشة حتى أدخلها البصرة، فأنزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية ابنة الحارث بن طلحة بن أبي طلحة أين عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وهي أم طلحة الطلحات بن عبد الله بن خلف.

"وكانت الواقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ في قول الواقدي "

مقتل الزبير بن العوام:

لما انهزم الناس يوم الجمل عن طلحة والزبير، ومضى الزبير رضى الله عنه حتى مر بعسكر الأحنف، فلما رآه وأخبر به قال: والله ما هذا بخيلر، وقال للناس: من يأتينا بخبره؟ فقال عمرو بن جرموز لأصحابه: أنا، فاتبعه، فلما لحقه نظر إليه الزبير - وكان شديد الغضب - قال: ما وراءك؟ قال: إنما أردت أن أسألك، فقال غلام للزبير يدعي عطية كان معه: إنه معد،

فقال: ما يهولك من رجل؟ وحضرت الصلاة، فقال ابن جرموز: الصلاة، فقال الزبير: الصلاة، فنزلا، واستدبره ابن جرموز فطحنه من خلفه فسي جريان درعه، فقتله، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه، وخلي عن الغلام، فدفنه بوادي السباع، ورجع إلى الناس بالخبر. فأما الأحنف فقال: والله ما أدري أحسنت أم أسأت؟ ثم أنحدر إلى علي وابن جرموز معه، فدخل عليه، فأخبره، فدعا بالسيف، فقال: سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبعث بذلك إلى عائشة، ثم أقبل على الأحنف فقال: تربصت، فقال: ما كنت أراني إلا قد أحسنت، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فافرق فإن طريقك الذي سلكت بعيد، وأنت إلى غدا أحوج منك أمس، فأعرف إحساني واستصف مودتي لغد، ولا تقولن مثل هذا، فإنني لم أزل لك ناصحا.

من انهزم يوم الجمل فاختلفى ومضى في البلاد:

ومضى الزبير في صدر يوم الهزيمة راحلا نحو المدينة، فقتله ابن جرموز، وخرج عتبة بن أبي سفيان وعبد الرحمن ويحيى ابنا الحكم يوم الهزيمة، قد شجعوا في البلاد فلقوا عصمة بن أبيير التيمي، فقال: هل لكم في الجوار؟ قالوا: من أنت؟ قال عصمة بن أبيير. قالوا: نعم، قال: فأنتم في جواري إلى الحول، فمضى بهم، ثم حماهم وأقام عليهم حتى برئوا، ثم قال: اختاروا أحب بلد إليكم أبلغكموه، قالوا: الشام، فخرج بهم في أربعمئة راكب من تيم الرباب، حتى إذا غلوا في بلاد كلب بدومة، قالوا: قد وفيت ذمتك وذممهم، وقضيت الذي عليك فأرجع، فرجع، وفي ذلك يقول الشاعر:

وفي ابن أبيير والرماح شوارع بآل أبي العاصي وفاء مذكرا

وأما ابن عامر فإنه خرج أيضا مشججا، فتلقاه رجل من بني حرقوص، يدعى مريا، فدعاه للجوار، فقال نعم، فأجاره و أقام عليه؟ وقال: أي البلدان احب إليك؟ قال: دمشق. فخرج به في ركب من بني حرقوص حتى بلغوا به دمشق. وقال حارثة بن بدر - وكان مع عائشة، وأصيب في الواقعة ابنه أو أخوه زراع.

أتاني من الأنباء أن ابن عامر أناخ والقي في دمشق المراسيا

وأوى مروان بن الحكم إلى بيت من عنزة يوم الهزيمة، فقال لهم: اعلموا مالك بن مسمع بمكاني، فأتوا مالكا فأخبروه بمكانه، فقال لأخيه مقاتل: كيف نصنع بهذا الرجل الذي قد بعث إلينا يعلمنا بمكانه؟ قال: ابعث ابن أخي فأجره، والتمسوا له الأمان من علي، فان آمنه فذاك الذي نحب، وان لم يؤمنه خرجنا به وبأسيافنا، فإن عرض له جالدنا دونه بأسيافنا، فيما أن نسلم، وإما أن نهلك كراما. وقد استشار غيره من أهله من قبل في الذي استشار فيه مقاتلا، فنهاه، فأخذ برأي أخيه، وترك رأيهم، فأرسل إليه فأنزله داره، وعزم على منعه إن اضطر إلى ذلك، وقال: الموت دون الجوار وفاء، وحفظ لهم بنو مروان ذلك بعد، وانتفعوا به عندهم، وشرقوهم بذلك، وأوى عبد الله بن الزبير إلى دار رجل من الأزدي يدعى وزيرا، وقال: إئت أم المؤمنين فأعلمها بمكاني، وإياك أن يطلع على هذا محمد بن أبي بكر، فأتى عائشة رضى الله عنها فأخبرها، فقالت: علي بمحمد، فقال: يا أم المؤمنين، إنه قد نهاني أن أعلم به محمد، فأرسلت إليه فقالت: اذهب مع هذا الرجل حتى تجيئني بأبن أختك، فانطلق معه، فدخل بالأردى على ابن الزبير، قال: جئتك والله بما كرهت، وأبت أم المؤمنين إلا ذلك. فخرج عبد الله ومحمد وهما يتشاثمان، فذكر محمد عثمان فشتمه، وشتم عبد الله محمدا حتى انتهى إلى عائشة في

دار عبد الله ابن خلف - وكان عبد الله بن خلف قبل يوم الجمل مع عائشة، وقتل عثمان أخوه مع علي - وأرسلت عائشة في طلب من كان جريحا فضمت منهم ناسا، وضمت مروان. فيمين ضمت، فكانوا في بيوت الدار.

وغشى الوجوه عائشة وعلي في عسكره، وخجل القعقاع بن عمرو على عائشة في أول من دخل، فسلم عليها، فقالت: إني رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدي وارتجزا بكذا، فهل تعرف كوفيك منهما؟ قال: نعم، ذلك الذي قال: "أعنت أم نعلم"، وكذب والله، إنك لأبر أم نعلم، ولكن لم تطاعي، فقالت: والله لو ددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وخرج فأتى عليا فأخبره أن عائشة سألته، ويحك من الرجلان؟ قال: ذلك أبو هالة الذي يقول:

* كيما أرى صاحبه عليا *

فقال: والله لو ددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة، فكان قولهما واحد. وتسأل الجرحى في جوف الليل، ودخل البصرة من كان يطيق الانبعاث منهم، وسألت عائشة يومئذ عن عدة من الناس، منهم من كان معها، ومنهم من كان عليها، وقد غشيها الناس، وهي في دار عبد الله بن خلف، فكلما نعي لها منهم واحد قالت: يرحمه الله، فقال لها رجل من أصحابها: كيف ذلك؟ قالت: كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان في الجنة. وفلان في الجنة، وقال علي بن أبي طالب يومئذ: إني لأجور ألا يكون أحد من هؤلاء نقي قلبه إلا أدخله الله الجنة.

قال علي: ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم آية أفرح له من قول الله عز وجل: "وما أصابكم من مصيبة فبما أيديكم ويعفو عن كثير"، فقال صلى الله عليه وسلم: "ما أصاب المسلم في الدنيا من مصيبة في نفسه فبذنب، وما يعفو الله عز وجل عنه أكثر، وما أصابه في الدنيا فهو كفارة له وعفو منه لا يعتد عليه فيه عقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عز وجل في الدنيا فقد عفا عنه، والله أعظم من أن يعود في عفوه".

دفن القتلى وتوابع علي عليهم:

وأقام علي بن أبي طالب في عسكره ثلاثة أيام لا يدخل البصرة، وندب الناس إلى موتاهم، فخرجوا إليهم فدفنوههم، فطاف علي معهم في القتلى، فلما أتى بكعب بن سور قال: زعمتم أنما خرج معهم السفهاء، وهذا الخبر قد ترون. وأتى علي عبد الرحمن بن عتاب فقال: هذا يعسوب القوم - يقول الذي كانوا يطيفون به - يعني أنهم قد كانوا اجتمعوا عليه، ورضوا به لصلاتهم. وجعل علي كلما مر برجل فيه خير قال: زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء، هذا العابد المجتهد. وصلى على قتلهم من أهل البصرة، وعلى قتلهم من أهل الكوفة، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء، فكانوا مدنيين ومكيين، ودفن علي الأطراف في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من شيء، ثم بعث به إلى مسجد البصرة، أن من عرف شيئاً فليأخذه، إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان، فإنه لما بقي لم يعرف، خذوا ما أجلبوا به عليكم من مال الله عز وجل، لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء، وإنما كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تفيل من السلطان.

عدد قتلى الجمل:

كان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة، من الأزدي ألفان، ومن سائر اليمن خمسمائة، ومن مضر ألفان، وخمسمائة من قيس، وخمسمائة من تميم، وألف من بني ضبة، وخمسمائة من بكر بن وائل. وقيل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف وقتل من أهل البصرة في المعركة الثانية خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة، ومن أهل الكوفة خمسة آلاف. وقتل من بني عدي يومئذ سبعون شيخاً، كلهم قد قرأ القرآن، سوى الشباب ومن لم يقرأ القرآن.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما زلت أرجو النصر حتى خفيت أصوات بني عدي.

دخول علي على عائشة ومعاقبته من أساء إليها:

ودخل على البصرة يوم الاثنين، فانتهى إلى المسجد فصلى فيه، ثم دخل البصرة، فأتاه الناس، ثم راح إلى عائشة على بغلته، فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف وهي أعظم دار بالبصرة، وجد النساء يبكين على عبد الله وعثمان ابني خلف مع عائشة، وصفية ابنة الحارث مختمرة تبكي، فلما رآته قالت: يا علي، يا قاتل الأحبة يا مفرق الجمع، أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه. فلم يرد عليها شيئاً، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة، فلم يسلم عليها، وقعد عندها وقال لها: جبهتنا صفية، أما إنني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم. فلما خرج علي أقبلت عليه الكلام، بغلته وقال: أما لهمت - وأشار إلى الأبواب من الدار - أن أفتح من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه - وكان أناس من الجرحى قد لجئوا إلى عائشة،

فأخبر علي بمكانهم عندها، فتغافل عنهم - فسكتت. فخرج علي، فقال رجل من الأزد. والله لا تفلتتا هذه المرأة. فغضب وقال: صه، لا تهتك سترًا ولا تدخلن دارًا، ولا تهيجن امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسفنن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن، وإنهن لمشركات، وإن الرجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس. ومضى علي فلحق به رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قام رجلان ممن لقيت على الباب، فتناولوا من هو أمض لك شتيمة من صفية. قال: ويحك، لعلها عائشة، قال: نعم، قام رجلان منهم علي باب الدار فقال أحدهما:

* جزيت عنا أمانًا عقوقًا *

وقال الآخر:

* يا أمانًا توبي فقد خطيت *

فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب، فأقبل بمن كان عليه، فأحالوا على رجلين فقال: اضرب أعناقهما، ثم قال لأنهنكهما عقوبة. فضربهما مائة مائة وأخرجهما من ثيابهما.

وهما رجلان من أزد الكوفة يقال لهما عجل وسعد ابنا عبد الله.

بيعة أهل البصرة عليا وقسمه ما في بيت المال عليهم :

بائع الأحنف من العشي لأنه كان خارجا هو وبنو سعد، ثم دخلوا جميعا البصرة، فبايع أهل البصرة على راياتهم، وبايع علي أهل البصرة حتى الجرحى والمستأمنة فلما رجع مروان لحق بمعاوية. وقال قائلون: لم يبرح المدينة حتى فرغ من صفين.

ولما فرغ علي من بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة، فقسمها على من شهد معه [الواقعة]، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة خمسمائة، وقال: لكم إن أظفركم الله عز وجل بالشام مثلها إلى اعطياتكم. وخاض في ذلك السيئة، وطعنوا على علي من وراء وراء.

سيرة علي فيمن قاتل يوم الجمل :

كان من سيرة علي ألا يقتل مدبرا ولا يذفف على جريح، ولا يكشف سترا، ولا يأخذ مالا، فقال قوم يومئذ: ما يحل لنا دماءهم، ويحرم علينا أموالهم؟ فقال علي: القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا، ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر، وإن لكم في خمسه لغنى، فيومئذ تكلمت الخوارج.

خروج عائشة من البصرة إلى مكة :

قصدت عائشة مكة فكان وجهها من البصرة، وانصرف مروان والأسود ابن أبي البختري إلى المدينة من الطريق، وأقامت عائشة بمكة إلى الحج، ثم رجعت إلى المدينة.

كتابة علي إلى عامله بالكوفة :

وكتب علي بالفتح إلى عامله بالكوفة حين كتب في أمرها وهو يومئذ

بمكة:

من عبد الله علي أمير المؤمنين. أما بعد، فإننا التقينا في النصف من جمادى الآخرة بالخریبة - فناء من أفنية البصرة - فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين، وقتل منا ومنهم قتلى كثيرة، وأصيب ممن أصيب منا ثمامة بن المثني، وهند بن عمرو، وعلباء بن الهيثم، وسيحان وزيد ابنا صوحان، ومحدوج.

وكتب عبيد الله بن رافع. وكان الرسول زفر قيس إلى الكوفة

بالبشارة في جمادى الآخرة.

وقد علم أهل المدينة بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس من تسر مر بما حول المدينة، معه شيء متعلقه، فتأمله الناس فوق، فإذا كف فيها خاتم، نقشه "عبد الرحمن بن عتاب"، وجفل من بين مكة والمدينة من أهل البصرة من قرب البصرة أو بعد، وقد علموا بالوقعة مما ينقل إليهم النسر من الأيدي والأقدام.

تجهيز علي عائشة وإرسالها إلى المدينة :

وجّهز علي عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وقال: تجهز يا محمد، فبلغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس، فخرجت على الناس وودعوها وودعتهم، قالت: يا بني، تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي على معتبتي من الأخيار. وقال علي: يا أيها الناس، صدقت والله وبرت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة.

وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ هـ، وشيعها علي أميالا، وسرح بنيه معها يوما.

[تمت نصوص رواية سيف بن عمر المتعلقة بمقتل عثمان ووقعة الجمل]

الفهرست

الموضوع	الصفحة
مصادر كتابة تاريخ العرب والإسلام	٩-١٤
بلاد العرب : الجغرافيا والسكان	١٥-٢٥
حضارات جنوب شبه جزيرة العرب	٢٦-٤١
ممالك شمال شبه جزيرة العرب	٤٢-٦٠
إقليم وسط شبه جزيرة العرب	٦٠-٩٩
نصوص هامة للقراءة	١٠٠-١٢٣
الفصل الثاني : السيرة النبوية	
الرسول عليه السلام قبل البعثة	١٢٧-١٥٠
الفترة المكية	١٥٠-١٨٨
الفترة المدنية	١٨٨-٢٥١
الباب الثالث : الخلفاء الراشدون	
عصر أبي بكر رضي الله عنه	٢٥٥-٢٧٧
عصر عمر رضي الله عنه	٢٧٨-٣٠٠
عصر عثمان رضي الله عنه	٣٠١-٣٢٣
عصر علي رضي الله عنه	٣٢٤-٣٦٢
نص مهم للقراءة	٣٦٣-٣٧٣
الفهرست	٣٧٤

